المواجهة بين النبي ﷺ وبين المنافقين

رصد قرآني

تأليف

الشيخ عبد الكريم النيري

تحقيق

السيد محمد شعاع فاخر

الجزء الأول

دار
أنوار العلم

شبكة الفكر
alfeker.net

المواجهة بين النبي (ص)

وبين المنافقين (رصد قراني)

هوية الكتاب

عنوان الكتاب: المواجهة بين النبي (ص) وبين المنافقين(رصد قرآني)

تأليف: .... الشيخ عبد الكريم نيّري

تحقيق: .... السيد محمد شعاع فاخر

سنة الطبع: .... ٢٠١٣ ميلادية

المطبعة: ....

عدد صفحات الكتاب: ....٤٩٨ صفحة

الإخراج الفني: .... السيد عبدالله الهاشمي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المواجهة بين النبي (ص)

وبين المنافقين (رصد قرآني)

الجزء الأول

تأليف الشيخ : عبد الكريم نيري

تحقيق

السيد محمد شعاع فاخر

بسم الله الرحمن الرحيم

المواجهة بين النبي (ص) وبين المنافقين(رصد قرآني)

ألمقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب مؤسس على أساس البحث والتقصي اللفظي في آيات القرآن المجيد.

الكتاب الحاضر بين يديك وقد أسميناه: « المواجهة بين النبي (ص) وبين المنافقين(رصد قرآني)»

وقد حررناه على أساس البحث المعمّق والتقصي اللفظي في آيات القرآن الكريم وقد اكتسى حلة الاستدلال اللفظي لكي يتسنّى للباحث - وإن لم يكن مسلماً بل وإنْ كان غير متدين بدين ما- التعرف على آثار المنافقين من خلال الألفاظ المقصودة في الاستعمال في الآيات القرآنية، والقرآنهو السند الأعظم أصالة من أي سند إسلامي آخر وتقتصر معرفة الآثار هذه في دائرة الدعوة الإسلامية منذ بدء انطلاقها.

وبناءً على هذه الرؤية في البحث سنقف على الوجه الآخر المقابل لقضية النفاق، وهوفريق المؤمنين كاملي الإيمان، ويتضمن

البحث في كلام الوحي طرفين متناقضين وهما؛ قمة السعادة وأوجّ الإيمان، والطرف المقابل هو حضيض الشقاوة وتدني الاعتقاد، ولكل طرف مصاديق يمكن تمييزها بملامحها الخاصة من حيث ملاحظة متون الآثار وتطابقها مع الآيات المعهودة. و حينئذٍ يتم فرز ملامح كل فريق عن الآخر بيسر وثقة.

الشيخ عبد الكريم نيّري

إهداء

إليكَ يا رسول الله.

أهدي هذا السِفر ..

ليكون شاهداً على ما لاقيته من محنٍ أثارتها بعض زمر **«الأصحاب»** وأنت تريد بهم إلى الكمال، كما أرادوا بجهودك إلى حيث مصيرها المجهول.

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

هُدي الإنسان إلى أسس أقام عليها دعائم حضارته ما تزال منذ وضعها إلى اليوم تمدّ الحضارات بالقوّة والثبات، وتتطوّر الحضارات وتسود حيناً ثمّ تبيد، وهي قائمة لاغنىً عنها في أيّ حضارة تبرز للوجود.

وقد يتنكّر الإنسان لنوع من أنواع الحضارات التي أقامها، فيبني حضارة جديدة مغايرة شكلاً ومضموناً لما سبقها، إلاّ أنّ الأسس التي قامت عليها ما يزال يراعيها ويحميها، وهي إن مسّها التطوّر أو التغيير فإنّما يمسّ الأعراض، والجوهر باق كما هو، وهذه الأعراض يغيّر تطوّيرها وجه الدنيا كلّها، والأسس التي عنيناها هي الكتاب، الذي ما قامت الحضارات إلاّ عليه، ولاتطوّرت إلاّ به.

كان في البداية عبارة عن خطوط ونقوش ترسم على الأحجار فوق شوامخ الجبال أو في المغارات والكهوف، ثمّ تقدّم الزمن بالإنسان فاخترع الحروف والأرقام، وإذا بوجه البشريّة كلّه يتغيّر. وهكذا تقدّم الزمن فاخترع الورق والقلم والحبر وما إلى ذلك، وإذا تحت كلّ واحد من هذه الأسماء عالم يضجّ بأحداث التطوّر والتغيّر.

حتّى إذا اخترعت الطباعة شكلت قفزة كبيرة من عالم إلى عالم،واكتسى وجه حضارتنا اليوم بوهج ذلك الاختراع العظيم، وما تزال الاختراعات تتوالى والتطوّر يتتالى، ونحن بين مواكب له وناكب عن طريقه، وهنا يكمن سرّ التقدّم والتأخّر.

واخترع للكتاب منافس، وتنبّأ قوم من قبل بخاتمة حتميّة له، وألفوا حول ذلك وكتبوا الكتب، ووضعوا الحكايات والقصص وطبعوها بطابع سمّوه الطابع العلميّ، وحدّثونا جازمين أنّ اليوم المحتوم الذي تنتهي المقاصد فيه من الكتاب وشيك الوقوع.

وجاء هذا اليوم وعلى يديه الكمبيوتر بتفاصيله الغريبة، فلم ينقص إقبال الناس على الكتاب قيد أنملة بل زاد، وصارت الاختراعات المنافسة خدماً للكتاب، زادته كمالاً وجمالاً وعزّاً، ولعلّ أحد الأسباب أو أهمّها إن أردت الحقّ هو كتاب الله، حيث جعله الله معجزة خاتمة في كتاب خاتم على نبيّ خاتم بشريعة خاتمة، وهيهات أن يتعرّض الكتاب وهو الذكر والله له حافظ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(١)].

أجل، صار للكتاب منافس لم يوقف زحفه، ولكن زهّد بعض القرّاء فيه من دون حطّ لكرامته، وقد خاله هذا البعض بديلاً متطوّراً عن الأصل وهو الكتاب، مقروء أحياناً، ولكنّه غير مطبوع على الورق، بل على صفحة النور المتألقة وبحروف نوريّة أيضاً، وبيدك أمره إن شئت أدنيته، وإن شئت أبعدته، وإن شئت ضخّمته، وإن شئت لطفته، وكذلك ألوانه اختر منها ما لائم بصرك، وأنس به

---

(١)الحجر ١٥: ٩.

مزاجك.

وهذا كتاب أيضاً، ولكنّه محمول بسلّة نوريّة غير سلّته الأصليّة،وإن كانت هذه الأخيرة على مكانتها الأولى ما تزال مطلوبة ومرغوباً فيها، وتتهافت عليها النفوس، ويومها كأمسها، فثبت من هذا أنّ أيّ اختراع يراد منه مناقشة الكتاب يبدأ منافساً وينتهي خادماً.

ومسموع أحياناً، ويقصد بهذا المسموع أمران إلى جانب اُمورا اُخرى جانبيّة، الأوّل السرعة؛ لأنّك ساعة تنطقه يسمعه القاصي والداني، والثاني وفرة العدد السامع، فقد يغطّي الكرّة الأرضيّة كلّها بلمح البصر، وهنا تبدأ معاناة لي شخصيّة، ولست أدري هل استبدّت بي أو انتظمت مع غيري، وعليّ تقديمها للقارئ هنا لأنّها تنتظم بنسق مع ما أنا فيه، ولأفصح له بأمانة عن كلّ ما يعترض طريق الداعي والمبلّغ.

فتحت عيني وأنا أنساب إلى عالم الكهولة المضني، على دنيا قد تغيّرت جرى كلّ ما فيها متطوّراً، ووقفت كالحجر الصوان في مكاني أرمق التطوّرات الحادثة بعيون مستريبة، وأرى نفسي لست من جيلها، وحرصت على عالمي الخاصّ، واحتضنته بشغف، وانطويت عليه جازماً بأنّ الحقيقة تكمن فيه، فإذا ما قدّر لي أن اُفارقه، فكأنّي مفارق الحقيقة ذاتها، حتّى خلطائي ومَن أنست بهم فقد اخترت طبقة منهم لها صلة بالماضي الذي عضضت عليه بالنواجذ(١)، وكأنّي لأرى موجة التغيير التي غمرت الدنيا، وما استثنتني أنا الذي حسبت

(١)عظ وعض ما كان بغير جارحة فهو بالطاء نحو عظ الزمان، وما كان بجارحة فهو بالضادّ نحو: عضّ الكلب والإنسان وغيرهما. تثقيف اللسان: ٦٨.

بعض زوابعها فقاعة الصابون، وتمنّيت لها الانفجار بعد لحيظات. فإذا ما اجتازت عالمي المغلق قلت في نفسي إلى غير رجعة، وهكذا دواليك حتّى آل بي الأمر أن كادت موجة التغيير هذه أن تقطع صلتي بالمستقبل، وفجأة وأنا في قوقعة الخيال وإذا بي أرى السماء التي تظلّني، وكانت مفتوحة في وجهي، وتملأ رقعتها الطيور المهاجرة والطيور المستوطنة، فناطحها العمارات الشاهقة وناطحات السحاب. وأرى المفازة الزرقاء المغمورة بنور الشمس والممتدّة بين يديها قد استحالت إلى طرق زرقاء وأزقة مثلها تملأها الحفر المكوّنة من تفاوت الارتفاع والانخفاض في مستوى العمارات التي حاصرتني على الأرض.

أمّا هذه الأرض التي أدرج عليها طيلة المدّة التي عشتها، فقد تغيّرت فيها الوجوه والقشرة التي تكسوها، والسيّارات التي تمرّ بي كلمح البصر، والتي ألفتها من قبل وكانت فضفاضة، يرتحلها الراكب وكأنّه في إحدى غرف مسكنه، أمّا اليوم فقد جمعت نفسها وتكوّرت، وأصبحت بمثابة الوجبات الجاهزة التي يقضمها الإنسان وهو يتحرّك جيئة وذهاباً، وتضاعفت سرعتها إلى المثلين والثلاثة وهكذا.

وربّما اجتازت بي سيّارة نسيها الزمن فظلّت تدرج مع صويحباتها غريبة في شكلها تذكرني بأمسي القريب، فأتنفس الصعداء، وأردّد مع الشاعر قوله:«رحم الله زمان اللبن...» ولم يبق شيء حولي لم يتغيّر.

ومن عجب: أنّ التغيّر طرأ على هيكلي، فلم أشعر به، وفجأة وأنا سادر في أحلامي أرى نفسي في آخر الركب:

جرى بالودّ للصديق   لم جرى بالودّ للصديق   شنف قلب بالوفا عريق

لكن نضيع في زحام الدرب   في الدرب   وراح ضالعاً وراء السرب

كأنه قطرة ضوء جامدة   كأنه قطرة ضوء جامدة   يمشي وحوله القلوب

وقد ولجت عالماً كلّ ما فيه غريب عليَّ، إنه عالم تمشي إليه بأصابع يديك، وتدخله بها وتجوب الدنيا كلّها بنقرة من إصبع أو إصبعين «كشرب الطائر الوجل»، وأنكرت نفسي بأزائه، وتنكّرت لي يداي وعيناي، وتحولت إلى ما وراء هذا الهيكل، فصرت كالحالم وأنا يقظان، أكلّم نفسي، أترجم لها ما يقوله غيري، وأتلقى الإشارات الضوئيّة العجيبة، فأوحاول حلّ رموزها بعسر وجهد وتعذّر أحياناً، واستعانة بغيري، فما ظنّك بإنسان لم يشاهد في صباه إلاّ ضوء «الفانوس» و «اللالة»، وهي صناعة قد تطوّرت عنه في بيئتي، وسلخت زهرة أيّامي في هذه الأنساق من الحياة، وانقلبت بنا الحال إلى عالم الكهرباء، فاتّسعت الحياة حينئذ وآلت إلى وضع مغاير لسابقه، وما هي إلاّ قفزة أو قفزتان وإذا بي وجهاً لوجه أمام الالكترونيّات بتفاصيلها الغريبة، وما خبّأته لنا من دنيا المعلوماتيّة العجيبة، وهنا ولأوّل مرّة استجيب لنداء العقل الذي طالبني بتحسّس موقعنا من هذا العالم، فرأيت الفرق بيننا وبين من عدانا كالفرق بين النطفة وبين الشابّ مكتمل القوّة وتامّ الفتوّة، فأين هذه من ذاك.

وكنت وما أزال واثقاً بالكتاب في رفع منار حقّنا حتّى تبصره العيون، وإن كانت عمشاً رمداً، ولكن رأيت لنا خصماً عنوداً حسوداً حقوداً لدوداً قد سبقنا أشواطاً في عالم الدعاية والتبليغ، فاضطرّتني الحال إلى الانفتاح على هذا العالم، وبذلت أقصى جهد محتمل وميسّر حتّى أمكنني الفوز بأخذ نصيب من ذلك، وصرت عضواً في هذه

المنظومة الإلكترونيّة، واقتنيت حاسوبها وإنترنتها وفضائيّاتها، وما إلى ذلك، وتراجعت شيئاً إلى الحداثة فصرت أفكر بعقل الشابّ الطرير مع غصّة تعترضني من حيث قصر المدّة التي بقيت لي من هذا العمر، ويملأني الندم من الفرق إلى القدم، أن لاأكون وعيت هذا العالم في وقت يمكنني فيه تدارك ما فاتني.

ومهما كانت الحال، فإنّي بدأت من حيث انتهى الناس، وفي الناس أعداء وخصوم كما أنّ فيهم أولياء وإخواناً، ودعني أختصر مسافة القول وإن كان الحديث شجوناً، فأقول: تحوّلت من الكتاب إلى منافسيه، فاستمعت إلى حوار في الفضائيّات بين السنّة والشيعة، وأدركت ما قاله المؤالف والمخالف، فرأيت الثاني يوقد النار، والأوّل يطفئها بالبصاق عليهما، ورأيت من الفضائيّات المؤالفة ما هي كارثة.

أجل، والله كارثة، وقد نزلت بساحتنا يأتي الروحانيّ منّا هداه الله ويفترع قمّة المقعد، ويظنّ أنّ مشاهده عقيلته وأهل بيته فحسب، ولايأخذ بعين الاعتبار العدوّ الذي يرصد منه حتّى الحركات والسكنات، فينطلق بخياله في متاهات عجيبة، ويقصر خطابه على رجل الشارع وحده، ويعطي العدوّ الذرائع ليشنّ الحرب الباردة علينا، وما هي بباردة في قلوبنا، بل هي أشدّ سخونة من الجمر، وبها يقلب ناشئتنا إلى شكّاك، ويجعلهم يحبّون انفصام الشخصيّة والازدواجيّة المقيتة.

ومن أبنائنا الناشئة مَن هو شابّ غرير، وفتىً صغير، لايملك خلفيّة تحصنه من الشبهات التي يبذرها العدوّ والسموم التي ينفثها في الناشئة، وأمر هؤلاء الناشئة إلى الله، بليت بعدوّ ماكر سافل، وصديق غافل، أو متغافل جاهل، والعدوّ هذا يرانا ألدّ أعدائه، وأبغضهم إلى

قلبه، لأنّه ورث هذا البغض من أسلافه الذين أبغضونا بدوافع متفاوتة أشدّها وأقساها الدافع السياسيّ، فذهب الدافع وبقيت اليوم آثاره، بل ما يزال قائماً حتّى الساعة؛ لأنّ رأينا ـ أيّها الشيعة ـ معروف بالحكّام الذين يظلّهم قانونهم، وهو منساق بإرادتهم باعتباره جزءاً من الجهاز، ولاتنسى التحوّلات السياسية الأخيرة للنصف الأخير من القرن الماضي، وكيف غيّرت نظرة الناس إلى الشيعة، فقلب المعادلة رأساً على عقب، وحينئذ شرع عدوّنا يفكّر بعقول الضرائر اللواتي استبدّت بهنّ الغيرة على أزواجهنّ فجاز في شرعهنّ ركوب كلّ محظور، وهو مع ذلك عدوّ صلف وقح لايستحي من أنظار المسلمات، واعتمد في هجومه علينا، واعتاد الناس أن يسمّوه حواراً، رويّة جديدة، وأسلوباً مخادعاً، ذلك حين بدء بطمس معالم التاريخ وتحويل مجاريه وتشويهه، بل مسخه، وأصبحت أصول الإسلام عندهم ستّة تزيد وتنقص، طبقاً لمشيئة العلاقة مع الشيعة:

أبو بكر وعمر وعائشة وعثمان ومعاوية والصحابة ويعنون بهم نمطاً معيّناً، وهم الذين اتّفقت الأمّة على تفسيقهم.

فالأشعث بن قيس لم يرتدّ لأنّ أبا بكر زوجة أخته أمّ فروة، ويترضّون عنه، ويقدّسونه.

وعائشة لم تحارب عليّاً بل هو الذي حاربها، وهي صدّيقة لأنّها ابنة أبي بكر، وكلّ ما قيل عنها فهو كذب عليها وافتراء في حقّها، وليس عليك إلاّ معرفة اسمها، وأنّها صدّيقة وحبيبة رسول الله(ص) ومحدّثة الإسلام وكفى، وهذه خطوط حمراء إيّاك وأن تحدّثك نفسك

باجتيازها، فتروي ما قاله أبوها لها في حادثة الإفك[(١)]، واتّهمها بالخيانة الزوجيّة والفضيحة.

وخالد بن الوليد لم يقتل مالكاً ولم يزن بزوجته.

وعمر لم يقل النبيّ(ص) يهجر، وللهجر معنى سليم إن كان قاله.

وأبو هريرة لم يحمل عليه عمر بالدرّة ولم يكذّبه، كلاّ فهذا تاريخ لاصحّة له من حيث كونه لاسند له، وما هو مسند منه فسنده ضعيف جدّاً، ونشأ اليوم تاريخ جديد تبثّه الفضائيّات والالكترونيّات والانترنيتات، وهكذا دواليك، وفي قبال هذه الطامّة العامّة إخوان لنا أهمتّهم أنفسهم، ولايضيرهم ما حلّ بالمذهب، وما سوف يحلّ به إن سلمت لهم حياتهم الخاصّة، وتقاسموا المذهب بين عالم يدعو إلى نفسه ويريد حشد أكبر عدد ممكن من العوامّ حوله بتقديم هذا البهرج الذي ضرّه أكثر من نفعه، بل لانفع يرجى من ورائه.. وبين حاكم جعل الدين في خدمة سياسته، وصحّ فيه وفي صاحبه قول الإمام الحسين(ع):«يحوطونه ما درّت معائشهم»، وسيقت الأمّة بمقولة مضحكة هي مقولة التقريب، فحرّمت جهات بعينها على الألسن أن تتكلم بحجّتها، وعلى الأقلام أن تدافع عن حقّها دفاع القويّ بحجّته

---

(١)نحننختصر الرواية هنا، ونشير إلى الكتب التي أخرجتها: « فبلغ رسول الله أنّ عائشة قد بلغها الأمر، فجاء إليها فدخل عليها وقال: يا عائشة، إنّ الله قد وسع التوبة فازددت شرّاً إلى ما بي، فبينا نحن كذلك إذ جاء أبو بكر فدخل على رسول الله، فقال: ما تنتظر بهذه التي خانتك وفضحتني.. إلخ ». المعجم الكبير للطبراني: ٢٣: ١١٨. مجمع الزوائد: ٩: ٢٢٩. المعجم الأوسط: ٦: ٢٧١. تاريخ المدينة: ١: ٣٢٤.

لابفيالقه.

وطال أمد المعاناة ولم نكسب لمذهبنا من خلال هذه المحاباة إلاّ النفرة والعداوة من أناس لاخلاق لهم، ولايحاسبون أنفسهم، ويستحلون كلّ محظور إذا كان ضدّ الشيعة من سبّ وافتراء وقتل وسجن ومطاردة وغير ذلك، وهذا المردود العكسيّ لسياسة تلكم الجهات المعنيّة لم تثنهم عن الاستمرار بها مع أنّ الحلّ الذي يجنّبنا هذه المكاره سهل ميسور، ويكمن في شأن واحد من شئون كثيرة، وهو تجنيد أصحاب الكفاءات من علماء وخطباء وكتّاب ليقفوا في وجه هذا الانفلات الغريب في الفضائيّات، وما أسهل كبحه وردّه، بل والقضاء عليه بأيسر ثمن، فهل نحن جاهزون لذلك؟

استمعت إلى إحدى المحاورات في «كلمة سواء» اصطدتها من الانترنت، وقد اقتصر الموقع على مقطع بائس قليل، وفيه مداخل يسئل هذا السؤال: هل سبّ رسول الله(ص) يوماً أو واحد من أهل بيته الصحابة؟ ولم يمهلوا المحاور حتّى يجيب، وانبرى الحكم وهو خصم أيضاً فالحق القول بلازمه لاتفارقهم أبداً وهي تسمية الإمام وأولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة، وارتطمت هذه الشبهة بالأذهان، ولم تجد مَن يجيب عنها، ولو قدّر لي أن أكون معهم لرويت لهم حكاية «بعث أسامة»، وقول رسول الله عمّن تخلّف عنه:«لعن الله مَن تخلّف عن جيش أسامة».

وهؤلاء الصحابة قد تخلّفوا، فأصابتهم اللعنة النبويّة، وكفاهم بذلك خزياً، ولرويت لهم أيضاً شرب أبي بكر الخمر وضرب رسول الله له، وقد جاء كلّ ذلك في كتبهم، ولكنّهم عملوا المستحيل لدرئه عن أبي بكر ونسبوه إلى شخصيّة وهميّة سمّوها أبو بكر بن شعوب

جاء ذلك في كتاب فتح الباريّ، فارجع إليه إن شئت لتقف على واقع الحال..

وأنا على يقين أنّ جواب الخصم هو التكذيب والإنكار إذ لاحيلة له بغيرهما، وإذا عفيناه عن هذا وشبهه، فما هو قوله في آيات النفاق التي ملأت القرآن ذمّاً وتقريعاً ولعناً للمنافقين، وهم صحابة أيضاً، وسوف تعرفهم عين اليقين حين تقرأ هذا الكتاب الكريم الخالد إن شاء الله تعالى.

وأمّا عن تسمية الإمام أولاده بأسماء أعدائه، فأقول لهم ناقضاً: ما بال هؤلاء الأعداء لم يسمّوا أولادهم باسمه.

فإنْ قالوا: إنّ المسألة تلقائيّة عندهم. أقول: وعند الإمام كذلك.

وإنْ قالوا: سمّاهم حبّاً بالمسمّين بها، فأقول لهم: إن دلّت التسمية على الحبّ دلّ عدمها على البغض، ولقد قالها بنو اُميّة قبل أن أقولها أنا: مَن رأيتموه قد تسمّى بعليّ منّا فليس منّا أبداً.

ودعني اُثقل على سيّدي القارئ بهذه الأشباه والنظائر، فقد استمعت إلى حوار بثّته المستقلّة، وأحد أركان الحوار منهم رجل يدعى «أبا الشوارب» فأسند إلى الشافي كلاماً عن الإمام يفضل الثلاثة على نفسه، وزعم أنّه بالصراحة الصريحة، فرجعت إلى الشافي وأنا جازم بأنّ أبا الشوارب كذب على الشافي ودلس ما في ذلك ريب، ولمّا رجعت إلى الكتاب وجدت السيّد المرتضى ينقل قول صاحب المغني ليردّ عليه، وقد ردّ، ولكن ضمير هذا القطّ أبي الشوارب إلاّ أن يسلك سنن أسلافه بالكذب والتدليس، وهذه مصيبة.

ولكنّ المصيبة الأدهى والأمرّ هو سكوت المحاور الشيعيّ عنه، ولم يملك إلاّ عينين يدوران في قحف رأسه «كأن صحصحها خراب»، كما قال الجواهريّ&، ونزلت الكذبة إلى مجالس الشيعة فسمعتهم يردّدونها معجبين ببراعة السنّيّ وغلبته، وخذلان الشيعيّ وهزيمته، حتّى شرحت لهم الموقف وأريتهم واقع الحال، وقلت لهم: إنّ هذه المقولات التي يلوكها هؤلاء القوم ويغمسونها بشيء من عسل الكلام قد ردّ عليها سادتنا العلماء بالكتب التلاية، وأوردوا على القوم مئات الإشكالات التي لم يجدوا الخلاص من واحد منها مع ما لهم من حول وطول، وأذكر لكم عناوين الكتب أو بعضها بصورة أدقّ على سبيل المثال لاالحصر:

العيون والمحاسن والمختار منه، والشافي وملخّصه، والطرائف، ومنار الهدى في إثبات النصّ على الأئمّة النجبا لعليّ بن عبدالله البحرانيّ، وعبقات الأنوار للسيّد العبقائيّ.

ممّن عاصرناهم: المراجعات، والنصّ والاجتهاد، ودلائل الصدق، والسقيفة، وأصل الشيعة وأصولها، وكتاب الغدير لمولانا الأمينيّ، والتشيّع للغريفيّ، ومعالم المدرستين، وعبدالله بن سبأ، وهلمّ جراً.

فما بال هؤلاء القوم يتركون هذه الكتب تنخر في عظامهم كالسوس لايرتّون عليها، ثمّ يعمدون إلى الكذب والشعوذة والدجل في فضائيّاتهم، ويضربون على أوتار عواطف الأغرار والمراهقين، ويمثّلون صاحب المتنبّي الذي ذكره بهذا البيت:

وإذا ما خلا الجبان بأرض الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

نعم، دعانا منهم دعاة إلى الحضور، ولكنّهم يكذبون فقد حضر

قوم منّا ليناظروهم، ولكنّهم ارتطموا بصخرة المستحيلات من قوانينهم الجائرة، فهذا الشيخ العلامة آية الله أستاذنا الشيخ عليّ الكورانيّ (دام ظلّه) رفضوا استقباله، وأنا سمعت ذلك منهم، وسجّلت المشهد عندي، وأنا شخصيّاً حاولت الاتّصال بالمستقلّة بالهاتف، ولكن ذهبت جهودي سدى، فما فتحوا الخطّ في وجهي يومين وليلتين حتّى أدركني اليأس، فتركتهم لشيطانهم،واليوم بعد إقراري واعترافي بمدى الأضرار التي تلحقها الفضائيّات بناشئتنا،فإنّي لاأزال مؤمناً بيقين بأن لابديل عن ذلك في هذا الصراع المرير إلاّ الكتاب، فهو الذي يغلب ألف فضائيّة وفضائيّة، ويبقى خالداً ما بقي الدهر، وهنا تبصر هوان الخصم وتضاؤله وتمتمته وانحسار ظلّه، وذهاب ريحه وخسرانه، وظهور باطله، خلا أنّ الكتب ليست على مستوىً واحد، ولاهي بمنزلة سواء بخاصّة إذا ما احتوت على المكرّرات التي تمجّها النفس ويعافها الطبع البشريّ «النفس مجبولة على معاداة المعاداة»، ونصبت شباكي طمعاً في صيد ثمين أريح عنده شجوني، وأستعين به بعد الله على دحر الخصوم، حتّى وقع في يدي كتاب يتحدث عن تاريخ المنافقين فقمت بادئ ذي بدء بتصفّحه أوّلاً، فرأيت العجب العجاب من الرصانة والمتانة والدقة في أخذ الدليل، وتناول المعنى من معادنه، وجمع أطراف الموضوع، والاستدلال عليه بالدليل المقبول عند المسلمين كلهم، بحيث صارت له هيمنة على مشاعر السامع والقارئ، وعندئذ علمت بأنّ هذا توفيق من الله تعالى ساقه لي لأحظى من لدنه سبحانه بهذا الشرف العظيم، وأنال الأجر الجزيل منه، وأدخل المكتبة العربيّة وعلى يديّ هذا الطبق الفاخر من غذاء العقول ليرشد الضالين منهم إلى الطريق المستقيم، والنهج اللاحب

اذي اختاره الله سبحانه لهم.

وعرفت بأنّها نتيجة منطقيّة مقبولة، ويمكن أن يدور الأمر بين الأمّة بأجمعها وبين فئة منها هم الباحثون خاصّة، لأن المجالس يعنيهم وهو الغذاء عينه، والدواء للأمّة كلها فآثرت الترجمة ولم أقطع صلتي بـ «مجالس المؤمنين»، وظلت أراوح بينهما حتّى يسّر الله لي، وأنسأني الأجل، وله الحمد، ففرغت من الترجمة بعد ما أنفقت عليها أعزّ ما عندي من العين والقلب والعقل، وها هي بين يدي القارئ بمشيئة الله تعالى.

نظرة في الكتاب

في الكتاب دراسة شاملة ومستوعبة عن المنافقين وعن نشأتهم ومبدئهم وهدفهم وحياتهم في أعماق المجتمع الإسلاميّ الناشئ، وتفاعلهم مع مكوّناته وخصائصه، وفرض هيمنتهم عليه استعداداً للقفز على السلطة عندما تسنح لهم فرصتهم المرتقبة، ونزول القرآن فيهم متعقباً خطواتهم، وكاشفاً أسرارهم، ومصرّحاً بنواياهم التي انطووا عليها من البدء إلى الختام.

وكلّ فصل من فصول حياتهم تضمّنته سورة أو سور، وآية أو آيات من القرآن الكريم.

والكتاب سمّاهم فلم يلجأ إلى التقيّة، ولعلّ المؤلف لم يتصوّر انتشار كتابه في عالم أوسع من عالم اللغة التي كُتب بها لاتقليلاً من قدره، ولكن ظنّاً بالدرّ أن يكون قلائد لأعناق الخنازير.

وقد مرّت بنا تجارب قدّمنا عصارة الأفكار إلى الحيارى والمضللين فلم نجد إلاّ الحقد والعداء الصارخ والتكفير والمفخّخات. وفي الكتاب تتسلسل الأحداث والآثار التي خلّفها المنافقون وراءهم وأثر بصماتهم في كلّ حدث، وهكذا يتدرّج الكتاب معهم تدرّجاً منطقيّاً حتّى يبلغ معهم نهاية المطاف، وهي الغاية التي ارتكب المنافقون من أجلها كلّ هذا الإجرام المتعمّد، وحملوا الإسلام من أمرهم رهقاً، وصاروا أشدّ عليه من المشركين أنفسهم. فكان النبيّ(ص) يخافهم على الإسلام أكثر ممّا يخاف اليهود والنصارى من الكتابيّين.

وبلغ الكتاب حدود الإعجاز في إثبات النفاق لأصحابه، وأقام الحجّة على صحّة ذلك من الكتاب والسنّة.

إلاّ أنّ الكمال لله وحده، ففي الفصل الثالث من الكتاب أجرى بعض موادّه كما لو كان الأمر فيها ثابتاً محرزاً عند القارئ ولاأقول تفتقر إلى إحكام الدقة، فالكتاب من ألفه إلى يائه دقيق دقة متناهية. ولكن هنا غلب على صاحبه حسن الظنّ بالسقيفة، فقد أبدع في أخذ الماء من مجاريه، وفي التوصّل إلى النوايا وراء المظاهر الخدّاعة، إلاّ أنّه حمّل السقيفة ما لاتحتمله من العمل الصالح، فبدت وكأنّها معقودة أساساً لحماية حقّ أهل بيت النبيّ(ص)، وأرى الشيخ لم يأخذ بعين الاعتبار ما قيل عنها، وهو من القائلين بذلك من أنّ اجتماع القوم على أثر ما دار بأنفسهم من العلم بخروج الأمر من يد أهل البيت بفعل المؤامرة التي حاكتها قريش ضدّهم، وقد نجمت لها قرون والنبيّ على قيد الحياة نظير ردّهم كتابة الكتاب وتلكّئهم عن الخروج مع أسامة حتّى لعنهم النبيّ(ص).

كلّ هذا نذير بأنّ الأمر صائر إلى قريش، وحينئذ تحلّ الكارثة بدور الأنصار لأنّهم وتروهم بل وتروا العرب كلّهم في ابّان الدعوة والجهاد، فماذا يصنع الأنصار إذا تحالفت قريش والعرب وطالبوهم بذحول الماضي ومعروف عن العرب أنّهم أمّة لاتنسى قتلاها. وقد قيل في المثل العربي حذار من أمّة لاتنسى قتلاها، فسارعوا إلى الاتّحاد وتناسي الأحقاد تحسّباً لما يجدّ من أحداث، وليحموا أنفسهم من قريش، هذا هو السبب الأهمّ في اجتماعهم، وأظنّ بمولانا الشيخ لو أنه اكتفى بما كتبه الشيخ المظفر& في كتاب السقيفة لكان بذلك مقنع لطالب الحقّ، ولكن أبت له غيرته الإسلاميّة أن يضحّي بفوج

كبير من الأمّة، فدخل واد وعر المسالك، صعب العبور، وقد وفق ـ والحمد لله ـ في التدليل على فكرته، ولكن قاربها، حيث اتّخذ من كلمة دارت على الألسن في السقيفة أهمّ الدعائم لإسناد فكرته، ولم يقف عندها وإنّما تجاوزها مسرعاً قبل أن يشفعها بنظير لها يؤكّدها، والكلمة هي قول قائلهم:«ولصالح المؤمنين فيه رضا» أو نحواً من ذلك، وسوف تقرأها في الكتاب إن شاء الله، فقال: إنّهم يريدون به عليّاً بن أبي طالب(ص)؛ لأنّ اللفظ نفسه ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ورد نعتاً له في القرآن، وهذا ما لانوافقه عليه، وعندنا السقيفة تمهيد لتحقيق أحلام قريش في الحكم، وهم كمَن أراد أن يصلح فأفسد، وكان من نيّتهم أخذ الحكم لأنفسهم، لأنّه إن فات أهله الشرعيّين أن يأخذوه فليست قريش بأحقّ به منهم، وهذا قيس بن سعد نفسه شاهد على ما نقول، وهو أعلم بحال أبيه منّا جميعاً، فأعرض عن كلامه بعد أن روى أبوه شيئاً سمعه عن النبيّ(ص) في حقّ الإمام يوجب ولايته، فقال له: سمعت هذا من رسول الله، وجمعت قومك تطالب بها لنفسك والله لاكلّمتك من رأسي هذا هو الحقّ عندي(١).

ولم يكن هدف السقيفة شريفاً، بل أرادوا انتهاز الفرصة ليحتلبوا الضرع وحدهم، ويسبقوا قريشاً إليه، ولكن النحول القديمة، والمنافسات الحاضرة، فوتت عليهم الفرصة وإنّي لأبرّئ سعداً على

---

(١)عليّ بن سليمان النوفليّ، قال: «سمعت أبيّا يقول: ذكر سعد بن عبادة يوماً عليّاً بعد يوم السقيفة فذكر أمراً من أمره ـ نسيه أبو الحسن ـ توجب ولايته، فقال له ابنه قيس: أنت سمعت رسول الله' يقول هذا في عليّ بن أبي طالب'، ثمّ تطلب الخلافة ويقول أصحابك: منّا أمير ومنكم أمير، لا كلمتك والله من رأسي بعدها كلمة أبداً ». راجع: كتاب الأربعين لمحمّد بن طاهر القمّيّ الشيرازيّ: ٢٢٦. السقيفة وفدك للجوهريّ: ٧١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦: ٤٥.

احترامي له من كونه أراد نهب الحقّ الضائع الذي سمّاه أمير المؤمنين أثرة، ولكن فاته ما تمنّى! ولعلّ الله حرمه فلم يحقق له ما تمنّى رحمة به أن لايكون لعنة اللاعنين مع جليل خدماته للإسلام وختم له بالشهادة على يد جهاز الخلافة.

وكان يمكن للمؤلف أنْ يؤكد المعنى الذي ذهب إليه في تبرئة سعد وأصحابه لو أنّه بذل عناية خاصّة في تتبّع حنايا التاريخ واستخراج دفائنه، ولكنّه مرّ بالقضيّة مرور الكرام، ولعلّه لايرى لها من الأهمّيّة التي نراها وهي فعلاً ليست بتلك الأهمّيّة، ولالها دخل جوهريّ بالكتاب، فقد أثبتت بما لايقبل الشكّ نفاق المنافقين الذين سمّاهم وأقام الحجّة عليهم من سيرتهم ودعاواهم.

قلت: وإن كنّا نختلف معه في بعض الفقرات من قبيل ما مرّ من السقيفة، وكذلك عدّ الزبير من المنافقين فإن كان يريد أنّ النفاق عرض له بعد وفاة النبيّ(ص)، فهذا لاشكّ فيه ولاغبار عليه، أمّا إذا اعتبر النفاق حزباً وله تنظيماته وسياساته الخاصّة ومطامعه ومطامحه، فلم يكن الزبير في عِير ذلك ولانفيره، حتّى أطمعه المنافق الأكبر بالخلافة حين رشّحه لها، فتدحرج إلى الهاوية ولو خلّي ونفسه لقلّ شرّه، وإن لم يكن فيه خير يرتجى، ورأيي في سبب نزول سورة عبس غير رأيه؛ لأنّ عثمان عندي لايعدل عند الله شرف قطّة سوداء، فهل يستحقّ أن يخاطبه أو يعاتبه؟ كلا والله فهو أقلّ وأذلّ من ذلك، وأمّا رأيه في الفتوح الإسلاميّة فإنّي أوافقه على جلّ ما ذكره فيها إلاّ في مواضع لاشأن لها، وإنّما هي من الهوامش الصغيرة التي لاأهمّيّة لها، وإذا ما تجاوزنا هذه النقاط التي خالف رأينا فيه بعض ما ورد في الكتاب، فإنّ الكتاب قلّ نظيره في

موضوعه، بل لانظير له على الإطلاق، وهو يجيب عن مسائل مهمّة كثر الأخذ والردّ حولها من العدوّ والصديق، وسدّ فراغاً عظيماً لم يسدّه أحد حتّى زمان صدوره ورأيته يجري مع الطبع حوارات تحمل على التصديق من خلال مقدّمات قطع الحفاظ بوقوعها وأثبتها الرواة على أنّها حقائق لامعدل عنها.

لكنّني بعد إقرار هذا عن الكتاب، وعرض ذمّتي له لتصبح رهينة بما أقول، وددت لو أنّ المؤلف تجشّم عناءاً إضافيّاً على ما تحمّله من ترتيب الكتاب، فتجاوز المرحلة التي جرى في شوطها من المواضيع إلى فترة قصيرة من العصر الجاهليّ الذي سبق عصر النبوّة، وبحث عن علاقات هؤلاء المنافقين قبل الإسلام مع من دلّهم على المئال الذي يؤول إليه الإسلام من الملك والحكم والاستخلاف وهي المطامع التي طمحت إليها نفوسهم فآمنوا بالإسلام من أجلها؛ إذ ليس من المعقول أن يحصلوا على النتائج التي أغرتهم بدخول الإسلام من عند أنفسهم دون أن يوحي إليهم شياطينهم من الكتابيّين أو أحبار اليهود على أقلّ تقدير بذلك، وليس من المعقول كذلك أن لايكون لهؤلاء وجود ملحوظ مقارب لطلوع الإسلام وترك ذلك مهملاً في مثل هذه الدراسة القيّمة يعتبر حلقة مفقودة تؤثّر على السياق المنطقي لتسلسل الأحداث. ويبقى ظمأ التساؤل عن سرّ اطّلاع هؤلاء الجاهليّين على حقائق الإسلام لم تنفع غلّته، وما أحسنه لو أنّه ركّز على هذه النقطة ورمى ببعض ثقله عليها فأماط عنها القناع، وكشف ستارها.

إنّ شيخنا الكريم يرى بأنّهم دخلوا الإسلام نفاقاً وخداعاً ليستلموا الحكم الذي يؤول أمره إليهم، وبدأ تاريخ النفاق بهم في مكّة، وأثبت ذلك بارك الله فيه وسدّد خطاه، ومدّ في عمره الشريف من القرآن الكريم، إلاّ أنّ الصلة هنا مقطوعة بجذور هؤلاء المنافقين، من أين استمدّت غذاءها، واستقت ريّها.

وخفى هذا الجانب فلم يسلّط الضوء عليه ولاغنىً في موضوع كهذا عن كشفه وبيانه، هذا ما وددت أن لايغفله مولاي الشيخ، ولو قدّر له أن يلتفت إلى هذا الأمر المهمّ لكان الكتاب غاية في الإحكام والإقناع.

أمّا وراء ذلك فينبغي أن يكون الكتاب نقلة نوعيّة في عالم الدعوة إلى مذهب أهل البيت(ع)، وسوف يكون حلقة وصل بين عصرين سابق ولاحق، وكانت الدعوة في السابق تصيب، ولكن بغير المقتل واليوم تصيب في مقتل خصوم أهل البيت، وتأتي على بنيانهم من القواعد، وما أشبهه إلاّ بكتاب الغدير العظيم الذي قلب المعادلة بيننا وبين الخصوم رأساً على عقب، وأصبحت كلمة الله به هي العليا، والحمد لله.

ووفّقني الله فبذلت جهدي القاصر، وسهرت ليلي، وأظنيت نهاري حتّى تمَّ العمل فى الكتاب بفضل سادتي أولياء النعم بغير معوّق، وأنا أشكر الله على ذلك، وقيّدت نفسي إلى الطاولة بسلسلة اعتباريّة دون أن أفعل فعل الفرزدق عندما أراد حفظ القرآن، واستعنت بالله، وتشفعت بسادتي أحبّائه وأوليائه، وصرت رهين المحبسين البيت والمرض ـ أجاركم الله منه ـ وشطرت جهدي شطرين شطراً للكتاب وشطراً لمجالس المؤمنين، واعدّ الاثنين خدمة كبرى لأمّتي الإسلاميّة وللعرب منهم خاصّة، وكانت عادتي إدمان الكتابة مع السير بها سيراً سجحاً، أمّا في هذا الكتاب الذي أقدّم له فقد كنت

أكتنز الفكرة في خاطري قبل عملي في الكتاب معتزّاً بها متعجّباً منها، وأقول في نفسي: هذه الآية تلوتها وما أزال أتلوها، وهذه الرواية قرأتها مكرّراً وتكراراً فما بالي لم أعرف منها ما عرفه المؤلف صانه الله من طوارق الحدثان، واردّ الفضل إلى القرآن:«إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإنّ فيه علم الأوّلين والآخرين»(٢)؛ لأنّ الشيخ من تلامذته وتلامذة الخيرة من أهله.

وبعد ، أترك الحكم للقارئ الوليّ والقارئ العدوّ، على هذا العلق النفيس، والأثر النادر، ولخصومنا أن يعقلوا الإسلام على أنّه دين لاسياسة، ولايعيدوا الدور الأمويّ والعبّاسيّ في الألفيّة الثالثة من هذا العصر، فإنّ الفرق بيننا وبينهم ربّما تجلى أكثر في هذه الحقيقة، وهي أنّنا: اتّخذنا الإسلام ديناً نعبد الله به، ولذلك نريده نزيهاً من كلّ شائبة تشوبه، ومن كلّ بدعة مزدراة مردودة، واتّخذوه سبيلاً للغلبة والتحكم.

محمّد شعاع فاخر

".. ترتيب سور القرآن المجيد على حسب النزول.."

من أجل أنْ تجتمع لدينا حصيلة علمية من تاريخ المنافقين بملاحظة الآيات القرآنية الكريمة فعليناأن نلم بترتيب ألاربع عشرة سورة بعد المائة من سور القرآن طبقاً لنزولها على التوالي، لكي ندركوجودهم في المجتمع المسلم منذ بدء الدعوة ونصطحب تطور هذا الوجود واتساعه على مدى ثلاث وعشرين سنة وهي فترة نزول الوحي.

ومن الواضح أن معرفة ترتيب السور القرآنية على نظام التوالي لا يتم إلا بالرجوع إلىالآثار والروايات الواردة في الموضوع ذاته.

على أن نظام ترتيب السور القرآنية ورد في بعضه عن طريق الإماميّة أحاديث لا تنطبق على جميعالسور ولكن محدثي المذاهب الإسلاميّة لديهم أحاديث وروايات كثر تستوعب العدد المذكورأعلاه بأجمعه ولايتم بسط القول في الموضوع إلا عن هذا الطريق لاحتوائه على العدد اللازممن الأحاديث والروايات.

وإليك ترتيب نزول أربع عشرة سورة بعد المائة، طبقاً للروايات التي ألمحنا إليها في هذاالمجال:

ت	السورة	ت	السورة
١	سورة العلق	٢	سورة القلم
٣	سورة المزمل	٤	سورة المدثر
٥	سورة الفاتحة	٦	سورة المسد
٧	سورة التكوير	٨	سورة الأعلى
٩	سورة الليل	١٠	سورة الفجر
١١	سورة الضحى	١٢	سورة الانشراح
١٣	سورة العصر	١٤	سورة العاديات
١٥	سورة الكوثر	١٦	سورة التكاثر
١٧	سورة الماعون	١٨	سورة الكافرون
١٩	سورة الفيل	٢٠	سورة الفلق
٢١	سورة الناس	٢٢	سورة الإخلاص
٢٣	سورة النجم	٢٤	سورة عبس
٢٥	سورة القدر	٢٦	سورة الشمس
٢٧	سورة البروج	٢٨	سورة التين
٢٩	سورة قريش	٣٠	سورة القارعة
٣١	سورة القيامة	٣٢	سورة الهمزة
٣٣	سورة المرسلات	٣٤	سورة ق
٣٥	سورة البلد	٣٦	سورة الطارق
٣٧	سورة القمر	٣٨	سورة ص
٣٩	سورة الأعراف	٤٠	سورة الجن
٤١	سورة يس	٤٢	سورة الفرقان
٤٣	سورة فاطر	٤٤	سورة مريم
٤٥	سورة طه	٤٦	سورة الواقعة
٤٧	سورة الشعراء	٤٨	سورة النمل
٤٩	سورة القصص	٥٠	سورة الإسراء
٥١	سور	٥٢	سورة هود

ت	السورة	ت	السورة
٥٣	سورة يوسف	٥٤	سورة الحجر
٥٥	سورة الصافات	٥٦	سورة الانعام
٥٧	سورة لقمان	٥٨	سورة سبأ
٥٩	سورة الزمر	٦٠	سورة غافر
٦١	سورة فصلت	٦٢	سورة الشورى
٦٣	سورة الزخرف	٦٤	سورة الدخان
٦٥	سورة الجاثية	٦٦	سورة الأحقاف
٦٧	سورة الذاريات	٦٨	سورة الغاشية
٦٩	سورة الكهف	٧٠	سورة النحل
٧١	سورة نوح	٧٢	سورة إبراهيم
٧٣	سورة الأنبياء	٧٤	سورة المؤمنون
٧٥	سورة السجدة	٧٦	سورة الطور
٧٧	سورة الملك	٧٨	سورة الحاقة
٧٩	سورة المعارج	٨٠	سورة النبأ
٨١	سورة النازعات	٨٢	سورة الانفطار
٨٣	سورة الانشقاق	٨٤	سورة الروم
٨٥	سورة العنكبوت	٨٦	سورة المطففين

كان هذا ترتيب نزول السور المكية إلى رقم ٨٦.

والأرقام التالية تظهر لنا تسلسل نزول السور المدنية:

ت	السورة	ت	السورة
٨٧	سورة البقرة	٨٨	سورة الأنفال
٨٩	سورة آل عمران	٩٠	سورة الأحزاب
٩١	سورة الممتحنة	٩٢	سورة النساء
٩٣	سورة الزلزلة	٩٤	سورة الحديد
٩٥	سورة محمد	٩٦	سورة الرعد
٩٧	سورة الرحمن	٩٨	سورة الإنسان

ت	السورة	ت	السورة
٩٩	سورة الطلاق	١٠٠	سورة البينة
١٠١	سورة الحشر	١٠٢	سورة العصر
١٠٣	سورة النور	١٠٤	سورة الحج
١٠٥	سورة المنافقين	١٠٦	سورة المجادلة
١٠٧	سورة الحجرات	١٠٨	سورة التحريم
١٠٩	سورة التغابن	١١٠	سورة الصف
١١١	سورة الجمعة	١١٢	سورة الفتح
١١٣	سورة المائدة	١١٤	سورة التوبة

وهذا الترتيب وإن لم يكن يقينيّاً إلى درجة القطع؛لأنَّ سورة الرعد يحتمل احتمالاً قوياً أنها من السور المكية ولكنها ذكرت في ترتيب السور المدنية ومثلها يقال في سورة الحج فإنها وإن كانت من السور المدنية قطعاً إلّا أنها ينبغي أن يكون تسلسلها من حيث العدد هو الثامن عشر والظن الغالب على أنها من السور التي نزلت في صدر الهجرة، إلّا أن هذا الظن يتقوى عندما يرتفع النقص بانضمام البحوث الخاصة في ترتيب نزول السور مورد الحاجة وستكون النتائج الحاصلة من جرّاء ذلك يقينيّة وباعثة على الثقة والاطمئنان.

القسم الأول

التحقيق حول الآية (٣١) من سورة المدثر والتعرف على أثر الفريق الأوَّل من المنافقين الذين أثبتهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ في صدر الإسلام ومبدأ ظهوره.

عرض آيات البحث

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ
فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ
(٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى
الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ
مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ
يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً
(١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)
فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥)
سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨)
لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ
إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ
إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيراً

لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنْ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنْ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَلْ لا يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) .

سورة المدثر: الآيات من (١-٥٦) .

المبحث الأول
التعرف على أثر أول المنافقين

البحث في آية (٣١) من سورة المدثر والتعرف على أثر أوّل المنافقين الذين عبّر الله عنهمبقوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ويختصون في صدر الإسلام ومطلعه الأول .. أو بدء شروقه.

إنَّ سورة المدثر من أول السور التي نزلت بمكة، ويكون رقمها الرابع من حيث ترتيب النزول.

كان نزولها كما ذكر المفسرون بعد نزول سورة العلق والقلم والمزمل. وإذا كان في المفسرينمن يرتاب لهذا الترتيب فما من ريب في كون المدثر من أوائل السور القرآنية نزولاً في مكة لأنّهاأوّل الآيات التي تختص بخطاب النبي(ص) تقول:﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ومعناها واضح جلي حيث إنها تأمر النبي بالإنذار وذلك مختص في مراحل الإسلام الأولى.

وظاهرة أخرى تتجلى للقارىء في ترابط آي السورة أنها بأجمعها تختص بمرحلة واحدة منمراحل نزول الوحي في مشرق الإسلام وبدء ظهور نوره في مكة.

ولا بدع أن تعبّر عن جانب من تاريخ صدر الإسلام الأول وعلى هذا الأساس يلاحظ انتباه القارئ إلى الآية (٣١): ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ .

إنَّ ملاحظة الآية المذكورة والتي هي من الآي النازلة في السنين الأولى للإسلام في مكة، صنّفت الناس المعاصرين لنزولها والمتواجدين في محيط ذلك النزول إلى أربعة أصناف:

١ ـ الكافرين.

٢ ـ المؤمنين.

٣ ـ الذين أوتوا الكتاب (وهم أتباع الكتب السماوية الأخرى).

٤ ـ الذين في قلوبهم مرض.

ومن الواضح أنَّ كلمة «**كافرون**» عند نزول سورة المدثر تشمل المشركين جميعاً وعبّاد الأصنام معهم وكلمة﴿**الذين أوتوا الكتاب**﴾هم اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم و«**المؤمنون**»تطلق على تلك الجماعة التي صدّقت النبي(ص) وآمنت به وآزرته والتفت حوله بكل محبةٍ وإخلاص مع ما لاقاه هؤلاء المؤمنين من المصاعب في الصدر الأوّل وما تحملوه من التعذيب والآلام من كفار مكة المتجبرين المتكبرين ومع كل ما قاسوه منهم فقد ثبتوا على الإيمان بصبر وجلد ، إلا أنَّ البحث يدفعنا إلى السؤال التالي:

من هم أولئك المعبّر عنهم بقوله تعالى في قلوبهم مرض الذين

أدخلهم الله تعالى في هذهالمجموعة الرباعية وشملتهم الآية.

ومن المقطوع به أنهم غير داخلين في زمرة«الكافرون»لأنّ وجود واو العطف في الكلامالموحى به يجعل هذا الفريق قسيماً قائماً بذاته مع«الكافرون»وليس قسماً منه﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا . . ﴾.

ويقيناً أنهم لا يدخلون في زمرة أهل الكتاب، لأنّ لسان الآية يشيد بأهل الكتاب كما يشيدبالمؤمنين بينما نرى التقريع واللوم منصبّين على الفريقين الذين في قلوبهم مرض والكافرون .

وهذه الملاحظات تحملنا على القطع بكونهم أسلموا واتبعوا النبي لأغراض خاصة وليس حبّابالدين أو الإيمان دونما ميل للإسلام وحب نبيّه(ص).

ومن غير أنْ يسلّموا إليه زمام القيادة .

ويجب التنبيه إلى القول: بأن الذين في قلوبهم مرض هم أولئك المسلمون الذين أعلنوا إيمانهم من دون أنْ يستحكم في قلوبهم بل تذبذب بين الشك واليقين وكانوا موجودين بوفرة في صدر الدعوة وهمالذين خالط إيمانهم ضعف اليقين كما أنّهم لا يخلو منهم عصر من عصور الإسلام، وما زلنا نشاهدغلبة ضعفاء الإيمان على أهل اليقين أمس واليوم.

فإنّ هذا القول مردود من جهات:

١ ـ تطالعنا الآية الكريمة﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(١) فنعلم بصورة جلية أن«مرض القلوب»يختلف عن الشكوالتردد، لأنَّ الآية سالفة الذكر جعلت أحدهما قسيماً للآخر. ولما كان في الاصطلاح القرآنيالخاص المرض القلبي متميزاً عن عروض الشك والتردد، نعلم علماً يقينياً عند ملاحظة لوازمالقضيّة أن فريق الذين في قلوبهم مرض المذكور في الآية مورد البحث هو غير ضعفاء الإيمان أهلالشك والتردد.

٢ ـ وردت صفات مذمومة في القرآن المجيد للذين في قلوبهم مرض، وخصائص سافلة منالخطورة بمكان بحيث لا يمكن تطبيقها على حديثي العهد بالدين الذين من أولى صفاتهم الشكوالتردد ويعتبرون في لغة القرآن ضعفاء في إسلامهم وإيمانهم ، خذ على سبيل المثال الآيات التاليةالتي تذكرهم:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌمَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ، فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِيالْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَالْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُسَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُإِسْرَارَهُمْ، فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ

---

(١) سورة النور: الآية ٥٠.

الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم، أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾(١). من هنا نلاحظ جيداً أنّ الصفات التي ذكرتها الآيات أعلاه للذين في قلوبهم مرض لا يمكن انطباقها على حديثي الإيمان وضعيفي الإسلام بحال من الأحوال ، فكيف يجوز على الرب الرؤوف الرحيم وصف حديثي العهد بالإسلام الذين لم يمازج اليقين قلوبهم وهم أحوج الناس إلى العطف والرحمة والملاينة، بهذهِ الأوصاف الشديدة من قبيل: مرض القلب والإفساد وقطع الرحم واللعنة والعمى والصمم والارتداد والضغينة وأخيراً يتهددهم بإحباط أعمالهم، إن هذا الأمر لا يمكن تصوره ولا يصلح صدوره من علام الغيوب(٢).

٣ ـ إنّ الوضع السائد في السنين الثلاث عشرة قبل الهجرة وهي الحقبة المكية للإسلام كانت من العسر والشدة وسوء الحال بحيث اضطر النبي وأهل بيته إلى العيش زماناً ليس بالقليل في شعب أبي طالب رهن الإقامة الجبرية ومن المسلمين من أمكنهم الفرار من مكة فهاجروا إلى الحبشة وظل الباقون منهم تحت ضغط قريش الشديد يعانون البؤس وشظف العيش حتى هلك البعض منهم فكان التدين بالإسلام يومئذٍ مرادفاً للموت والفناء وتجريد صاحبه من

---

(١) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٢) وسنشير إلى تحقيق الموضوع.

مقوّمات الحياة في مجتمع مكة المشرك وطغاتها المشركين.

فلا يعقل بعد هذا وفي مثل هذه الظروف وفي أتون مشكلات كهذه أن يوجد جماعةشكاك ومريضو الإيمان، ومذبذبون بين التصديق برسالة النبي(ص) وتكذيبه يتقدمون لإعلان إسلامهم والانضمام إلى الإسلام مع أنهم لا يصدقون دعواه وهم غير مؤمنين به بل يملأ قلوبهم الشكوالتردد فما الداعي للانضواء تحت لوائه مع ما هم عليه من إنكار صحته وردّ حقه.

فهل من المعقول أنْ يرتكبوا مثل هذه الحماقة الغريبة بحيث يعرضون أنفسهم إلى صنوف العذابوالتنكيل وأنواع البلايا التي تداهمهم لأجل عقيدة لا يؤمنون بها ولا يصدقون الداعيإليها، ويضعوا أنفسهم تحت رحمة الوسط الذي ينزل أقسى العذاب فيمن يؤمن بهذا الدين.

وهذه الحالة تختلف عما آل إليه أمر الإسلام بعد الهجرة فقد تمكّن من الرقاب وملك القدرةالظاهرة ، ويمكن حصر هذه الفترة من هجرة النبي إلى يوم وفاته فإن في مثل هذه الظروف المستجدةربما وجد من جنح إلى الإسلام وأظهر الإيمان به فرقاً من سقوط مركزه أو فقدان مكانته الاجتماعية وربما كان الطمع بالمال والمصالح الدنيوية باعثاً له أيضاً على إظهار الإسلام مع كونهكافراً بالإسلام في الباطن شاكاً بصدق النبي وصحة نبوته وأحقيّة دينه.

لقد ظهر لنا جلياً أن الجنوح إلى الإسلام من غير المؤمنين صدقاً وحقاً والمصدقين برسالةالنبي والقاطعين بصحة نبوته في تلك

الفترة الممتدة إلى ثلاث عشرة سنة وهي الحقبة الصعبة على المسلمين المشحونة بالويلات والآلام وعدوان قريش وتعذيبهم للمسلمين لا يمكن أن يحدث قطعاً إلا من هؤلاء القاطعين بصدق النبي لأنَّ جنوح من لا يؤمن بالإسلام مع بروز هذه المصائب والمصاعب في مجتمعه لا يصح أبداً، فإذا ضممنا هذه المقدمة الدالة على بطلان قول الذاهبين إلى إمكان إسلام الشكاك وأهل النفاق وثبت لدينا أن ضعيفي الإيمان والشكاك والمتذبذبين في صدق نبوة النبي(ص) ليسوا هم«**الذين في قلوبهم مرض**»، وأثبت تحقيق الآية المعروضة للبحث أنهم أي أصحاب مرض القلوب غير المؤمنين الحقيقيين الذين أسلموا في بدء الدعوة تجلى لنا من مجموع هذه الأمور أنَّ الفريق المذكور هم جماعة مخصوصة ولهم هويتهم الخاصة وسماتهم الفكرية المميّزة ومكانتهم الاجتماعية المختصة بهم وهم قد دخلوا الإسلام لأغراض شخصية ليست دينيّة واستطاعوا أن يثبتوا عليه ويظلوا ثابتين على ما هم عليه، من البدء إلى المنتهى وهذه الجماعة من الناس ينبغي أن يتصفوا بالصفات التالية:

أولاً: سلامتهم مما اعترى المسلمين من التعذيب والقهر من مشركي قريش وعيشهم بأمان من ذلك أو كونهم ينالهم شيء يسير من ذلك لا يعتد به. لكونهم من الأسر القرشية المعروفة والمشهود لها بالسطوة والجاه. من ثم فإن إسلامهم لا يضيرهم لأن قومهم جادّون في دفع الأذى والشر عنهم، بناءً على العرف السائد بين العشائر والبطون والأفخاذ.

ثانياً: ينبغي أنْ يكون هؤلاء القوم ممن أدركوا ما يؤول إليه أمر الإسلام وحصلوا علىمعلومات ثابتة عن مصيرهم وعلموا من طرقهم الخاصة برسالة النبي والتوفيق الذي تحرزه فيالدنيا، وإنَّما احتجنا إلى هذا القول لنعلل به إيمانهم الصوري بالإسلام، وأنَّ يقينهم بإحراز النبيالتوفيق في دعوته حملهم على إعلان إسلامهم مع عدم إيمانهم به، وإلّا فمن غير المعقول أن يقبلواعلى الإسلام هذا الإقبال لو كانوا على طرف الشك في احتمال نيله التوفيق والنصر ولا أن يعرضواأنفسهم إلى لوم قبائلهم وتقريعهم ولا أن يعرضوا أنفسهم لنيل هذا الحمل الباهض من قبول الدينالجديد.

ثالثاً: بما أنّ الوحي عبّر عن هذا الفريق«**بالذين في قلوبهم مرض**»فإننا نعلم علماً يقيناً بأنَّ إسلامهم لم يكن عن تصديق واقتناع وإقبالهم على النبي لم يكن على أثر المحبة والرضا ولم تسلمله قلوبهم، ومن المقطوع به أن إيمانهم ما كان واقعيّاً قط، على أنهم ما كانوا من نمط أولئك المعروفينبالشك والتردد وضعف الدين، وبناءً على هذا ينبغي التركيز على«**مرض قلوبهم**» وحده، فإنه السببالوحيد في جنوحهم إلى الإسلام فإذا ثبت لنا هذا انتقلنا إلى مرحلة أخرى من مراحل معرفة هؤلاءالقوم وهو معرفة نوع هذا المرض القلبي الذي حملهم على الإسلام وساقهم نحوه.

حديث مرض القلب:

تقتضي ضرورة الموقف الإلمام الصحيح«**بمرض القلب**»ومعرفة الجهة التي نشأ جرائهاوكانت هي السبب في إيجاده عند القوم، وبعد فحص الأسباب التي يحتمل تأثيرها في وجوده علمنا أنَّ لاعتقادهم بانتصار الدين وتوفيق الدعوة واتساعها، واستحواذها على عموم الجزيرة العربيةدخلاً خاصاً في منشئه، وهذا الاعتقاد الجازم واليقين الناشيء عن تدبرهم في أطراف الدعوة ولدفي بواطنهم هوس الرئاسة وشهوة الحكم، فآمنوا بالإسلام متحدين ما يستجد لهم من الصعوباتعلى أثر ذلك، لكي يعدوا العدَّة للانتزاء على الحكم بسرعة قصوى عندما يحين الأوان ويتهيّأ المناخالسليم لتحقيق أهدافهم.

وهذا هو السبب الأكبر في مرض قلوبهم وصلة ذلك بإسلامهم، ولا سبب سواه.

وإلّا فإنَّ القوم غير داخلين في الصنفين الذين سبق ذكرهما:

الصنف الأوّل: المؤمنون بصدقويقين بالإسلام والمتبعون لنبيه والمحبون له الذين تعمر قلوبهم جرثومة الإسلام المطمئن فيالصدور والثابت فيها.

والصنف الثاني: المنافقون الذين ركنوا إلى الإسلام رعاية لمصالحهم وتدعيمالمراكزهم وصوناً لسمعة بيوتهم من أن تتلاشى أمام عظمة الإسلام وخوفاً من حرمانهم من غنائم يسيل لها لعابهم وعلموا أنَّ إسلام الجهاد سوف ينال منها الكثير الكثير فإذا ما تأخروا

عن اللحاق بركبه فاتهم هذا الشطر المهم من أطماعهم، وأصحاب القلوب المريضة لم يختاروا أيّاً من الصنفين عند إسلامهم.

وثبت لنا عندئذ أنّهم يختلفون عن المنافقين الذين نشأوا في المدينة في عصر تقدم الإسلام والذين جلبهم إلى الإسلام هوس الطمع والخوف من سقوط مكانتهم الاجتماعية واندثار مواقع أسرهم فهم يختلفون اختلافاً ظاهراً عن أولئك المنافقين بالأمور التالية:

أ ـ بما أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلّا على أثر الهوس الخاص الذي خامر عقولهم واستبدبرؤوسهم فكان تقدم الإسلام وامتداده على رقعة واسعة أهم الأشياء بالنسبة لهم ، وقد شبحت عيونهم إلى نصر الإسلام وعلى أثر ذلك بذلوا جهداً خارقاً في بسط الإسلام ونشره، واكتسابه القوة المرتقبة والمرجوة لهم، وقد هجروا كثيراً من لذائذهم وتجرّدوا من متعهم وبعض منافعهم الخاصة واهتموا اهتماماً بالغاً في سبيل بلوغ الإسلام النصر والقوة ووصوله إلى الثمرة المرجوة كما أنهم هجروا الدعة والراحة والأمن والسلامة وباعدوا بينهم وبينها أملاً في تحقق حلمهم الذهبي في بلوغ الدين سلطانه وأوج رفعته، وظهروا أمام الناس أنهم يؤثرون اطّراد وتقدم الإسلام على كل رغبة تداعب أخيلتهم ويرجون الخير للإسلام والمسلمين دائماً والحال أن منافقي المدينة المعروفين لم يكونوا على هذا المنوال بل كانوا يضعون العراقيل علناً في طريق الإسلام ويثبطون المجاهدين في هممهم ويتقاعسون عن حضور الغزوات ويفتون في عضد المسلمين ظاهراً وباطناً وكان شعارهم الظاهر ابتغاء الشر للإسلام والمسلمين.

ب ـ وعلى هذا وبناءً على وجود هذا الهوس في رؤوسهم كانوا يبالغون في إجراء الشعائرالدينية رياءً وتظاهراً كي يمتصهم المجتمع المسلم ويستهلكوا في الجماعة الإسلامية ويستحوذواعلى مشاعر المسلمين وتميل قلوبهم شطرهم ويعتبروا في المجتمع الإسلامي من أشد الناس حدباًعلى الإسلام ومحبة له وإيماناً به ونصرة له.

في حين ما كان منافقوا المدينة على هذه الروية بل كانوا يتخففون من شعائر الدين وينبذونهاما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فلم تكن سمعتهم طيبة بين المسلمين وما كانوا يوالونهم أو يميلون إليهم.

ج ـ ولم يكن دخول هذا النفر ذوي الاتجاه الخاص وأصحاب الهدف الشخصي إلى الإسلاموانتسابهم إليه إلا أملاً في بلوغ الغاية المرجوّة المعبّر عنها بالغرض المضمر، لذلك أملى عليهمالموقف تنظيم أمورهم من بدء انتمائهم، وسعيهم الحثيث لكسب الأنصار والأتباع الذين يحملوننفس الفكرة في رؤوسهم، وأن يحملوا إخوانهم المشركين على قبول الإسلام وإن أبته نفوسهم أملاًبتنظيم عدتهم وتكثير عددهم، وإن تكتلوا في اتجاه واحد وتتحد قلوبهم وإن فرقت بينهم الصفاتوالسمات والقبائل وعمدوا إلى الاتفاق مع أهل النفوذ ورؤوس القبائل المختلفة لتحقيق هدفهموإجراء الخطة المزبورة والإعداد لتنفيذها عن طريق اتحادهم، والاستيلاء على المجتمع المسلموفقاً لمخطط محسوب حساباً متناهي الدقة، شيئاً فشيئاً ، بينما لم يكن منافقو المدينة يحملون مثلهذا الهدف ولم يكن ضمن اقتدارهم هذا المخطط المبرم بذكاء وكانوا يعملون عملاً فردياً، ولميضعوا لأنفسهم مخططاً يحملهم على سلوك خطة معينة للاستحواذ على

المجتمع المسلم، من ثمكانت خططهم دوماً تنتهي بالإخفاق ومقت المسلمين لهم. كانت هذه هي السمات المميّزة لكل من هذين الفريقين وسوف نطلع في مستقبل البحث علىميّزات أخرى وإن كانت جزئيّة في هذا المجال.

وعجيب جداً أنْ نرى الوحي في الأيّام الأولى لظهور الإسلام في مكة يحدّثنا عن قوم«**فيقلوبهم مرض**»ويعرضهم على مسرح الأحداث المصاحبة لظهور الإسلام ويشرع في لومهموتقريعهم وتأنيبهم نظير ما حدث له في آخر يوم من هجرته إلى المدينة، فإنه ذكر هذا الفريق بكثيرمن اللوم والتأنيب يقول سبحانه:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ، أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ، وَإِذَا مَاأُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْبِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لايَفْقَهُونَ، لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْأَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾(١).

وبما أنَّ هذا الفريق«**الذين في قلوبهم مرض**» لهم جذور ضاربة في تاريخ الإسلام فإننا عبّرنا عنهم في هذا الكتاب بعبارة«**المنافقون المحترفون**»لأنَّ تعبيراً كهذا من لوازم مرض قلوبهم، حيثذكروا بهذه الصفة في صريح الوحي وعرفوا بهذه

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٩.

الخصوصيّة. يقابلهم في الجهة الأخرى المنافقون الذين نجم قرنهم أخيراً في المدينة، وتتفاوت مراميهمو أهدافهم مع الفريق السالف لذلك سوف يكونون «**المنافقين العاديين**».

القسم الثاني

بحوث في سورة النجم

المبحث الأول

تميز وجه واحد من هؤلاء المنافقين المحترفين

البحث والتحقيق حول الآيتين "٣٢ و ٥٥"

من سورة النجم.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا
يَنطِقُ عَنْ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى
(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا
كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ
رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) أَفَرَأَيْتُمْ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ
الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ
ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ
رَبِّهِمْ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى
(٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ
يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ

لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتْ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

بحث الآيتين ٣٣ ـ ٥٥ من سورة النجم والتعرف على ملامح فريق المنافقين المحترفين

«**سورة النجم**»وهي إحدى السور الست والثمانين النازلة في مكة، وتكون بحسب ترتيبنزول السور هي السورة الثالثة والعشرون وقبلها اثنتان وعشرون سورة من قصار السور وبالطبعترتبط بالنصف الأول من الحقبة المقدرة بثلاثة عشر عاماً التي قضاها الإسلام في مكة قبل الهجرةومما يدلُّ على نزولها في الحقبة السالفة هو لسان الآيات الحاكي عن كيفيّة نزول الوحي في الزمنالمتقدم.

ويمكن تقسيم المواضيع التي استوعبتها الآيات الاثنتان والستون من سورة النجم إلى ثلاثة أقسام على التوالي:

الأول: الآيات الأولى إلى الثامنة عشرة اختصت بالوحي النازل على النبي فوصفته بالدِّقةوصورت كيفيّته.

ومما يلفت النظر أن الآيات جميعها شرحت الموضوع بسياق واحد وردّته إلى ركنينأساسيين هما«**شديد القوى**»و«**محمد**»وجعلت مرجع الضمائر كلها إلى هذين الركنين وفي الآيةالعاشرة ورد التصريح بقوله تعالى:«**فأوحى إلى عبدهِ ما أوحى**»فعرّف محمداً بصراحة بأنه عبدٌ ل«**شديد القوى**»ويتجلى لنا من مجموع ما تقدم أن شديد القوى هو الله جل جلاله الذي أنزل الوحيعلى عبده محمد(ص).

أجل إنه الوحي الذي لم تتخلله واسطة بل كان بين طرفين اثنين فحسب هما الله جل جلاله ورسوله محمد(ص).

الثاني: ويبدأ بالآية التاسعة عشرة ويختم بالثانية والثلاثين اختص بتكذيب المشركين حولما زعموه لآلهتهم الثلاثة«**اللات. والعزّى ومناة**»من أنّها ملائكة وأن الملائكة بنات الله، ويرجون من عبادة الأصنام شفاعة الملائكة لهم، بهذا نزل الوحي المذكور.

ويظهر لنا من ذكره سبحانه الأصنام الثلاثة ثم قوله على التعاقب«**ألكم الذكر وله الأنثى**»ثم ذكر الآيات بعد ذلك عما يزعمه المشركون من تسمية الملائكة وهي قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَىٰ**﴾أنهم صنعوا أربابهم الثلاثة (اللات . ألعزّى .مناة) على شكل بنات لهن أجنحة.

وكذلك نعلم أن غايتهم من الشفاعة بالتدقيق في آيات القسم لا سيّما قوله تعالى:«**فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا**»أنّها الشفاعة الدنيوية أي المسائل المرتبطة بأمور الدنيا وليس لها أدنى ارتباط بالأمور الأخروية.

الثالث: ويبدأ من الآية الثالثة والثلاثين إلى آخر السورة وينبغي أن يختص بتكذيب رجل ذي ثروة وجاه انحصر همه في إنفاق قسط ضئيل من هذه الثروة للتستر على قبائحه السالفة وينبري شخص آخر يعبر عنه بالمحسن يحذره من إتلاف ماله فيما لو واصل الإنفاق، ولعله يعرض نفسه لحمل تبعات ذنوبه بأخذ شيء قليل من ماله.

وعلى هذا الأساس يخامر الثري اعتقاد بأنّ هذا الشخص الذي

تحمل التبعات صار كبشفداء له وأنه تخفف كلياً من آصاره وذنوبه ومن ثم يمسك يده عن الإنفاق فلا يمدها إلى ذي حاجة،وعلى هذا الأساس تعمد الآيات المذكورة إلى تسفيه خيال هذا المقتدر الفج وتشجب رويّتهالمذمومة ثم تعرض عليه حكماً من صحف إبراهيم وموسى على شكل نصيحة.

وعلى أيّة حال، بما أن القسم الثاني من آيات سورة النجم اتصل بالقسم الأول بفاء التفريعالواردة في قوله تعالى:﴿أفرأيتم اللات والعزّى﴾وكذلك القسم الثالث، تفرع عن القسم الثاني بفاءالتفريع في قوله تعالى:﴿أفرأيت الذي تولى﴾(١) ندرك بجزم واطمئنان وحدة سورة النجم وأنّبعضها متصل بالبعض الآخر وعلى هذا من الممكن حقاً أن تؤلف حقبة من تاريخ تلك الفترة ذاتالثلاثة عشر عاماً التي قضاها الإسلام في مكة، ويبدو لنا ذلك مشرقاً بيّناً.

وعلى هذا الحساب لما اختص بحث الكتاب من هذه الأقسام الثلاثة بآيات القسم الثالث منها لأنّه شبه تاريخ للمنافقين من ثم نلفت انتباه القارىء إلى إعادة آيات هذا القسم لكي نعرف ما هيالنتيجة التي تعود علينا بالنفع العميم.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى، أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى، أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، مِن نُّطْفَةٍ إِذَا

---

(١) سورة النجم: الآية ٣٣.

تُمْنَى، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى، وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ .

وبالنظر إلى أنّ الآية الشريفة«فبأي آلاء ربك تتمارى»تخاطب الشخص المعني بالآيات التالية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ لأنّها تخاطبه(١) ويظهر من هذا أن الآيات الواردة قبل آيةً (٥٥) كلها نزلت في موعظة ذلك الشخص ومن عداه ينطبق عليه موضوع مسألة«الجري»(٢) من غير مانع وحينئذٍ يمكن القول بأن الشخص الذي قرعه القرآن وبكّته، يؤمن بيوم الجزاء وعرض الأعمال ويوم البعث ومن ثم يرى أن أعماله لايبعد تحميلها على أكتاف من عداه، ونجاته منها، يظهر ذلك للناظر في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ .

لذلك يمكن اعتبار هذا الشخص من المسلمين الأول الذين أفرزتهم حقبة النصف الأول من فترة الثلاثة عشر عاماً لانطلاقة الإسلام الأولى

---

(١) لو قال قائل بأنّها في خطاب النبي وليست نازلة في ذلك الشخص، فالمعنى ما يزال على حاله؛ لأنّ خطاب النبي دائماً يكون من باب «إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة»، ويكون المعنى حينئذٍ ذلك الشخص المقتدر الذي أدبر عن التقوى فأمسك عن الإنفاق على الفقراء.

(٢) مسألة «الجري» عبارة عن أنّ آيات القرآن كلّها نزلت في مواردها الخاصة ولكن المصاديق المستجدة بعد نزولها تكون مشمولة لها، وشأن النزول لا يمنع من جريان الحكم على المصاديق المماثلة للمورد الأوّل.

في مكة.

ويظهر من حاله الاقتدار ويسر الحال، وهو دائب في التستر على قبائحه بإنفاق جزء منماله، لكي يحمل الآخر على اعتباره محسناً حين يخوفه من إتلاف ماله، ولعله يرى أن استلام شطرمن ماله يخفف من ثقل وزره أو يحمل بعض أثقاله عنه، وهنا يخامر المقتدر الجذل حين يشعربتطهره من آصاره حين مرض ذلك الآخر بحملها، وينوء بثقلها، ويحرم الفقراء من بذل ماله حينيتلبسه هذا الشعور الساذج الخبيث فلا ينفق على البؤساء من ماله، بناءً على هذا الخيال المردود أنَّ سياق الآيات ولسانه المعبّر يفيد هذا المعنى لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ولما تفرعت الآيات «٣٣» إلى «٥٥» من الآية السابقة وهي قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾والمَلاحظ أنَّ الآية المتفرع عليها تكلمت عن الرياء، وعبادة الذات، مما يدل على أن ذلك المقتدرمن قوم مرائين ويتناوله هذا الجزء من الآية:«**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**».

ولما بلغنا بالتحقيق إلى هذه المرحلة لننظر في روايات الفريقين لنتعرف على ملامح هؤلاءالنفر حين عرّفهم كلا الفريقين وتعرّف عليهم.

يقول الزمخشري في تفسير الآيات «٣٣» إلى «٥٤» من سورة النجم في كتابه «الكشاف»:«روي أن عثمان ـ رض ـ كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو أخومن الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شيء فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإني أطلب بما أصنعرضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك، فأعطاهوأشهد عليه وأمسك عن العطاء فنزلت.

وأنتم تلاحظون أن هذا المقتدر هو عثمان بن عفان الأموي والذي منعه من الإنفاق وتحملعنه ذنوبه هو عبد الله بن أبي سرح أخوه من الرضاعة» (١).

وروى ذلك الطبرسي في تفسير الآيات «٣١» إلى «٤١» من سورة النجم في كتابه مجمعالبيان عن ابن عباس والسدي والكلبي وغيرهم من المفسرين (٢) هذا وإن كان البحث القرآنيالسالف يضع عثمان في موضع لا تتناوله المعارف المستقاة من صحف إبراهيم وموسى، التيأسندت إلى ذي الاقتدار ولكنها على كل حال وإن لم تسلم من تلاعب الأيدي بها تجعل عثمانواحداً من مصاديقها، لأنّه كان في صدر الإسلام من ذوي السعة واليسار والتمكن والاقتدار، وكانمن الأعيان القرشية الذين اختاروا الإسلام يومئذٍ.

(١) الكشاف، ج٦، ص٤٤٥.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص٢٧٠.

أجل مهما بذلت الأجهزة المختصة بالوضع والملحقة بجهاز الخلافة من جهد لتعفي على وجود عثمان مشمولاً لمعنى الآيات وأثبتت لشأن النزول مصاديق أخرى نظير الوليد بن المغيرة المخزومي أو العاص بن وائل السهمي وفي بعضها الآخر «أبو جهل بن هشام» أو تخصيصها بمجهول بدل عثمان، ولكن المحقق الخبير يدرك لأول وهلة أن انطباقها على غير عثمان لا يصح بوجه من الوجوه لأن هؤلاء جميعاً كانوا من كفار مكة المشهورين فيها الذين لا يؤمنون بالمعاد أبداً وليسوا بصدد تلافي أخطائهم السالفة **«وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين»**(١)

وبناءً على ماتقدم فإن التحقيق القرآني الموصول بالبحث الثالث من آيات سورة النجم وكذلك نقد الآثار والروايات الواردة في الموضوع تثبت للباحثين بصورة جليّة أن عثمان بن عفان الأموي أحد المنافقين المحترفين الذين أظهروا الإسلام في بدء دعوته، وهاهو تاريخ نفاقه يظهر بجلاء في سورة النجم من القرآن الكريم.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٢٩.

القسم الثالث

البحوث في سورة عبس

* المبحث الأول:

تحقيق آيات سورة عبس وفحصها لإظهار سورة أولئك المنافقين المحترفين.

* المبحث الثاني:

السر في تغيير وضع سورة عبس بعد سورة النازعات في القرآن المتداول اليوم.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى
(٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى
(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى
(٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ
(١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ
(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ
أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ
(٢٣) فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (٢٥) ثُمَّ
شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨)
وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١) مَتَاعاً لَكُمْ
وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ
(٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ
شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَفَرَةُ
الْفَجَرَةُ (٤٢) .

المبحث الأول
تحقيق الآيات من سورة عبس
وإظهار صورة ذات المنافق المحترف

سورة عبس هي سورة من أصل ست وثمانين سورة نزلت في مكة وهي الرابعة والعشرون منحيث التسلسل في نزول السور وقد سبقتها ثلاث وعشرون سورة من السور القصار تماماً، وهذايعني اختصاصها في النصف الأول من الحقبة المكية للإسلام ذات الثلاثة عشر عاماً والناظر فيهايتجلى له بوضوح جانباً من حوادث تلكم الأيام.

ولابدَّ من إلفات نظر القارئ إلى آياتها لأن البحث حولها له مدخلية تامة في هدف هذا الكتاب، وهوذو فوائد جمة تعود على النتيجة المتوخاة.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى، كَلَّا... ﴾.

يظهر للملاحظ أن لحن الخطاب في الآيات أعلاه وطريقة استعمال التعابير البيانية فيه،أصعب تأنيب جرى في لغة الوحي، للمعني به والمشمول للخطاب، للأمور التالية:

أولاً: جاءت الآيتان الأوليان بلغة الغيبة ليكون التأنيب أشد والتقريع أبلغ وأكثر إيلاماً واستنكاراللمعني بهما، ثم تحول الكلام إلى

لغة الخطاب التأنيبي، كي يكون توبيخه أشد وأعظم والحكم عليهآلم.

ثانياً: لم يهمل الخطاب ذلك الأعمى بل وضعه في صدر السياق ليكون قبح الفعل الذي أتى بهالمعني أوضح وسلوكه معه أظهر، لأنّ العادة جرت بالعطف على الأعمى والعناية به ورحمتهوالمعني بالخطاب لم يحصل منه ذلك بل زاد عليه بالاستهانة بالأعمى والتحقير له وبناءً على هذايكون ذنبه أكبر، وجرمه أعظم وظهور واقعه الدنيء أبين للناس.

وإذا كانت إعانة الأعمى وإسداء الخدمة له ممدوحة فإن الاستهانة به وإيلامه يحتوي علىالقبح العقلي ويكون حسن إعانته وقبح إيذائه من الأحكام العقلية ولا حاجة مع ذلك إلى صدور أمررباني بذلك أو نهي من الله عنه.

ولما كان ذلك الأعمى المهان بناءً على تصريح الآيات رجلاً مؤمناً أصباه الحق وملك عليهشغاف قلبه وهو بعد من أهل الخشية لله والخوف منه. كان إيذاؤه أشد قبحاً وسوء معاملته أعظمإثماً.

ثالثاً:إننا نرى أنَّ الآيات الست الأخيرة من (الآيات ٥ ـ ١٠) ركزت بالتفصيل على وضعالمؤنب العابس وأنه استدبر الأعمى وأغلظ له بالقول، وعلى هذا الأساس جرى تأنيبه ولومه،وتكون النتيجة الحاصلة بأيدينا من مجموع القضيّة كما يلي:

إنّك أيُّها الإنسان تولي ذوي الاستغناء والتكبر، الذين اتخذوا ذلك منهج حياة لهم ولم يتبعواالحق فإنك توليهم، الاهتمام والعناية، وتقبل عليهم بكل قلبك وروحك كإقبال الظمآن على العذب الزلال،

ولمتغضب لما يبديه من التكبر والاستغناء ولكنك تعزب عمن يخاف الله ويريد تزكية نفسه، وتقابلهبالازدراء والاستهانة بدل أن تبذل له الود والمعروف ثم تؤذنيه.

«وأما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألّا يزّكّى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنتعنه تلهّى»

أجلْ، إن الآية**«وما عليك ألّا يزّكّى»**لما وردت ضمن سياق التوبيخ والعتاب ينبغي أنْ تكون بالمعنى التالي:**«ولا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر والفجور»**.

رابعاً: انظروا جيداً في الآيات المؤنّبة فإنّها من أجل توثيق العتاب والتأنيب وزيادة توكيدهقدمت الضمير المنفصل «أنت» على فعله وجرى مثله للضمير المتصل المجرور باللام «له»والمجرور بعن «عنه» **«فأنت له تصدّى»**و**«فأنت عنه تلهّى»**كل ذلك تلقي اللوم الشديد والعتابالجارح في عنق المعنيّ بخطاب الآي السالفة.

وعلى كل حال يظهر لنا بكل جلاء من خلال تحقيق الآيات العشر من سورة عبس، أنالشخص المعني بها بعيد كل البعد من مراحل الإنسانية، لم يشعر بالأخلاق الكريمة الجديرةبالإنسان الفاضل طيلة حياته.

وبما أن الآيتين التاليتين استعملا في خطابه وعتابه**«وما يدريك لعله يزّكّى *أو يذّكّر فتنفعهالذكرى»**علم من ذلك أن الرجل يعد في المسلمين وبناء على اقتضاء إسلامه فإنه يسعى ظاهراًلهداية الناس الآخرين.

من جهة أخرى، فإن ارتباط الآيات المتمّة لسورة عبس بالآيات العشر مورد البحث، يوصلناإلى نتيجة محققة، أنّها عمدت إلى ذم ذلك الشخص بالكنايات والإشارات.

وأنتم معاشر القراء لكي يتأكد لديكم ربط الآيات التي تتم بها سورة عبس بما قبلها لا سيماالعشر الأوائل فعليكم بتدبر لفظ «كلا» الموضوع للردع والزجر والذي جيء به هنا لشجب السلوكالأخلاقي والمنهج العملي لذلك الشخص المعاتب«**كلا إنها تذكرة**»و«**كلا لما يقض ما أمره**»فتجربط اللاحق من الآيات بالسابق بهذا الحرف، وعليكم بالملاحظة الواعية لتظهر لكم حقيقة الحال.

أجل في ظل اتصال مقدم الآي بتاليها عندما يلقي الإنسان نظرة فاحصة على قوله تعالى:«**قتل الإنسان ما أكفره**»وهي آية تحمل على تصور بغض الله لذلك الشخص وطرده ثم يلحقهابالآية التالية:«**كلا لما يقض ما أمره**»وهي الآية التي تعبر عن نكرانه الجميل بهذه الدقة المتناهية،تقفز بين أيدينا شخصية ذلك الرجل المعاتب في السورة بجلاء من كونها متحررة من كل التزام دينيوأدبي وأخلاقي ومع ذلك تراه يدّعي الإسلام، ويحشر نفسه ضمن أتباعه.

هذا ولو ذهبنا بعيداً في تلمس نظائر هذا الشخص من ناحية التصور القرآني للأشخاص المختص بفريق كفار قريش في صدر الدعوة الإسلامية فإن الإشارات اللفظية والقولية ترشدنا حقاًإلى ذلك الكافر العنيد الذي عرفته لنا آيات ١٨ إلى ٢٣ من سورة المدثر ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ***

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾.

دققوا النظر في الألفاظ المشتركة الواردة في التوبيخين من السورتين «عبس» و «المدثر»وإلى هنا نختم البحث القرآني المختص بسورة عبس.

والآن علينا أن نتعرف على الشخص الذي وقع تحت طائلة اللوم والتأنيب في السورة منهو؟ ومن نافلة القول ذكرنا للحقبة التي اختص بها نزول الآيات أنها «فترة الثلاث عشرة سنة» منبدو الإسلام.

من الشخص الذي نزلت فيه السورة(١):

روى الأكثرية من مفسري العامة القريبة من الاتفاق أن الشخص المعاتب هو رسول الله(ص) واستدلوا بظاهر الخطاب الوارد في الآيات المذكورة وبالضمائر المتصلة والمنفصلة هذا منجانب ومن جانب آخر فإنهم دعموا مذهبهم بما روي عن عائشة وأنس بن مالك وغيرهماوتمسكوا بذلك والروايات المذكورة وردت في المجلد السادس من «الدر المنثور» (٢) حول تفسير الآيات، من سورة عبس، ومع وجود اختلاف يسير في أصل الرواياتوفيما بينها ولكن يمكن إجمال النتيجة على النحو التالي، حسب ما أوردته تفاسر

(١) هذا العنوان من وضع المحقق فقد استصوب أن يكون هنا فاصل بين الكلامين.

(٢) الدر المنثور ٦/٣١٤، ٣١٥.

أهل السنة: ـ

اجتمع النبي(ص) ذات يوم بجماعة من صناديد قريش، نظير «عتبة بن ربيعة» و «أبي جهلبن هشام» و «أبيّ بن خلف» و «العباس بن عبد المطلب» ودعاهم إلى الإسلام، وطمع بإسلامهمفبينما هم كذلك إذ أقبل مسلم أعمى يدعى عبدالله بن أم مكتوم فدخل عليهم، وطلب من النبي(ص)أن يعلمه القرآن، فآذى النبي مجيؤه بهذه الصورة ثم طلبه الحثيث، فعبس في وجهه وأعرض عنه،وأقبل على القوم يحدثهم، فلما انفضوا نزلت عليه السورة تعاتبه على سلوكه مع ذلك الأعمىالمؤمن، هذا ما كان من أمر نزول السورة.

أما أصحاب هذه النظرية فلهم في توجيه ذلك والاعتذار عن وقوعهم ألفاظ نحن نعرض لهابالتحقيق والبحث.

١ ـ قيل لم يكن العبوس في وجه الأعمى والإعراض عنه محرماً قبل نزول الآيات من سورةعبس حتى يكون ذلك ذنباً صدر من النبي(ص) وإنما كان ذلك بعد نزول السورة.

والجواب عن ذلك نقول: إن ذلك قبح عقلي قبل أن يكون شرعياً فلا حاجة إلى نهي الشرععنه أو أمره بإكرام الأعمى المستضعف، وذلك من المسلمات التي تؤخذ من العقل قبل أن يأمر بهاالشارع.

٢ ـ وقيل: إن العبوس حالة نفسية تعرض لكل واحد بإملاء الظروف القاهرة وفي كل زمانومكان وليست من الأخلاق أو الصفات التي تكون مخالفة لما جبل عليه النبي من الخلق الحسن.

مع أنه لم يكن لغرض شخصي وإنما كان في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس ولا مانع من ذلك إذا كان لله وفي الله.

والجواب كما يلي:

أوَّلاً: إذا كان العبوس يجري من كل أحد وفي كل مشهد وهو حالة نفسية متأثرة بالظرف فما معنى النهي عنه والتأنيب عليه، وهل يصح لوم الإنسان على الحالة النفسية العارضة له كالجذل أو الأسى بأن يقال له: لماذا أنت جذل أو حزين هكذا، أو لماذا ظهر عليك الحياء والخجل، إلى آخره.

ثانياً: وأما ما يقال من أنه لم يكن لغرض شخصي بل كان في سبيل التبليغ والدعوة فإنه يقال: إنْ صحّ هذا القول فما معنى التقريع واللوم إذن في لغة الوحي.

٣ ـ قيل: جاء الخطاب أولاً على هيئة الخبر عن غائب مجهول لأنَّ الحبيب إذا أغضبه حبيبه ولم يرد عتابه وجهاً لوجه، لأنَّ ذلك يؤذيه فإنه يعمد إلى هذا الأسلوب، وجاء الوحي معرضاً عن النبي بقدر ما كان إعراضه عن الأعمى، فخاطبه بلغة الغياب: «**عبس وتولى**» ثم خاطبه وجهاً لوجه مخاطبة الحبيب للحبيب.

والجواب على ذلك كالتالي: إن صورة الخطاب بعد الغيبة إذا كان وجهاً لوجه يكون آنس للنفس وأحب للقلب فلماذا زاد التأنيب والتقريع عندما تحول إلى المخاطبة بعد الغيبة. أليس قوله تعالى في الآيتين التاليتين: «**أما من استغنى فأنت له تصدى**» أشد عتاباً وأعظم توبيخاً من سائر الآيات في سورة عبس، فما نوع هذه المحبة التي

تجعل الحبيب أشد إيلاماً لحبيبه وتقريعاً له عندالمقابلة والمواجهة.

نقول: على أيَّة حال هذا ما كان من نظرية علماء التفسير والحديث من أهل العامة عنالشخص المعاتب والمذموم في الآيات العشر من أول سورة عبس ، وأمّا مشاهير المفسرين منعلماء الشيعة والمحدثين منهم فإنهم يرون أن المعاتب في الآيات المذكورة هو رجل أموي وهومعدود في المسلمين ولما كان من ذوي الثراء والجاه فإنه يعد نفسه من وجوه المجتمع البارزة،وللاطلاع على رأي الشيعة في المسألة فإنهم يذكرونها ضمن الحدود التالية:

كان الأموي المذكور جالساً عند النبي(ص) إذ أقبل رجل أعمى، مؤمن مولع بالقرآنوالإيمان، فأوسع له الحاضرون ليجلس إلى جوار الأموي فغضب الأموي من جلوس الأعمى إلىجانبه فعبس وجمع ثيابه وأعرض عن الأعمى واستهان به فكان ذلك سبباً في نزول الآيات الشريفةتقرع الأموي على سوء سلوكه مع المؤمن الضرير.

وإليك نماذج من أقوال علماء الشيعة وآراء مفسريهم ومحدثيهم حول الموضوع، نأتي بهاهنا:

أ ـ علي بن إبراهيم القمي ذكر الحادثة على النحو التالي:

«قال نزلت في عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذناً لرسول الله(ص) وكان أعمىفجاء إلى رسول الله وعنده أصحابه وعثمان عنده فقدّمه رسول الله(ص) على عثمان فعبس عثمانفي

وجهه وتولى عنه فأنزل الله عبس وتولى أن جاءه الأعمى»(١).

ومع قطع النظر عما يوجه إلى بعض الجمل من نقد فإننا نرى بوضوح أن عليَّ بن إبراهيم عرّف الشخص المعاتب في روايته بأنه عثمان بن عفان.

ويقول السيد المرتضى علم الهدى في الموضوع نفسه: ليس في ظاهر الآية دلالة على توجهها للنبي(ص)، بل هو خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه وفيها ما يدل على أنَّ المعني بها غيره لأنَّ العبوس ليس من صفات النبي(ص) مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين ثم الوصف بأنه يتصدّى للأغنياء ويتلهّى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة(٢).

وهذا ما يراه السيد المرتضى أيضاً بأن توجه العتاب والتقريع في سورة عبس إلى شخص رسول الله(ص) مخالف لصفاته وأخلاقه الكريمة.

ج ـ ويقول محمد بن الحسن الطوسي ـ المعروف بشيخ الطائفة في كتابه التبيان في تفسيره الآيات الأولى من سورة عبس بعد نقله رأي علماء العامة والحشوية في نزولها في رسول الله:

وهذا فاسد، لأنَّ النبي(ص) قد أجلّ الله قدره عن هذه الصفات وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب وقد وصفه بأنه على خلق عظيم وأنه لو كان فظاً

---

(١) تفسير البرهان ج٤، ص٤٢٧.

(٢) مجمع البيان، ج١، ص٢٣٩ آلي، ذيل تفسير سورة عبس الأولى، المجمع العلمي لأهل البيت.

غليظ القلب لانفضّوا من حوله، وكيفـيعرض عمن تقدم وصفه مع قوله تعلى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ثم يتابع قوله إلى أن يقول:

على أن الأنبياء(ع) منزّهون عن مثل هذه الأخلاق وعما هو دونها لما في ذلك من التنفيرعن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم، ولا يجوز مثل هذا على الأنبياء(ع) من عرف مقدارهمونبيّن نعتهم(١).

وهذا أيضاً ما قاله الشيخ الطوسي أيضاً فإنّه يرى أن تأويل الآيات في رسول الله(ص) منافـلنبوته.

د ـ ويقول الشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره المعروف بعد ذكره قول قتادة ومجاهدوالضحّاك: وقال المحققون المعني بالآيات ليس رسول الله(ص)، لأنَّ هذه الصفات المذكورة فيالآيات مذمومة ولو كانت لبعض العلماء أو الفقهاء لنفّرت منهم وباعدت الناس عنهم فكيف تكونفي حق الرسول الذي نزهه الله من هذه الصفات المذمومة إلى أن يقول وهذا القول أدنى إلى الصوابـمن القول الأول لدلالة القرآن وتواتر الأخبار على خلافه.

هـ ـ والشيخ الطبرسي في تفسيره مجمع البيان بعد ذكره القول

---

(١) التبيان، ج١٠، ص٢٥٩ و ٢٦٠ آلي، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، موقع الجامعة الإسلامية.

بشأن النزول على مذهب العامةكما هو رأيه وديدنه يتعرض لما قاله السيد المرتضى علم الهدى ويذكره كالذي أوردناه في «ب»سلفاً ثم يعقب على قوله مؤيداً له:

«ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفه(ص) وإنّك لعلى خلق عظيم وقوله: لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك.

«فالظاهر أن قوله: عبس وتولى المراد به غيره وقد روي عن الصادق(ع) أنها نزلت في رجلمن بني أمية كان عند النبي(ص) فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرضبوجهه عنه فحكى الله ذلك وأنكره عليه» (١).

وهذا هو قول الشيخ الطبرسي الذي أيد به السيد المرتضى رحمهما الله.

أجل يظهر لنا من ملاحظة أقواله من حيث المجموع تأثره بأقوال العامة في تفسير سورةعبس في كتابه مجمع البيان، ولكن يتجلى من تأييده لعلم الهدى أن رأي السيد كانت له الشهرةوالسيادة عند علماء الشيعة في ذلك العصر، وقد رأينا كيف وافقه الشيخ أبو الفتوح الرازي وهو منالمفسّرين المرموقين عند الشيعة.

و ـ وكذلك فعل الملا محسن الفيض الكاشاني في تفسيره «الصافي» عندما نقل رواية علي بنإبراهيم واختار الرأي نفسه في تفسير الآيات.

---

(١) مجمع البيان، ج١٠، ص٢٣٩ آلي، ط المجمع العالمي لأهل البيت.

ز ـ وذهب إلى هذا المذهب أيضاً المرحوم العلامة الطباطبائي في تفسيره «الميزان» واختاررأي عموم علماء الشيعة واستدل في البحث الروائي الخاص بالآيات ١ ـ ١٦ من سورة عبسمضافاً إلى ما استدل به الشيعة بآيات اختارها دعَّم به المذهب المذكور وتمسّك به(١).

وقال صاحب الميزان في البحث الروائي ذاته حول الرواية التي ذكرها الطبرسي في مجمعالبيان أيضاً:

«وروي عن الصادق(ع)أنّه قال: كان رسول الله(ص) إذا رأى عبدالله بن أم مكتوم قال:مرحباً مرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً».

وقال: «الكلام فيه كالكلام فيما تقدّمه» أي أنَّ مصير هذه الرواية العامية التي نقلها الطبرسي عنالعامة كشقيقتها التي سبقت، وفيها أنَّ العتاب مقصود به النبي وهي مردودة أيضاً.

وهذا نموذج من أقوال علماء الشيعة ومفسريهم ومحدثيهم من صدر الإسلام حتى يومنا هذاكي لا يدّعي أحد قائلاً: «اتفق المفسرون من صدر الإسلام أن المعنيّ بالآيات الأولى من سورةعبس هو رسول الله(ص) ويؤيّد ذلك التاريخ الموثّق والمسلم به ورأي قاطبة المفسرين».

وكأن التاريخ المسلم عندهم هو الروايات اليسيرة المنقولة عن عائشة وأنس بن مالكوالغرض من المفسرين قاطبة هي الآراء الخاصة

---

(١) الميزان، ج٢٠ ص٣٠٨.

بأمثال قتادة والضحاك.

وعلى أية حال، إن كل من آمن بعصمة الأنبياء من خلال دراسة الآيات القرآنية في الموضوع،واعتقد برفعة مقام المصطفى عن سائر الأنبياء وعلو شأنه عن شأنهم وألمّ بالأصل الأصيل من القول المأثور «**حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين**» لا يخالجه ريب بأنّ النبي لا يصح تلوثه بمثل هذه الرذائل الخلقية بحيث يعاتبه الله ويبلغ بالعتاب إلى درجة الردع والتأنيب، وبالنظر إلى مجيء «كلا» في آخر الكلام ندرك إبعاد هذا الشخص عن حضرة الربوبيّة وحلول النقمة به من الله وطرده، فإن ورود ذلك في حق المصطفى لا يحتمل عقلاً فضلاً عن وروده نقلاً إذ كيف يمكن تصور ذلك مع ماورد من الله في رفع درجته وتشريفه في نزول كيفيّة الوحي عليه بآيات وردت في سورة النجم وتعتبر بحسب النزول قبل سورة عبس، والآيات هي التالية:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا
يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى
(٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا
كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ
نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥)
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ
رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) . الآيات.

ثم بعد هذا البيان لفضائله الخلقية وملكاته الإنسانية تأتي آيات في سورة أخرى تالية لهذهالسورة فتصوره على أنَّه غير جدير بمراعاة المؤمنين أو بعيد عن كل معنى إنساني، بحيث يستحق التقريع والتأنيب والشجبإلى الحد المرسوم في الآيات أدناه:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) ﴾كلا ... كلا !

وتصديق أمر كهذا في رسول الله بل مجرد احتمال وقوعه مرادف لنفي رسالته(ص).

نعم إنَّ واقع الأمر كما يظهر من خلال جانب من روايات شيعية وردت في الموضوع ينبغي أنيكون على النحو التالي:

أنَّ الأموي المذكور وهو ثري مقتدر جاء إلى النبي(ص) متجملاً (عثمان بن عفان) وعليه حلةغالية الثمن وهو من ذوي البيوت فتصدر المجلس إلى جانب إخوانه وأعوانه، على أن مجلس النبييومئذٍ لا يحتوي على مقدم ومؤخر، والظاهر أنَّ هذه السنة الحسنة كانت مرعية من النبي وأودّائه،ولكن أعيان قريش ومن لفَّ لفهم يصرون على تصنيف المجالس إلى صدر وعجز وما إلى ذلك،وبالنظر إلى أنَّ القصة المذكورة في سورة عبس وقعت في مكة في أول ظهور الإسلام ومن الطبيعيفي هذه الفترة أن يكون المسلم

موضع إعجاب وتقدير لمن أسلم لا سيما لمن كان مثل عثمان الأموي، وقضت العادة أنْ يقع موقع الإعزاز والتقدير من المجتمعين وأن يتواضع له أهل المجلس ويحتل المكان المختص بذوي الشرف والمنزلة من المجلس وكان النبي(ص) يصانع هؤلاء القوم ولا يتنكر لهم ويبدي لهم جانباً دمثاً في بدء ظهور الإسلام حتى ينزل الوحي عليه يأمره بشأنهم أو ينهاه.

وعلى أية حال، كان رسول الله(ص) جالساً وقد أحاط به المؤمنون من كل جانب، كل في مكانه المختص به تجللهم الهيبة ويبسط عليهم رداءهم للسكون إذْ ظهر لهم دفعة واحدة ذلك المؤمن الكفيف الطيب وألقى التحية على النبي ومجالسيه بوَلَهٍ ومحبة.

فأجابه النبي بذات الشوق واللهفة التي ألقى بهما سلامه لعلمه بإيمانه الحقيقي وسلامة نيّته وطهارة قلبه وتواضع له وبالغ في تكريمه، واستقبله الحاضرون باحترام تام لتوقير النبي له ولكونه ذا عاهة مؤسية تستدر الرحمة والأسى، وأمسك النبي يده ليزداد بهجة في ضميره وأجلسه في المحل الذي اعتاد الموسرون احتلاله، وكان التكريم الذي استقبل به هذا الأعمى أعظم مما استقبل به ذلك الشخص الأموي، وهذه مشاهد تثير الكبرياء والترفع في نفس تلكم الطبقة المتعالية ولما أفلت عنان الصبر من يد ذلك الأموي لما شاهده من قود الأعمى إلى صدر المجلس ومن العناية به، عبس حينئذ في وجهه واكفهّر وجمع عليه ثيابه واستدار إلى مجالسه الجالس إلى جنبه ولعله من طبقته المتعالية الموافق لسجاياه والمتفق مع ميوله والذي اصطحبه

ليشاطره المجلس، لاتحادهمافي الشكل والجوهر، وراح يحادثه وقد ولى الضرير ظهره، وكأنّه يوحي للجالسين أنه يستهين بهبالرغم لما أبدوه من الاحترام له.

فآذى ذلك رسول الله والمؤمنين حتى نزلت سورة عبس قبل انفضاض المجلس وفيهاالإشادة بالمؤمن الحقيقي الأعمى والردع والتوبيخ لذلك الأموي المتكبر على عباد الله:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) ﴾كلا ... كلا !

إنَّ هذه الآيات الشريفة نزلت في المجلس المذكور أو بعد تفرقه بقليل حيث ما تزال صورةالمجلس ماثلة في الأذهان وهي مختصة به حيث يحتله الأموي أو مع فرض وجوده فيما إذا اعتبرناالمجلس قد انفضّ عند نزول السورة، ولما كان منتسباً إلى الإسلام وهو من ذوي الوجاهة وأصحابالمكانة ومن علية القوم وأهل الثروة منهم بعد وكان مقتضى الحال رعاية الظروف الخاصة التي ظهرفيها الإسلام بمكة فلم يوجه الخطاب إليه بدواً صيانة لماء وجهه ومن ثم جاءت لغة الوحي فيالآيتين الأوليين تصريحاً به ثم تحول الكلام إلى مخاطبة النبي(ص) وكانت الضمائر متصلة ومنفصلةالخاصة بالشخص الآخر قد جيء بها لجلاء الأمر وإيضاح ما أبهم من شؤون المعني بالعتاب.

وهذا النوع من الخطاب مستعملاً في لغات الدنيا بأسرها ومتداولاً في الاستعمال كما أخبربذلك عدل القرآن والعلماء به يعني أهل بيت العصمة والطهارة فقد بينوا لنا أن ما اشتد من لغة القرآنفي مخاطبة النبي إنما جرى على وتيرة«**إياك أعني واسمعي يا جارة**»وفي الفارسية«**خاطبالباب ليفهم الجدار**»، وهذا المثل مستعمل بكثرة في إيران مثلاً.

أجل، بما أن لغة الوحي من أجل التربية والتعليم وقد جعلت نصب العين الفعل والانفعال عندالمخاطب فلمتر أنجع طريقاً وأوقع أثراً وأحسن قبولاً في تأديب عثمان بن عفان من تحولالخطاب عنه بعد آيتين إلى النبي ويكون عثمان معنياً بالكناية والتلميح والإشارة دون التصريح، كيتخف وطأة كبريائه وتخمد دعوى حسن تكبره وتنقطع نغمة انتسابه إلى البيوت المتعالية وتتفتح مسامعقبوله النصيحة ويسهل عليه التدرج في طريق الحق والمعروف، فهل أثر هذا المسلك الشريف به؟!

كلا، وكأن لغة الوحي ناظرة إلى ما يتحلى به هذا الإنسان من الصفات المطبوعة في ذاتهوالمتخلقة في جبلته فها هي تفصح عنها، لأن وصفه في سورة النجم ما أشده وأوضحه.

«**أفرأيت الذي تولى (ع) وأعطى قليلاً وأكدى**»وما أبين الشرح الذي أفصح عن ذاته في هذهالسورة:«**أما من استغنى * فأنت له تصدّى * وما عليك ألّا يزكّى**»إن هذه الصفات طبعت فيذات عثمان منذ نشأته إلى حين وفاته فلم تنفك عنه.

إنه نفسه الذي حاز الأموال العامة ومعه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع ـ كما وصفهُ أمير المؤمنين في خطبته المعروفة بالشقشقية لبخله وشحه وكزازة يده، وكان درعاً واقية وجنّة حصينة لأعداء الله ورسوله في عمره كله، يمولهم ويحميهم ويدافع عنهم.

وهو الذي آوى «معاوية بن المغيرة بن أبي العاص»(١) الذي مثّل بحمزة بعد غزوة أحد وردّ الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله(ص)، وحمى عبدالله بن أبي سرح ثم ولاه على مصر، وخلط الوليد بن عقبة الفاسق بنفسه، وولاه على الكوفة في خلافته وكم له نظائر من هذه الطامات.

والآن كيف اتضحت ملامح واحد من المنافقين المحترفين الذي أخبرتنا عنه سورة النجم بفارق واحد وذلك أن الآيات: ﴿أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى﴾(٢) تظهر بخله وعبادته للمادة أكثر بينما الآيات في عبس وتولى أنْ جاءه الأعمى تظهر تعاليه وكبره وربما كان ذلك أعظم جرماً وأشد قبحاً من عبادة المال.

أجل إن البخل وعبادة المال متصل «بشيطان الثروة» والاستكبار

---

(١) قال ابن هشام: ويقال إنَّ زيد بن حارثة وعماراً بن ياسر قتلا معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد، كان لجأ إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله‘ فأمنه على أنَّه إنْ وجد بعد ثلاث قتل فأقام بعد ثلاث وتوارى فبعثهما النبي‘، وقال: إنكما ستجدانه بموضع كذا وكذا فوجداه فقتلاه ... الروض الأنف ج٣ ص٢٩١ المترجم.

(٢) سورة النجم: الآية ٣٣ ـ ٣٤.

والتعاليعلى الضعفاءمتصل«**بشيطان القدرة**»وبقدر ما يفوق شيطان الثروة شيطان الشهوة بالقوة تكون نسبة شيطانالثروة إلى شيطان القوة أشدّ خطراً.

وعلى أية حال فقد اتضحت معالم الصورة لأحد المنافقين المحترفين الذين كشفت حالهمسورتا النجم وعبس المتعاقبتين في النزول في صدر الإسلام، وتلكم هي صورة عثمان بن عفانالأموي الخليفة الثالث.

لقد شاهدنا عثمان بن عفان من بين إخوانه المنافقين يفتضح عاجلاً حين وقع تحت طائلةتأنيب الوحي وتقريعه، وينبغي أن يلم المرء بخلال هذا الشخص لأنه يقل جربزة عن إخوانهالمحترفين من ثم أسرع إليه السقوط كما أن احتوائه على رذائل الصفات وتلبسه بالقبايح التي يعجزعن كتمانها والتغلب عليها وهي مستكنة في ذاته الجبلية كان لها الأثر الفاعل في كشفه وبيان حالهيظهر ذلك أكثر في خلافته عندما تسنّم غارب الخلافة فإن فضيحته بانت للعيان أكثر من إخوانهالمنافقين المحترفين وهوى من شاهق «**فانتكث فتله وأجهزت عليه بطنته**».

المبحث الثاني
السر في تغيير تسلسل سورة عبس بعد سورة النازعات في القرآن المتداول والمعمول به اليوم

ويعرض لنا هاهنا سؤال:

لماذا تصرف الحزب الحاكم بتسلسل موضع السور القرآنية وكان عثمان عضواً في النظار يومذاك فحشروا بين السورتين: «النجم» و «عبس» ستاً وعشرين سورة أخرى.

ويسرع الجواب إلى الذهن بأنّها محاولة لمحو الأثر الذي كشفت عنه السورتان للمنافق المحترف.

وربّما قال قائل: بأن الأمر يرجع إلى تنظيم السور من حيث الطول والقصر، وكان وضع السور الست والعشرين بين السورتين أمراً اضطرارياً.

والجواب كما يلي:

أولاً: تنظيم السور حسب طول السورة أو قصرها موضع للاعتراض والنقد، وسوف يبحث في موضعه إنْ شاء الله.

«وينبغي للقارىء الرجوع إلى المبحث السادس من هذا الكتاب فقد تم بحث النظام الترتيبي والتركيبي للسور وهو مفيد في تدبر الموضوع المشار إليه».

ثانياً: إن الموضوع المذكور عن الترتيب الموجود في المصحف الآن يحتوي على مواردللنقض كثيرة، سواء من ناحية طول السور وقصرها باعتبار كثرة الآي وقلتها وسواء من ناحية الطول‌الخارجي والقصر الخارجي من حيث الكتابة وعلى كل حال فإنّ هناك اعتراضاً ونقضاً كثيراً على‌الترتيب المذكور.

ثالثاً:إنْ كان الترتيب على النهج المذكور تواً فلا ينبغي أن تتقدم سورة النازعات على سورة‌عبس.

ولكن التأمل الواعي للوضع المذكور يعطينا الذريعة المقنعة بتقدم النازعات لأن الغرض من‌ذلك تهيئة المناخ اللازم لمحو أثر عثمان بن عفان من الأذهان لأن آخر سورة النازعات تمهد‌الطريق لمجيء أول سورة عبس ووضع اللوم والتوبيخ على كاهل رسول الله(ص).

وتوضيح ذلك: لما كانت الآيات من سورة النازعات وهي عبارة عن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا* إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا* إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا* كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا*﴾.

إنّها ذات ضمائر متصلة ومنفصلة للمفرد والمخاطب بها قطعاً رسول الله(ص).

من ثم عمد جامعو القرآن بمهارة فائقة وحيلة رائقة إلى جعل سورة النازعات سابقة على‌سورة عبس ومتصلة بها كي يكون القارىء على استعداد بعد تشبّع ذهنه بضمائر الخطاب في ختام‌السورة لتقبل رجوع الضمائر الموجودة في أول سورة عبس على رسول الله(ص)

وبذلك يرتفعالحرج عن عثمان ويبقى اسمه سليماً من التهم التي تعرض لها في بدء النزول، وينجو من لوم الناسوتبكيتهم، وقد نجحت هذه الحيلة وأعطى المكر المعهود أثره وتاه المفسرونوالمحققون في إدراكالمصداق الواقعي للآيات الأولى من سورة عبس في وادي الضلالة، وجعلوا النبي نعوذ بالله فداءًلعثمان بن عفان نعوذ بالله من الكفر والزيغ، ودنّسوا ساحة قدسه بالتهم الباطلة.

القسم الرابع

البحوث في ثلاث عشرة آية من سورة العنكبوت

تحقيق حول آيات "سورة العنكبوت" وبيان العلل الواقعية للنفاق، وأقسام المنافقين وأنه لا يوجد في الفترة ذات السنين الثلاث عشرة من صدر الإسلام منهم إلا المنافقون المحترفون.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين
من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣) أم حسب الذين يعملون السيئات أن
يسبقونا ساء ما يحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم
(٥) ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين (٦) والذين آمنوا وعملوا
الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (٧) ووصينا الإنسان
بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم
بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين (٩) ومن الناس
من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك
ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين (١٠) وليعلمن الله الذين آمنوا
وليعلمن المنافقين (١١) وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم
بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون (١٢) وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم
وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون (١٣)﴾ .

سورة العنكبوت واحدة من ست وثمانين سورة نزلت في مكة في فترة الثلاث عشرة سنةوهي السورة الأخيرة أو ما قبل الأخيرة، ويظهر من مضمون آياتها نزولها في أواخر أيام تلكم الفترة ويستدل لذلك بأمور:

أولاً: أن الآية الخامسة عشرة ذكرت نجاة نوح وأصحاب السفينة من القوم الكافرين منقومهم والآية الرابعة والعشرين تعرضت لنجاة إبراهيم من البلاء والقتل والمحرقة التي عرّضه لهاالنمرود والآية الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين أيضاً بيّنت نجاة لوط وأهل بيته من القوم الفاسقينوالكافرين، وهذه الوقائع تتسق مع نجاة رسول الله والمؤمنين من كفار قريش بالهجرة من مكة إلىالمدينة.

ثانياً: أن الآية السادسة والعشرين تكلمت عن هجرة إبراهيم وتركه الديار وأهلها(١) ولهامناسبة جد تامة مع هجرة رسول الله(ص).

ثالثاً: أن هذه السورة تأمر المسلمين بالهجرة في الآية ٥٦ حيث يقول سبحانه:«**يا عباديالذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون**»ومن الواضح أن هجرة المسلمين من مكة أصبحتأمراً تكليفياً وهي مرتبطة بآخر مقام لهم في مكة.

وعلى كل حال، نعثر على أول ذكر للمنافقين في هذه السورة من أصل مائة وأربعة عشرسورة قرآنية فلم يجر لهم ذكر من قبل،

---

(١) وكذلك تستفاد هجرة إبراهيم من الآية ٤٦ إلى ٥٠ من سورة مريم والآية ٩٩ من سورة الصافات. المؤلف.

إلا في سورة العنكبوت، وعلم منها باعتبارها آخر ما نزل من السور المكية التي توالى نزولها في مكة، ان مسلماً لم يعبر عنه بلفظ منافق في لغة الوحي ما عدا هذا الموضع من السورة أي أن هذه الفترة لم يحدث فيها أن مسلماً وصف بالنفاق أو أنه اختار الإسلام على نهج المنافقين وفي أجوائهم الخاصة ومن الممكن اعتبار النفاق منحصراً في الصور الأربع التالية:

الأولى: تظاهر المرء بالإيمان ظاهراً طمعاً في مكسب دنيوي وحيازة مكانة فيها فيكون إسلامه غير واقعي بل بناءً على المنافع الدنيوية والأغراض الشخصيّة.

ومن الآيات المعبرة عن المنافقين والراسمة لخططهم وشخصياتهم الآيات التالية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٢).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣).

الثانية: الخوف على المكانة وفقدان الرتبة الاجتماعية وزوال

---

(١) سورة الحج: الآية ١١.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧٥.

الموضع الاجتماعي والأسري،وبعبارة أخرى الاحتماء بالإسلام عن التدهور الحاصل للنفس والمال والأهل، حيث ينزع مثل هؤلاء إلى الإسلام لا إيماناً وتيقناً ولكن اتخاذه جنة من الصدمات التي يخشى منها على مجموع ما ينتسب إليه من المكانة والثروة والأسرة.

ومن الآيات الدالة على ذلك الآيات التالية:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ إلى أن يقول سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾(١).

الثالثة: ومن أسباب النفاق وعلله محاولة القضاء على الإسلام بالانتساب إليه والظهور بمظهر المعتنق له المعتقد به، لبذر الخلاف بين المسلمين وتهيئة الجو الخانق للإسلام والمؤدي إلى فنائه واضمحلاله.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٢).

الرابعة: من أسباب النفاق وعلله علة أشد خفاءً وأعظم إيغالاً في النفاق وضرباً في منابت تربته، ويمكن تبيينها بما يعبر عنها من أنّ المنافق لا ينحصر غرضه من التظاهر بالإسلام في الربح العاجل

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٤٩ و ٥٦ و ٥٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٧.

المكتسب أو النصيب المادي المحدود بل الهدف أكثر من ذلك وأكبر وهو النفوذ في الوسطالمسلم وإيجاد تربة صالحة يغرس من خلالها أفكاره للتحكم ونيل الرئاسة والسطوة والحكم داخل المجتمعالمسلم.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌمَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾(١).

ومن الواضح أن ثلاثاً من العلل الأربع الأولى هي التي تستوعب المنافقين بمختلف أشكالهم.

أما العلة الرابعة فإن معلوليها من أهل النفاق يندر وجودهم بين الجماعات الإسلامية، أجلإنهم من ذوي الخصوصيات التي لا تتوفر عند أي أحد ولا يمكن تواجدهم إلا في الطبقات العليا من المجتمع وليسوا من غمارالناس ولا أوباشهم ودهمائهم، وبناءً على هذا فإنَّ لغة الوحي من الأول إلى سورة العنكبوت (وهيآخر ما نزل من القرآن في مكة حسب تسلسل النزول القرآني فيها) لم تذكر فئة مختبئة بين المسلمينباسم المنافقين، وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الفئة المعلولة لعلل النفاق الثلاثة لم تختر الإسلام على هذهِ الكيفية في مكة

---

(١) سورة محمد.

أبداً، لذلك لا تعتبر موجودة على وجه الإطلاق في تلك الفترة(١).

لقدْ بيّنا ـ فيما سبق ـ بأنَّ الوضع في مكة كان من الشدة والعسر على النبي والمسلمين بحيث لا يتصورأحد أن عاقلاً يمكن أن ينتسب للإسلام طمعاً في حطام دنيوي وحال ذويه معلومة للناس جميعاً من البؤس والعسر وضيق الحال، وهكذا يقال بالنسبة لمن أراد الاحتماء به وحماية نفسه وصيانة ماءوجهه فآمن به ظاهراً وأبطن الكفر، فإن احتمالاً كهذا باطل قطعاً لأنَّ الاضطهاد الذي حلّ بالمسلمين يحمل الناس على النفرة منهم لا على الصلة والقرب.

ومن المسلّم به أنّ الإسلام لم يرج في تلك الفترة ، وبدا في أعين الناس فكرة مهزومة، فليس من المعقول أن يندس إنسان في صفوفه ويظهر الإيمان به ويتحمل النكبات التي حلت بأبنائه ويضحّي بنفسه لمجرد أن يعمل على محوه وقمعه من الداخل بإظهار الاعتقاد به والاختلاط بصفوف أبنائه.

أجل إن المعقول في تلك الفترة هو تصور النفاق بحق قوم يتميّزون عن العامة بإدراك أكثر حيث ألمّوا بحقيقة الإسلام من ناحية بعد نظرهم ومعرفتهم الخاصة بمستقبله وأن الريح سوف تجري رخاءً له ويكون البحر الهائج اليوم والمائج في وجهه غداً، رهواً

---

(١) من أعجب السور التي ذكرت آياتها علل النفاق هي سورة التوبة، ويمكن الرجوع إلى موضعها الخاص من هذا الكتاب والمختص ببحث آيات سورة التوبة، وقد كشفت عن موضع الآيات المختصة به، وتمَّ إيضاح العلل المذكورة في محلها منه، فعلى طالب مزيد بيان فعليه بالرجوع إلى ذلك الموضع.

ساجياً تبحر فيه سفينته بيسر وأمان،كما أن النمو المطرد والنجاح الزائد حليفه وهؤلاء القوم مضافاً إلى تملكهم لهذا الحسّ العجيبـيتحلون بالروح الصعبة المشاكسة المتعالية حتى يتمكنوا عن طريق التظاهر باعتناق الإسلام منإيجاد موطىء قدم لهم في عراصه ومبانيه بين كبار أعلامه وحكامه، ولأصحابهم وأعوانهم ولمن همعلى شاكلتهم تؤول غداً إلى تسنمهم دست الحكم إذا دقّت الساعة المعهودة، وجاء الوعد الحق.

إنَّ احتمالاً كهذا في هذه الفترة أي فترة الثلاث عشرة سنة يبدو معقولاً لمن احتمله.

ولابدع فقد كشفنا في البحوث المتقدمة عن أن القرآن فضح سر هؤلاء القوم من أول يوم نزلفيه وسمّاهم: «الذين في قلوبهم مرض» وأخبر عنهم.

ولابدَّ من كون هؤلاء قرشيين في الصميم أو من علية القوم على أقل تقدير، حتى تنبريقبائلهم للدفاع عنهم عند إظهارهم الإسلام أو يتسنى لهم الصمود بما في حيازتهم من مال وثروةأمام المشاكل التي تحل بالمسلم بعد إسلامه يومئذٍ.

وما كان هذا الفريق من الموالي أو من غير العرب كما أنه لم يكن من فقراء العرب ومعسريهم، لأنَّ قوماً كهؤلاء ليسوا محلاً لمثل هذه الفكرة المعتدة، ولا تحتوي رؤوسهم على خيال الحكم أوبلوغ الرئاسات.

وإنَّ الفريق الأوّل بما لهم من الجاه والثروة وبما لهم من الحق

طبقاً لقانون الجاهلية القاضيبدفاع القبيلة عن أفرادها إذا ما أسلموا ولم يكن إسلامهم واقعياً فليس مشمولاً لواحدة من العلتينالأوليين للنفاق.

ثم لما كان إسلامهم للمقتضي الخيالي الجائل في رؤوسهم لم يكن على أساس العلة الثالثةالتي مرّ بيانها بل على العكس من ذلك، أنهم يبالغون في الغيرة على الإسلام ما وسعهم ذلك، كما أنّهم يمدّون أيديهم حيث تصل لمساعدة الإسلام في تقدمه ومعاضدة المسلمين في ظاهرهم.

إنّإظهار هذا الفريق بالغيرة على الإسلام وإبراز أنفسهم أنهم حماة الإسلام والمسلمين بحقوإنّ غرضهم الأوّل والأخير ما هو إلا جلب الخير والصالح العام للمسلمين حتّى يحملهم سائرالمسلمين على البراءة من التهمة عندما يخالفون حكماً من أحكام الإسلام أو يقفون في وجه رسولالله عند تبليغ أحكامه فلا يحملون على النفاق بلْ يعطون الحق مضافاً إلى براءة ساحتهم، في خلافهمومعاكساتهم للنبي(ص) .

من هذه الجهة نرى لسان الوحي اتخذ معهم خطة متهادنة مبنية على التهدئة وعدم الإثارة، كما فعل رسول الله(ص) ذلك،وسلك جانب الاحتياط فلم ينهض في وجوههم صراحة ولم يؤنبهم بالعبارات الجارحة أو الكلمات الفاضحة، بل ما شاهم بصبر وتحمل وكان يعبر عن أعمالهم وضلالهم وسوء تصرفهم بالإشاراتوالكنايات وهؤلاء القوم كانوا على وفاق مع الإسلام ما دام بعيداً عن معاكسة نواياهم

وأهدافهم المضغوطة في رؤوسهم ويظهرون النصرة الجادة له بل يحملهم الكيد على الظهور بمظهر التسابق في الدفاع عن الإسلام ونصرته ولكنهم عندما يتهددهم الموت في وقايع الإسلام ويحسون بالخطر موجهاً إلى ذواتهم أو عندما يشعرون بمناقضة حكم من أحكام الإسلام لأهدافهم المركزية وأخيلتهم المرهقة فإنهم يهبون بشراسة لمعارضة ذلك الحكم وتلكم الواقعة.

خذ على سبيل المثال عندما يشعر القوم بخطر الموت فإنَّ لغة الوحي تعرب عن حالهم على النحو التالي:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾(١)(٢).

وفي الموضع الذي تكون أحكام الدين ووقايع التاريخ على خلاف هواهم وميولهم فإن لغة الوحي تعرب عنهم بالصفة التالية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾(٣) إنَّ هذه الفئة الرابعة من فئات المنافقين الأربع أعظم خطراً فكلما جرت الأمور على خلاف هواهم وأحسوا بالخطر يهدد ميولهم انقلبوا على أعقابهم وتحولوا إلى أعداء بل من أشد الأعداء ضراوة على الدين وعلى

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٠.

(٢) بحثت الآيات في سورة محمد في الفصل الأول من القسم السادس عشر فارجعوا إلى هناك.

(٣) سورة محمد.

رسول الله(ص) نفسه وعلى كلام الله فيؤذون النبي ويسخرون من كلام الله،وهؤلاء القوم عبّر عنهم القرآن بقوله:«**الذين يؤذون الله ورسوله**»و«**الذين يحادون اللهورسوله**»وبأمثال هذا من الكلام، وملاحظة الآيات أدناه تفصح بصراحة تامة عن أصحاب هذاالمسلك.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ إلى أن يقول: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** إلى أن يقول: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾**.

أجل لما كانت هذه الفئة من الفئات المنافقة تنطوي على صفات:«**الذين في قلوبهم مرض**»،«**الذين يؤذون الله ورسوله**»،«**الذين يحادون اللهورسوله**»وكان نفاقها أثبت في المكر والخبثوكانت أشد عداوة لله ورسوله وأعظم خطراً من ثم ذكرت في كتابنا كلهباسم«**المنافقون المحترفون**»مع أن لغة الوحي عرّفتهم في الآيات الشريفة من المنافقين إلّا أنها صيّرتهم في نفس الوقت قسيماً

---

(١) سورة التوبة.

للمنافقين في آيات أخرى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢).

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾(٣).

والواقع أن جعل هذه الفئة قسيماً للمنافقين مع أنّها منهم في الصميم مشعر بنكتة نشير إليها هناوهي الإخبار عن عظم نفاقهم وشدته وتميّزهم عن سائر المنافقين بحدة النفاق الذي يدل عليهمرض قلوبهم، وهذا المرض يزداد شدّة كلما تقادم عهده ومرّ عليه الزمن: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٤)!

والواقع أن الباحث في آيات المنافقين من كتاب الله وفي أنواعهم المتفاوتة في القرآن المجيدكله بدقة يتضح له بصورة ملموسة أن أكثر الآيات تعبر عن المنافق العادي في جل الآيات بلفظ»منافقين» ولكنها تسمي المنافقين المحترفين في الأعم الأغلب بلفظ«**الذين في قلوبهم مرض**»،«**الذين يؤذون الله ورسوله**»،«**الذين يحادّون الله ورسوله**»وأمثال هذه الإشارات.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٠.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٠.

إنّنا على يقين من أن آيات «سورة المنافقين» نزلت في المنافقين العاديين، وليس لهاأي ارتباط بفئة المنافقين المحترفين، كما تدل على ذلك سائر الآيات لا سيما الآيتين التاليتين: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١)، وهذه دلالة واضحة وهي موردإتفاق علماء الفريقين من أن الآيات هذه ترتبط بأقوال عبد الله بن أبي سلول الخارجة عن مجال الأدب.

ومعه سائر المنافقين من أهل المدينة وذلك بعد العودة من غزوة بني المصطلق وما لفقوه منأقوال بحق المهاجرين وعلى أية حال

لما خلت السور المكية ما عدا سورة العنكبوت من ذكر المنافقين فلم يجر لهم ذكر في سورةمن هذه السور علم من ذلك أن في تلك الفترة من حياة الإسلام المكية وتنحصر في السنين الثلاثعشرة لم يؤمن أحد من الناس على أساس علة من العلل المبيّنة في البحث المتقدم التي أفرزتالنفاق والمنافقين، فلم يسلم أحد من الناس خشية سقوط مركزه الاجتماعي ولم يسلم أحد منالناس طمعاً في الحطام الدنيوي وحباً بالمال والثروة ولم يسلم أحد من الناس كذلك لبلبلة الأفكاروإشاعة الكفر والزندقة والدس والتحايل على الإسلام لوقف نموّه الطبيعي وتقدمه المطرد، أجل لميكن في هذه الفترة من حياة الإسلام بمكة سوى فئة الذين في قلوبهم مرض من بين فئات النفاق إذ لم تصرح

(١) سورة المنافقين: الآية ٨.

لغة الوحي باسم واحد من هؤلاء.

وخلاصة الحديث: أن أول كلمة جرت على لسان الوحي عن المنافقين بصفة صريحة جاءتفي سورة العنكبوت، وكما بيّنا سلفاً أنَّ سورة العنكبوت لما ارتبطت بآخر مرحلة الثلاث عشرة سنةالتي قضاها الإسلام في مكة علم من ذلك أن قوماً دخلوا الإسلام أخيراً لا إيماناً به أو حباً بمعتقدهولكن رجاءً للوصول إلى مكاسب دنيوية خاصة على أنهم لم ينجوا من أذى المشركين لهم كما يبدوذلك من ظاهر الآية الكريمة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (١)، ومن الواضح أنهذه الجماعة من المنافقين لم يكن إسلامها إلا لنيل الدنيا وطمعاً في حطامها وبناءً على مأربخاص في نفوسها أي أن هذه العدة من المنافقين هم القسم الأول في حساب الأقسام.

أجل إنَّ هذا شأن من الوضوح بمكان أنَّ الآية (١٠) من سورة العنكبوت مرادفة لهذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِخَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٢).

---

(١) سورة المنافقين: الآية ١٠.

(٢) سورة الحج: الآية ١١.

وقد ذكرت بمثابة نموذج لأول الأقسام من علل النفاق الأربع بفارق واحد هو أن آية سورةالعنكبوت لما كانت تتحدث عن إيذاء المشركين لمعلني إسلامهم فقد تحدثت بصورة جليّة عنالمنافقين واختصت بذلك لأن مسلمي المدينة لم يلاقوا من المشركين ما لاقاه مسلمو مكة منهم.

ويقوى الاحتمال حول ظهور فئة المنافقين في مكة من حيث كونه مساوقاً للحديث عن نفوذالإسلام في يثرب (المدينة) وازدياد النفاق كثرة وانتشاراً حين بلغت الناس أنباء قبيلتي الأوسوالخزرج حين اعتنقوا الإسلام وتقدموا بطلب من النبي ليهاجر إلى مدينتهم.

وعلى أية حال، فقد بلغت طلعة الإسلام في فترة بقائه بمكة حداً أنَّ علم كل أحد حتّى عوامالناس بتألقها وسطوعها وبلوغها رائعة القلوب كبلوغ الشمس رائعة النهار وعلموا أن المستقبلالزاهر والعظمة والمجد في انتظار الإسلام،وأنَّ الشوكة والقوة سوف تكونان له وينفرد بالسيادة علىسطح المعمورة وعلى هذا الأساس جرى المنافق العادي وراء الطمع المادي في إيمانه بالإسلام.

وفي الختام ما يجب بيانه:

وهو أنه لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن البحث المتقدم يعني اختصاص الوعيد في مطلعسورة العنكبوت بفئة المنافقين من النمط الأول، كلا فإنه في الآيات الواردة في مطلع السورة شأنهاشأن جميع الآيات التي في معناها من القرآن المجيد يستوي فيها جميع المسلمين من المؤمنينالحقيقيين والفريق«**الذين في قلوبهم مرض**»وسائر

المنافقين العاديين.

بل غرضنا من ذكر ذلك إثبات أن الآيات الأولى من سورة العنكبوت، لا سيما الآيتين منهاالعاشرة والحادية عشرة ذكرت المنافقين العاديين لأوَّل مرّة وقبل هذه السورة لم يجر لهم ذكر فيالمكي من القرآن قط والسبب في ذلك أن المنافقين لم يكن لهم وجود بين المسلمين في فترةالثلاث عشرة سنة اللَّهُمَّ إلا المنافقين من الفئة الرابعة.

إلى هنا ينتهي بنا المطاف في بحث تاريخ المنافقين في السور المكية على وجه التقريبوسوف نعرض فيما يأتي من البحث لتاريخ المنافقين في السور المدنية وهو عمود البحث الفقريوأهمه وأصله وبه يبدأ الموضوع الأهم وإنما كان البحث المتقدم بين يديه كالتمهيد له.

القسم الخامس

مباحث في

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا
إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا
فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ
مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾.

المبحث الأول

البحث العام في آيات سورة البقرة وظهور سؤال حول مصاديق الآيات الثامنة إلى العشرين من السورة نفسها

تعد سورة البقرة أول سورة نزلت في المدينة من بين ثمان وعشرين سورة طبقاً لترتيب النزول المذكور في مقدمة الكتاب، ولما كانت سورة الأنفال تالية بالنزول لسورة البقرة وهي تتناول موضوع غزوة بدر الواقعة في اليوم السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، لا بد من كون سورة البقرة المؤلفة من مائتين وست وثمانين آية اختص نزولها في الشهور الثمانية عشر من دخول النبي إلى المدينة وهي تصور الأوضاع الاجتماعية في هذه المدة في أول عهد الإسلام بالمدينة والأحكام التي شرعت في هذه الفترة.

يختص النصف الأول من السورة أو ما يقل عن النصف في ذم أهل الكتاب لاسيّما اليهود منهم وتمَّ ربط لجاجهم وشراستهم بمطلع تاريخهم القديم وأظهرت الآيات أن هذا العناد الذي يتحلى به اليهود والإصرار على الكفر وجحد الحق يرجع إلى زمن موسى على نبينا وآله (ع).

كما أن النصف الآخر من السورة اختص بالأحكام التي شرّعت للمسلمين خلال السنةوالنصف من أول الهجرة إلى المدينة كتحويل القبلة ووجوب صيام شهر رمضان وتشريع الجهادوالقتال، وغير ذلك.

ويظهر لنا من بحث آيات سورة البقرة بوضوح أنَّ أهم عقبة اعترضت سيرة النبي(ص) فيالأشهر الثمانية عشر من أول الهجرة هم اليهود من ساكني المدينة الذين يعترضون النبي ويثبطونالناس عن الإيمان بدعوته لأنهم يزعمون أن لهم كتاباً سماوياً وأنهم أولى بالدعوة إلى طريق الحقوالتوحيد من محمد(ص).

من ناحية أخرى:إذا لاحظنا آيات سورة البقرة كلها ملاحظة واعية فسنجدهالتخلو من وصف أهل النفاق بهذه الكلمة ومشتقاتها، من قبيل«**منافقين، منافقات، منافقون، نافقوا**»وأمثالها بخلاف السور التالية بالنزول لسورة البقرة حسب ترتيب النزول حيث وصفت فريق النفاقبهذا اللفظ وما اشتق منه.

يستفاد من هذا: أن المنافقين في السنة الأولى للهجرة الذين أسلموا على أثر سبب من أسبابالنفاق العادية من قبيل نيل مكسب مادي أو خشية من تدهور مركزيتهم أو اضمحلال مكانة أسرتهمبين الناس، على أقل تقدير، فإما أنْ لا يكون لهم وجود يذكر في المجتمع الإسلامي الحديث، وإماأنَّهم لقلتهم وذلتهم لا يشكلون خطراً على المجتمع الناشىء الجديد وقد أعرض لسان الوحي عنالتعرض لهم وذكر مساوئهم وأخطارهم على الإسلام.

لأنَّ المسلمين في السنة الأولى للهجرة تتألف جماعتهم من المهاجرين والأنصار وقد سبقإسلام الرؤوس البارزة قبل الهجرة من الأنصار، وهم الذين دعوا النبي للهجرة إلى بلادهم واستقبلوهفيها.

ولما كان الإسلام في تلك الفترة يفتقر إلى القدرة الظاهرة، من هنا لا يتصور إيمان أحد منالناس به عن طريق النفاق، لاسيما العامة والدهماء، فانتفى وجود هؤلاء المنافقين في المجتمعالناشىء حديثاً في المدينة.

نعم لما انقضت برهة من الزمن وبدأت الجماعة الإسلامية بالامتداد والتكاثر شيئاً فشيئاًوقوي أهل الإيمان وظهرت شوكة الإسلام وتجلت للعيان، بدأ النفاق ينجم قرنه ويبدو له وجود فيالمسلمين الجدد، وصار بعض الناس يؤمن بالإسلام على أساس النفاق العادي حتى راحت تتكاثرأعداده.

نعم نجد في الوقت نفسه حين أعرضت لغة الوحي عن ذكر المنافقين العاديين في جميع آياتسورة البقرة لندرة وجودهم يومذاك في المجتمع المسلم، أو أنهم لا وجود لهم من رأس، يحكمبذلك ملاحظة الواقع الخارجي لذلك المجتمع مع هذا نجد لغة الوحي في مفتتح سورة البقرة قسّمتالناس في المجتمع الذي نزلت فيه السورة إلى ثلاثة أقسام وبينت أحوال كل قسم منهم بطائفة منالآيات، اختصت به، ابتدأت السورة أولاً بذكر المتقين من الآية الأولى إلى الخامسة فامتدحتكمالاتهم الشخصية بعد أن أعربت عنها ثم عرضت حال الكافرين في الآيتين السادسة والسابعةوأوضحت خصوصيّاتهم النفسيّة

وعمدت إلى بيان حال المرائين الذين يُعرفون في المجتمع بوجهين،حيث كان ذلك من الآية الثامنة إلى الآية العشرين، وكذلك تعرضت لفضح نواياهم وكشفت عن مزاياهم الأخلاقيةوالنفسية وبالغت السورة في ذمهم وتبكيتهم أكثر من سواهم.

وهنا ينشأ سؤال جديد:

هل كان غرض الآيات الثلاث عشرة من سورة البقرة بيان حال المنافقين العاديين الذيناندسوا في صفوف أهل المدينة؟فإنَّ ملاحظة مجتمع المدينة يومذاك يعرب عن عدم وجود قوم بهذهِ الصفات أو عن ندرة وجودهم أو أنها تريد بيان حال فئة جديدة من المرائين الذين يتظاهرونبالانتماء إلى المسلمين ولكنهم في الحقيقة ليسوا منهم وقد كانوا يومئذٍ يعيشون جنباً إلى جنب مع المسلمين.

ومن أجل الحصول على الجواب الصحيح ينبغي علينا إجراء مقارنة بين الآيات الثلاث عشرةالسالفة وبين آيات«**سورة المنافقين**»(المختصة يقيناً بالمنافقين العاديين وقد مر في صدر الكتابالاستدلال على ذلك) لعلّنا في نهاية ذلك نصل إلى نتيجة مرضية إنْ شاء الله.

من ثم نبدأ بذكر متن الآيات من سورة المنافقين لكي يتسنى لنا عقد هذهِ المقارنة ثم نشرع في بيانها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله
يشهد إن المنافقين لكاذبون (١) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء
ما كانوا يعملون (٢) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٣) وإذا
رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل
صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤) وإذا قيل لهم تعالوا
يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) سواء
عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين
(٦) هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن
السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧) يقولون لئن رجعنا إلى المدينة
ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٨)
يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك
هم الخاسرون (٩) وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب
لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين (١٠) ولن يؤخر الله نفسا
إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١) ﴾ .

عقد المقارنة وإظهار أن مصاديق الآيات الثامنة إلى الآية العشرين من سورة البقرة هم المنافقون المحترفون أنفسهم

أصل المقارنة:

١ ـ هذه الفئة التي تناولتها الآية الثامنة إلى الآية العشرين لا تهتم بشأن رسول الله ولا توليه عنايتها بل اهتمامها منصب على الإيمان بالله وبيوم القيامة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا النهج على خلاف ما درج عليه «**المنافقون العاديون**» الذين جاء ذكرهم في سورة المنافقين الذين دأبوا على إظهار الإيمان برسول الله والشهادة له بالرسالة ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١).

ونجد التفاوت بين الطائفتين كامناً في أن المنافقين العاديين إنما كان إسلامهم طمعاً في دنيا يصيبونها أو مال يحتقبونه أو مركز يصبون إليه أو دفع غائلة متوجهة إليهم أو إلى مكانتهم الشخصية والأسرية من ثم تراهم يولون رسول الله عنايتهم الخاصة لعلمهم أن رضاه يعني وصولهم إلى الغايات التي يتوخونها، وهم على نقيض الفئة الأخرى تماماً لأن هؤلاء يرون رسول الله مثلهم وأنه بمنزلة ساعي البريد الذي يوصل الكتب إلى ذويها، وأن مهمته منحصرة في إبلاغ أوامر الله وربّما اعتقدوا بأن هذه المهمة قد تناط

---

(١) سورة المنافقين: الآية ١.

بغيره فيكون رسول الله آخر، لذلك لم تهتم هذه الفئة برسول اللهوحصرت اهتمامها بالله ودأبت على الحديث عن الاعتقاد به وبيوم القيامة.

فهؤلاء لا يرون رسول الله إلّا رجلاً عادياً اللَّهُمَّ إلّا في تلقي الوحي القرآني أو الأحكامالشرعية النازلة من الله تعالى. أما في غير ذلك فليس لأقواله حرمة إلّا كحرمة أقوال أحدهم ولهذااعتبروا أوامره ونواهيه لا تعدو الاجتهاد كاجتهاد أحد من الناس ولذلك أباحوا لأنفسهم معارضته والاجتهاد في مقابل أوامره ونواهيه وربّما اعتقدوا بصواب أقوالهم دون قوله وتفضيل اجتهادهمعلى اجتهاده ولابدع فطالما حملوا وصاياه على الأغراض الشخصية نظير أي بشر من أوباشالناس فلم يلزموا أنفسهم باتباعها أو قبولها.

٢ ـ إنَّ أبناء هذه الفئة المتحدث عنها ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١) فقد صاحبهم المرض من يوم انتسابهم إلى الإسلام وإظهارهم له وولوجهم فيعرصة المسلمين، ثم زاد هذا المرض بعد اختيارهم الإسلام لكذبهم ودجلهم ونفاقهم وما طبعإيمانهم به من هذه الأوبئة الثلاثة، فقد أذن الله سبحانه بشدة الحالة المرضية في قلوبهم وازديادها لاستمرارهم في العماية وعدم إفاءتهم إلى الحق وهم بهذا يناقضون فئة«**المنافقين العاديين**»لأنَّ هؤلاء طبع الله على قلوبهم لتقلبهم في مراحل الكفر مرحلة إثر مرحلة، وأضلهم سبحانه في بيداءالغواية والجهالة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى

(١) سورة البقرة: الآية ١٠.

قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (١).

أجل إن«لمرض القلب الابتدائي»لهذه الفئة المتحدث عنها، خصوصية بيّنتها الآيات القرآنيةمن البدء إلى الختام وعزتها إلى«المنافقين المحترفين»وفاقوا بهذه الرذيلة الفئات الأخرى منيهود ونصارى ومنافقين عاديين فلم يبلغ مبلغهم منها أحد منهم.

وإذا أبصرنا هذه الآيات التي ورد فيها لفظ«الذين في قلوبهم مرض»فسنعلمحقاً أنّ هذا اللفظ لم يطلق على أية فئة من المشركين أو اليهود أو النصارى أو المنافقين العاديينقط بل أطلق في جميع الموارد على هؤلاء «المحترفين».

٣ ـ إنّ فئة المنافقين المحترفين لا يرون أنفسهم إلا مصلحين مع ما يصدر عنهم من الإفسادفي المجتمع المسلم﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (٢).

خلافاً للمنافقين العاديين فإن هؤلاء لم يزعموا لأنفسهم الإصلاح قط﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٣).

٤ ـ وهذه الفئة المتحدث عنها ترى غيرها من المؤمنين سفهاء وما آمنوا إلا سفهاً، وهموحدهم العقلاء الذين آمنوا على ضوء العقل﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ١١.

(٣) سورة المنافقين الآية ٧.

﴿يَعْلَمُونَ﴾ (١).

خلافاً للمنافقين العاديين الذين لا يرون لإيمانهم مزية على إيمان من عداهم بل يلصقون أنفسهم بالمؤمنين زوراً حتى يتكلفوا الايمان المغلظة ليحسبوهم منهم ويتفيأ ون ظلالهم ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

٥ ـ فئة المنافقين المحترفين المتحدث عنها لهم مخطط خاص وتجمع يحويهم فهم دائبون في السعي لبلوغ مآربهم هم وإخوانهم المجانسون لهم في الشعور والأهداف ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣)، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤)، ويمكن استفادة ما تقدم من هذا الجزء المشع من الآية «**إذا خلوا إلى شياطينهم**» الوارد في الآية ١٤ والجزء المشع «**مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً**» الوارد في الآية (١٧) بوضوح وجلاء تامين، خلافاً للمنافقين العاديين فهم في الأعم الأغلب قوم بؤساء ولا يملكون تجمعاً يحويهم ولا فئة تحميهم وليس لهم مخطط إلا ما لأنفسهم من الرغبات الآنية التي تومض في نفوسهم ثم تختفي لتتجدد وهكذا.

فإذا نظرنا إلى رأسهم عبد الله بن أبي سلول فإنّه قد فضح نفسه

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣.
(٢) سورة المجادلة: الآية ١٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٧.

لعناده المتكرر ولتفرده في الرأي، فقدأنزل بنفسه البلاء المبين في غزوة بني المصطلق حتى كاد يقتل بيد ولده وأقربائه الأدنين، ونزلت«سورة **المنافقون**»في شجبه وتسفيهه ومعه«**المنافقون العاديون**» **﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**(١).

هذا ما بدا لنا من الفوارق بين الآية الثامنة إلى الآية العشرين من سورة البقرة وبين آياتسورة المنافقون مما يدل على أن الآيات الأولى من سورة البقرة ليست مرتبطة بالمنافقين العاديين،أجل إنّ الفئة التي عنتها الآيات الثامنة إلى العشرين من سورة البقرة هم فئة المنافقين المحترفينقطعاً الذين ظهروا مع الإسلام في مبدأ البعثة وأحاطوا بالنبي(ص) من كل جهاته، ودأبوا على اتباعالخيال الطامع الذي ربّوه في رؤوسهم هنا وهناك والآن هاجروا مع النبي أيضاً إلى المدينة، وإنّما قطعنا بأن الآيات الثامنة إلى العشرين مختصة بالمنافقين المحترفين فللأمور التالية:

أولاً: من أول سورة البقرة إلى آخرها لم يرد لفظ:«**المنافقين، المنافقات، المنافقون، نافقوا**»وأمثالها من الألفاظ المشتقة من هذا الجذر.

ثانياً: لاحظنا انعدام فئة المنافقين العاديين في مجتمع المدينة المسلم في أول عهدهم بالهجرة لأنّ هذه الفئة إنما تتقمص الإسلام لسببين اثنين: الخوف أو الطمع وكلاهما مفقود في ذلك المجتمعالضعيف المصادر، والحديث في نشأته ووجوده.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

ثالثاً: تتجلى لنا كيفية الرذائل المذكورة في الآية الثامنة إلى الآية العشرين لهذه الفئة المتأسلمةأعظم وأدهى وأمر من تلك الرذائل المذكورة في سورة«**المنافقون**»التي تختص بالمنافقين العاديين.

من هذه النكات المسلم بها حصل لنا القطع بأنَّ الآية الثامنة إلى الآية العشرين من سورةالبقرة تختص بفئة«**المنافقين المحترفين**»الذين هاجروا مع النبي أيضاً ولم تفصح دراستنا لحدِّ الآن عن ملامحهم، نعم كشف ملامح واحد منهم في المباحث السابقة من الكتاب وهو عثمان بن عفان وسوف يتعرف القارىء على ملامح إخوانه الآخرين إنْ شاء الله تعالى.

وعلى أية حال، فقد ظهر للنظر أن الفئة المشار إليها شرعت جادة في حركتها من أول أيام الهجرة للوثوب على القدرة في المجتمع المسلم الحديث،لأننا نرى القرآن الكريم مع عدم وجودالمنافقين العاديين في المجتمع الجديد شرع في توبيخ قوم وتأنيبهم بشدة وتحذير المسلمين منهم مع أول الآيات نزولاً في المدينة على شكل إشارات وكنايات:

إذن لا ارتباط للآيات الثلاث عشرة من أول سورة البقرة (آيات ٨ إلى ٢٠)بالمنافقين العاديين وإنما تعرضت للخصوصيّات النفسية والأغراض الشخصية لـ«**الذين في قلوبهم مرض**»وكشفت عن حالهم كما لاحظنا كيف أفصحت الآية العاشرة عن مرض قلوبهم **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** كما أنّها تؤكد مضاعفة هذا المرض لهم.

نعم إن هذه الخصوصيّة«**المرض القلبي**»هو المعرف الأصلي لهم والكاشف الحقيقي عن ذواتهم الذي لم يطلق على أحد من المتقمصين للإسلام قط إلا على«**فئة المنافقين المحترفين**»:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ... فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ...﴾ (١).

القسم السادس

بحوث في الايات

من ٢٠٤ – ٢٠٧

من سورة البقرة

بحث في الآيات من ٢٠٤ إلى ٢٠٧ من سورة البقرة

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ ﴾ .

المبحث الأول

بحث الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة والإعراب عن ملامح شخص آخر من فئة المنافقين المحترفين

في الفصل السابق فسرنا قوله تعالى:﴿ وإذا تولّى ﴾بمعنى نيل الحكم والسيطرة والإمارةعلى الناس، لأن هذه الكلمة لا يفهم منها يومذاك غير التأمر والحكم على الناس وتعضدها الجملةالتالية وهي قوله تعالى:﴿ أخذته العزة بالإثم ﴾وتؤدي معنى أن﴿ تولّى ﴾المذكورة هي نفس العزةوالسرور والجذل الذي تلبس المتولي من مقارفته الإثم.

ثم لما وصلت الجملة أخذته العزة بالإثم، الحكومة والجذل بها بالإثم وقيدتها به علم أن هذهالعزّة وهذا الجذل إنما كان على أساس من الهوى النفساني وداعية الشيطان تمكن منه وحصل عليه.

لأنَّ هذا الحكم والجذل به لو كان مقيداً بأمر الله ورضاه وإذن رسول الله وأمره لما قيّده بالإثمقط.

وعلى أية حال، فإنَّ القيود التي ذكرت في الآية الكريمة لقوله تعالى: ﴿إذا تولى﴾ لا تدل إلاعلى معنى الحكم والسلطة الشيطانية كما يدلُّ على ذلك أيضاً الإفساد في الأرض وإهلاك الحرثوالنسل، وهو دليل آخر على ما نذهب إليه، من أنّ هذا الحكم والسلطان آل إلى القوم عن طريق«الإثم»ومن جهة أخرى أن الجمل التالية من قبيل: يعجبك قوله، يشهد الله على ما في قلبه، إذا قيل لهاتق الله، تدل دلالة قاطعة على أنّ صاحبها معدود في المسلمين ومحسوب عليهم وإلّا فلا معنىلإعجاب النبي بظاهر قوله الدال على الخير أو سروره بذلك ولا معنى كذلك لإشهاده الله على سلامةنيّته أو أنّ مسلماً يأمره بتقوى الله في مقابل ما يفعله من العبث والفساد في الأرض.

والدلالة على وجود مصداقه الذي تشمله الآية السالفة إلى جانب النبي هي الآية التالية منقوله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ حيث ذكرها اشقبالَ الآياتَ الثلاث التي سبقتها مما يدل علىٰ وجود مصداقها أيضاً إلى جانب النبي، وهذا يحملناعلى القطع بوجود المصداقين إلى جانب النبي عند نزول سورة البقرة وأنهما يعتبران من المسلمينومن أصحاب النبي كذلك.

فهنا مصداقان: أحدهما في أعلى درجات الكمال ويمثل في صفاته المثلى الإنسان الكاملوالآخر في الصف المقابل له تماماً والمناقض كذلك أي في أحط الدركات وأردأ المستويات.

نعم، بعد أن وجهنا عناية القارىء الكريم منأنَّ سورة البقرةعلى طولها وكثرة آياتها إنما اختصت في الأشهر الثماني عشرة الأولى من الهجرة ونوهنا أيضاً أنَّ ذكراً للمنافقين العاديين لم يجر في الآيات كلها والآيات الثلاث عشرة كذلك اختصت ببيان حالالمنافقين المحترفين ونكر مآربهم وفضح نواياهم وما يبيّتون في نفوسهم من الطمع والكيد.

وبناءً على هذا تجلى للعيان أن الآية ٢٠٤ إلى ٢٠٦ وهما الآيتان المبحوثتان هنا يرتبطبشخص أو نفر معيّن من فئة**«المنافقين المحترفين»**.

وكذلك اتضح لنا أن الآية الشريفة (٢٠٧) اختصت ببيان أكمل مؤمن حواه زمن النبي(ص)وأفضل صحابته.

والآن حين اتضح لنا أن الآيتين (٢٠٤) إلى (٢٠٦) من سورة البقرة اختصتا ببعض الصحابةمن فئة**«المنافقين المحترفين»**ولكنه يسعى ليظهر بمظهر طالبي الخير للإسلام والمسلمين وبغاتهلهما يأتي السؤال الملح من هو هذا الصحابي الذي تنطبق عليه الآيات المعهودة ومن هو مصداقهاالوحيد الذي انفرد بحيازة صفاتها دون غيره.

وللجواب على هذا السؤال نقول:

لا تنطبق الآيات على أحد من الصحابة الذين يصدق عليهم مفهوم الصحبة ولكنهم لم يتسنمواغارب الحكم لأن جملة: إذ تولى تخبرنا عن بلوغه سدة الحكم واستيلائه على دست الإمارة.

وكذلك من المقطوع به أيضاً أنها غير منطبقة على معاوية بن أبي سفيان لأنه:

أولاً: لم يكن قد أسلم آنئذ ولا يعد من أصحاب النبي(ص).

ثانياً: لم يسجل لنا التاريخ من هذا الرجل ـ معاوية بن أبي سفيان ـ عملاً يدلُ على الخير يعجب النبي(ص)بلْ علىالعكس من ذلك ما يزال هو وأبوه وقد أسلما بعد فتح مكة تصل الإسلام منهم هنات وهنات، ومكائد ونفاق، واعتبرهم الإسلام في زمرة المؤلفة قلوبهم . إذنلابدَّ أن ينحصر مصداق الآيتين ٢٠٤ إلى ٢٠٦من سورة البقرة في من يسمون بالخلفاء الراشدين ولكن بناءً على البحث في آيات الولاية الذياستوعب الكتاب كله أن علي بن أبي طالب هو الإنسان الكامل في هذه الأمة ومن الضروري أن لايكون إنسان كهذا مصداقاً لتلكم الآيتين بل لابد من كونه مصداقاً للآية (٢٠٧) التي تقابل مقابلةالضد للضد الآيات الثلاث السابقة عليها.

كما سوف نعلم فيما يأتي من البحث بإذن الله تعالى أن الآية خاصة ببطل«**ليلة الفراش، ليلةالمبيت**»مبيت علي بن أبي طالب(ع) مكان رسول الله وذهاب النبي إلى غار ثور للاستخفاء فيه.

ومن جهة أخرى لما ثبتت في آيات سورة النجم وسورة عبس نفسيّة عثمان بن عفان فيالنفاق بالوحي الإلهي، فلذلك لا يمكن اعتبار الآيتين(٢٠٤) إلى (٢٠٦) من سورة البقرة ناظرتين إلى تعريف عثمان بن عفان الخليفة الثالث، لأنّه بعد تلكالمقدّمات القطعية

فإن قول عثمان بن عفان على فرض ابتغائه الخير لا يمكن أنْ يكون موجباًلإعجاب النبي أبداً.

وبناءً على هذا فإن مصداق الآيتين اللتين يجري الآن بحثهما انحصر في الخليفتين الأولوالثاني، ومن الممكن بعد مقابلة صفاتهما ونفسيّاتهما مع القيود والخصوصيّات المذكورة فيالآيتين السالفتين تعيين هذا المصداق الحقيقي الذي يجري البحث الحثيث عنه.

ملحق البحث المتقدم:

لا يخفى على كل متتبع بصير بتاريخ الإسلام الإدراك جيّداً أن صفات عمر بن الخطابونفسيّاته تطابق القيود والخصوصيات الواردة في الآيات السالفة تطابقاً حقيقياً حذو النعل بالنعللاسيما الخصوصية المعبر عنها بقوله تعالى:«**أخذته العزّة بالإثم**»الحاكية عن غلظة طباعهوشراسته وأنه حوزة خشناء، وهذه الصفات جوهرية في خلق عمر وطباعه وظهورها في شخصهأبين منها في غيره.

أضف إلى ذلك أن كلا الرجلين وإن كانا من الصحابة الذين يظهرون أمام النبي الغيرة علىالإسلام والمسلمين وكلاهما تمكنا من الخلافة وحكما الأمة وكان لكل واحد منهما نصيبه من العزّةبالإثم إلا أن كل هذه الصفات والخصوصيات المذكورة في الآيات ثابتة ثبوتاً كاملاً لعمر ومنصرفةإليه بالتبادر الأولي ولا يمكن أن يكون مصداق الآيات الأصيل مائة بالمائة سواه.

أمّا غلظة طباعه وخشونته في حياة النبي الأعظم(ص) فمشهودة للجميع غير أنه لما كان يظهربطباعه الصعبة وأخلاقه الشرسة بمظهر الخير للإسلام وأهله ويتزيا بزي الغيرة على الإسلام والمسلمين ويتظاهر أمام الناس بإرادة التقدم للإسلام واتباعه لم يكن بمستطاع أحد من الناس كشف نفاقه والإعلان عنه واطلاع سواد الأمة عليه.

إن تاريخ معارضة عمر مع لرسول الله وسائر أصحابه قد سجّلت بصورة جليّة ولكنها ألبست لباس الدفاع عن الحق ورعاية الدين والعمل على رقيّه وعظمته وسوف تطلع في مستقبل البحث على نبذ من هذه المعارك إنْ شاء الله وتراها على حقيقتها.

نعم، إن عمر بن الخطاب هو الذي نهب أموال الناس في خلافته باسم الغنائم وأودعها في المدينة، وقتل سكان تلك الممالك (إيران، مصر، والشام وغيرها) باسم الجهاد في سبيل الله وقضى عليهم وحمل نساءهم وبناتهم أسيرات مكبّلات بالقيود وأباحهن للأعراب المهاجمين باسم «**الجواري**» و«**المملوكات**» وقد كان بحق مصداقاً واضحاً للإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل.

وهو الذي اعتبر الموالي (**الناس من غير العرب**) أذلاء وحرّم عليهم دخول مدينة النبي(ص)، وهو الذي حظر على أصحاب النبي العارفين من أهل العلم والمعرفة الخروج من المدينة واعتقلهم فيها ومنعهم من مغادرتها ما دام على قيد الحياة ولم يأذن لهم بالسياحة في بلاد الإسلام والاحتكاك بالناس ما عدا ثلة قليلة ممن له هوىً فيهم ولهم فيه هوىً فقد أعطى هؤلاء الحريّة المطلقة، وقد كان وكان ...الخ

أجل إنه وحده صاحب هذه الآية:

﴿وَمِنْ النَّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ * وَإذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإذا قِيل لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾.

والآن في هذا البحث نعرض أقوال المفسرين والمحدّثين من أهل العامة فقد ذكروا رواياتتتحدث عن شأن نزول الآية ٢٠٤ إلى ٢٠٦ «سورة البقرة» ونبحثها بحثاً مستفيضاً إن شاء الله.

المبحث الثاني

نقد روايات العامة وتحقيقها حول الآيتين ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة

١ ـ يقول الطبرسي في مجمع البيان تعقيباً على الآيتين ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة:

«قال ابن عباس: نزلت الآيات الثلاثة في المرائي لأنه يظهر خلاف ما يبطن»[١].

ونقول عن هذا الحديث إن قول ابن عباس لا يمكن تطبيقه على ظاهر الآيات، إذ لا تصدق العلامات المذكورة في الآيات على كل مرائي.

٢ ـ وروى جلال الدين السيوطي في ذيل الآية ٢٠٤ من سورة البقرة في «الدر المنثور» مايلي:

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ومن الناس من يعجبك﴾ الآية قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، حليف لبني زهرة أقبل إلى النبي ـ ص ـ [في] المدينة وقال: جئت أريد الإسلام ويعلم الله أني لصادق فأعجب النبي(ص) ذلك

(١) مجمع البيان ج١، ص٣٠٠.

منه، فذلك قوله: **﴿ويشهدالله على ما في قلبه﴾**ثم خرج من عند النبي - ص - فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر فأنزل الله: **﴿وإذا تولى سعى في الأرض﴾** (١) الآية.

ولكن لنا على هذا التفسير ثلاث أمور:

أولاً: في هذا القول أخذ معنى«**تولى**»وجُعل العودة والخروج من عند النبي، ولكن ذلك لاينسجم مع القيود المستعملة في الآيات المبحوث عنها.

ثانياً: إنحصر«**إهلاك الحرث**»بإحراق مزرعة واحدة«**وإهلاك النسل**»بعقر جماعة من الحمر، خطأ بيّن وهو خلاف بلاغة القرآن المعروفة وبياناته الواسعة.

ثالثاَ: في القصة المذكورة لم تصدر موعظة من إنسان بحق الأخنس ولا هو من أصحاب الجاهوليس له سلطان لتأخذه العزّة بالإثم أو يتعالى كبراً فلا يقبل نصح الناصحين ولا وعظ الواعظين.

٣ - وفي نفس الصفحة من الدر المنثور يعود السيوطي فيروي الرواية التالية:

«أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أصيبت السرية التي فيها عاصم ومرثد قال رجال من المنافقين يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا،لا هم قعدوا في أهلهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله: **﴿ومن الناس من**

---

(١) الدر المنثور، ج١، ص٢٣٨.

يعجبك قوله في الحياة الدنيا ﴾، أي لما يظهر من الإسلام بلسانه، ويشهد الله على ما في قلبه أنه مخالف لما يقوله بلسانه وهو ألد الخصام أي ذو جدال إذا كلمك راجعك، وإذا تولى خرج من عندك سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد أي لا يحب عمله ولا يرضى به» (١).

ونقول أزاء هذا الكلام ..حيث ظهر تغيير جذري في سياق العبارة فقد نسب الفعل«يشهد» وهو من المزيد باب «افعال» إلى الافعال المجردة «شهد يشهد» وأخذت كلمة «تولى» من العودة والرجوع، وكلا الأمرين كاف في إسقاط الرواية المذكورة.

وهذا نموذج من الروايات الباطلة التي وضعها «دار ضرب الحديث الملحق بجهاز الخلافة» وفسّر بها الآيتين من ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة وأراد قلب المعنى الواقعي لهما بهذا الوجه الباطل.

إلّا أنّ هذا الأمر يهون بالقياس إلى المشكلة الأصلية وهو الروايات الموضوعة لبيان معنى الآية«٢٠٧» وسوف نعرض لنقدها وتحقيقها بعد العودة إلى شرح معناها.

---

(١) الدر المنثور، ج١، ص٢٣٨، ط دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

المبحث الثالث

توضيح آخر عن الآية "٢٠٧" من سورة البقرة

وإبراز ملامح أكمل صحابي عاصر النبي وعاش معه(ص)

قد تقدم فيما مضى من البحث أن الآية الشريفة﴿وَمِنْ النَّاس مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِاللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَاد ﴾دلّت على المصداق المقابِلَ لمصداقَ الآياتِ الثلاث السابقة عليها منَالآية (٢٠٤) إلى الآية (٢٠٦) من سورة البقرة.

وأنَّ هذين المصداقين تقابلا في نقطتين متضادتين تماماً أحدهما تجلى في أعلى درجات الكمال والآخر هوى إلى أحط دركات النقص والضعة.

وبان لنا أيضاً أنَّ مصاديق الآيات الثلاث السابقة تنسحب على واحد من المنافقين المحترفين أوأكثر من ذلك وقد كانوا من الصحابة المعدودين في زمرتهم وتمكنوا من الوصول إلى الحكم وتسنّمواغاربه، ولما رأينا أن العلامات والإشارات الواردة في الآيات مارة الذكر تطابق صفات عمر بنالخطاب وملكاته النفسية، أكثر من غيره ممن يحتمل انطباقها عليه احتمالاً،علمناأنّه المصداقالأشهر والأجلى وأنه الحقيقي بلْ المتيقن، وانحصرت

الآيات الثلاث بعمر بن الخطاب الخليفةالثاني.

وبناءً على هذا الحساب الدقيق الذي توصلنا به إلى تمييز مصداق الآيات الثلاث في البحثالمتقدم ساغ لنا القول بأن المصداق الأجلى للآية (٢٠٧) الذي يمكن القطع بنسبتهاليقينيةالمتطابقة لواقع الآية الحقيقي مع ذلك الرجل الكامل الذي يعتبر أيضاً في عداد الصحابة، وهو الذي يشرينفسه ابتغاء مرضات الله لينال الدرجات الرفيعة والرتب العالية من الخالق سبحانه.

وكان جُلّ اعتمادنا في معرفة هذه الملامح النيّرة للإنسان الكامل المعاصر لرسول الله(ص)هو ذلك التقابل بين الآية (٢٠٧) المبحوث عنها والآيات الثلاث قبلها أي آية ٢٠٤ إلى ٢٠٦ .

والحقيقة التي لا تقبل الجدل أن هذا التقابل يظهر لنا بوضوح عندما نعمل الفكر بصبر وحياديةفي الآيات نفسها فإنّ الآيات الثلاث السابقة تعيّن مصداقها بالرياء لأنه من المرائين الذينيخادعون الناس ويستغفلون العوام والبسطاء من الناس وفي ما يقابله يأتي المصداق المضاد الذيلم يطهر من دنس الرياء فحسب بل سلم حتى ذهنه وفكره من هذا الخيال المخاتل المبني علىاستغفال العامة وخداعهم.

كما أن الآيات الثلاث السابقة تعرّف مصداقها بأنه حين ينال القوة ويحوز السلطة إلى نفسهوتوطأ له البلاد وتذل له العباد بالحكم المتسلط المستبد لا يعرف من الحكم إلا الإفساد بالأرضوإهلاك الحرث والنسل ولا شيء سواهما، ومن خلال هذا المصداق الجائر نتعرف على المصداقالمضاد الذي ينبغي أن يقف في الجهة

المناقضة والنقطة المضادة تماماً من سابقه وذلك حين ينال الحكم وتثنى له الوسادة، ليس له هم إلا صلاح الأرض وإحياء الحرث والنسل لا ينزع لسواهما ولايريد غيرهما.

كما أن الآيات الثلاث تتحدث عن نوازع مصداقها وعن مقومات شخصيّته من كونها في الحكم لا تتجاوز هوى النفس وداعية الشيطان، ويظهر بهذا الضد ما لضده المقابل له وهو المصداق الذي أغربت عنه الآية اللاحقة من كونه عندما يتسنّم غارب الحكم وينال السيادة على الأمة طاهراً من هوى النفس ولو بمقدار ذرّة وسالماً من الدواعي الدنيوية التي أغرت غيره بالإفساد والإهلاك.

كما أنّ الآيات الثلاث تنص على أن المصداق الذي تنطبق عليه عندما ينال الحكم يتكبّر على النصح وتأخذه العزّة بالإثم لأنه نال هذا الحكم بالإثم فأوجب له التكبر والتعالي وعبادة الذات وحال بينه وبين قبول النصح، وفي مقابله المصداق الآخر الذي ليس مولعاً بقبول النصح ورضاه به فحسب وإنما هو من رواده وحماته والداعين إليه، وما زال يستقبل الناصحين ويصيخ لهم السمع ويفتح لهم القلب، لأنّه يتحلى بقلب حاضر بين يدي الله مقبل على الحق تعالى.

وفي النتيجة أن هذا الوصف للتقابل بين المصداقين يظهر جلياً في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ...﴾ أن هذا المصداق في نعمةٍ العصمةِ الإلهية، وهو في حصنٍ حصين من التأثر في تقلبات الحياة ارتفاعاً وانخفاضاً وفي مأمن من الاستجابة إلى

وسوسة الشيطان ودواعي النفس الأمارة.

ويعتبر وجود هذا الشخص صاحب صفات الكمال المومأ إليها والتي تأبى الانطباق إلا عليه بين الأمة من حيث كونه الإنسان الكامل فيها رحمة من الله وشعبة من لطفه وعطفه على عباده لأنّه مفزع العباد وملجأهم في مقابل الإفساد والخراب الصادرين من مصداق الآيات الثلاث، ويعتبر حامي حمى الفضيلة والأخلاق أما ما يجنيه عليها هذا المصداق المشوّه المحيق بالأمة فيكون هذا الإنسان الكامل بمثاليّاته وزعامته وسياسته المتفقة مع روح العقل والدين هادي الأمة ومرشدها.

ويرشد إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾(٢) !

لذلك نرى أنّه سبحانه وتعالى يمتن على عباده في ختام الآية أن خلق فيهم مثل هذا الإنسان الكامل وجعله بين ظهرانيهم «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**«.

نعم، إن هذا الشخص لابد من أن يكون نور الأمة وضياء عينيها وأملها بعد النبي وملجأ لأهل الإيمان كلهم ويكون لأهل المحبة بعد رسول الله هو مجمع الإنس والجذل. وهو نفسه ذلك الشخص يقيناً الذي قطع الوحي بعصمته في آية التطهير وآية الولاية، وسورة

---

(١) سورة الحج: الآية ١٠.

الإنسان وغيرها من الآيات والسور.

وسيأتي البحث في آية التطهير وآية الولاية وما يتعلق بسورة الإنسان في محلها إنْ شاء الله تعالى.

إنّ ذلك الشخص دونما ريب هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) الذي رهن نفسه في رضا الله وطاعته ومحبته وقايض الله تعالى في حفظ رسول الله(ص) وحراسته للفوز بمرضاته سبحانه ونيل رضاه بنفسه الشريفة التي اعتبرها بضاعة مزجاة يقدمها في هذا السبيل.

نعم هناك نموذج مشرق من تضحياته ومواساته النبي قبل وقوع القتال بينه وبين المشركين في قصة «ليلة الفراش، ليلة المبيت» تلوح للناظر متوهجة بالألق المشع في الفداء والتضحية، وهي مسلمة للجميع سواء منهم أهل السنة والجماعة أو الشيعة الإمامية، وقد ذكرت القصة في أول سورة نزلت بعد الهجرة ولها من المناسبة ما لا تكاد تخفى على أحد.

ونجد بعض الروايات التي اعتمدها العامة خلافاً لما رواه الشيعة باتفاق من نزول الآية في ليلة مبيت الإمام على فراش النبي عند هجرته، مضافاً إلى أنها تجردت من أي ذكر لتلك المنقبة العظيمة فإن رواتها تعمدوا بإصرار سلب علي هذه المنقبة. والآن سوف تجد في الفصل القادم بحثاً حول هذه الروايات لكي تبدو الحقيقة واضحة لذي عينين.

المبحث الرابع

روايات أهل السنة التي تسلب علي (ع) منقبة المبيت على فراش النبي (ص)

ذكر جلال الدين السيوطي في كتابه «الدر المنثور ج ١ ص ٢٣٩ إلى ص ٢٤١» عقيب ذكرالآية ٢٠٧ من سورة البقرة تسع عشرة رواية يمكن بيان حالها في الكلام التالي:

أ ـ روي نزول الآية الشريفة ((**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوفـبالعباد**))في صهيب بن سنان الرومي وفي بعضها ورد ذكرٌ لأبي ذر وعمار وغيرهما وذلك في ثمانيروايات تنحصر بين الأرقام التالية من ١ إلى ٥ ومن ١٠ إلى ١٢.

ونحن نذكر رواية من هذه الروايات على سبيل الانموذج «أخرج الطبراني والحاكم والبيهقيفي الدلائل وابن عساكر عن صهيب قال: لما خرج النبي ـ صلى الله عليه إلى المدينة هممتبالخروج فصدّني فتيان قريش، ثم خرجت فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريداً ليردّوني، فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلوا سبيلي ففعلوا فقلت احفروا تحت أسكفة الباب فإنّ تحتها الأواقي وخرجت حتى قدمت على رسول الله(ص) قباء قبل أن يتحول منها فلما رآني قال: ياأبا

يحيى ربح البيع، ثم تلا هذه الآية» (١).

ب ـ وفي الدر المنثور سبع روايات تنحصر بين الأرقام ١٣ إلى ١٩ وفيها جعل الآية (٢٠٧)في قبال الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٦ وفسّرها بقوله: «اقتتل رجلان، وكان سبب هذا القتال هو عدوان رجل وأمر رجل آخر إياه بالمعروف وهو مؤمن، وذكر في الروايتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرةأن في هذا الاقتتال قتل مؤمن ونحن نذكر سياقاً واحداً منها على سبيل المثال:

«أخرج وكيع والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن المغيرة بن شعبة قال كنا في غزاة فتقدم رجل فقاتل حتى قتل فقالوا ألقى بيده إلى التهلكة فكتب فيه إلى عمر فكتب عمر ليس كما قالوا، هو من الذين قال الله فيهم: ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله» (٢).

د ـ الرواية السادسة من الروايات التسع عشرة المبحوث عنها تشكل رأي قتادة الشخصي فقد ذكر عن الآية أنها نزلت في المهاجرين والأنصار بأجمعهم وبطلان هذا القول أظهر من الشمس،وهذا بحمل الروايات التي ألمحنا إليها توّاً وسوف نذهب الآن إلى تحقيقها بالكامل.

أما ما يخص الروايات الثماني الأولى التي تزعم نزول الآية الشريفة **((ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد))**

---

(١) راجع الدر المنثور، ج١، ص٢٤٠ وأسكفة الباب: أي عتبته. المترجم.
(٢) الدر المنثور، ج١، ص١٤٠ . المترجم.

في صهيب فإننا نقول:

أولاً: في الروايات المذكورة تناقض بيّن من حيث المتن أو أنه تضاد على أقل تقدير.

ففي بعض هذه الرواية أن صهيب قدم مكة من الروم ولا مال له (رقم ١) على أن رواية أخرى تقول: إن صهيباً قدم مكة بمال كثير من الروم (رقم ١٢).

وفي بعض الروايات أن قريشاً منعت صهيباً من الهجرة إلى المدينة (رقم ١ و ٢ و ٥) وفي بعضها الآخر أن أهله منعوه (رقم ٤) وفي بعض الروايات أن الآية نزلت في صهيب وحده (رقم ١١) وفي بعضها الآخر أنها نزلت فيه وفي أبي ذر (رقم ٣ و ٤) وفي بعضها الآخر أيضاً: أنها نزلت فيه وفي عمار وسميّة وياسر وبلال وخباب وعباس مولى حويطب (رقم ١٠) وفي بعضها: أن صهيباً هاجر إلى المدينة وحده (رقم ١١) وفي بعضها الآخر: هاجر ومعه أهله (رقم ١٢).

ثانياً: أنَّ الروايات المذكورة معارضة للآية نفسها المفسرة بها فإنَّ الآية تقول: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ فهي تحكي عن حالة تسمى شراء النفس أي بيعها مرضاة لله، وتشيد بذلك وتمجده، في حين أنَّ الروايات المذكورة بعكسها تماماً لأنها تعطي المال وتشتري النفس كما مر في قصة صهيب وإرشادهم إلى أخذ الذهب في أسكفة الباب، وبناءً على هذا ينبغي أن يكون متن الآية على النحو التالي: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ**

رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ أو بوجه آخر هكذا: ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله وتجد في قاموس القرآن معنى الشراء واضحاً: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ * وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... ﴾ وتجد الغالب في أدب القرآن حين يعقد صفقة بين العبد وربه أن الطرف البائع هو العبد نفسه حيث يبيع نفسه وماله والطرف المشتري هو الله تعالى، كما يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(١).

وليس في بذل المال لشراء النفس أي معنىً قيم لأن هذا الفعل يقوم به أحط الناس قدراً، وبناءً على هذا حين تكون الآيات الثماني المذكورة بغض النظر عن تعارضها فيما بينها مخالفة لمتن الآية نفسها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يثبت بما لا يقبل الجدل أن جميع الروايات مكذوبة وليس لها أصل صحيح وأنها من فئة الروايات الموضوعة التي سكتهادار وضع الحديث من جهاز الخلافة.

أجل وعندما نقرب من واقع «صهيب بن سنان الرومي» نراه من المقربين جداً من حزب الخلفاء خاصة عمر بن الخطاب فكانت بينهما روابط متينة تعرب عن وجود أسرار دفينة وأن صهيباً من أوليائه المخلصين تتجلى لنا حقيقة هذه الموضوعات في الأقوال التالية:

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

يقول الجزري في أسد الغابة عن صهيب بن سنان الرومي: «وكان عمر محبّاً لصهيب، حسن الظن فيه حتى أنه لما ضرب أوصى أن يصلي عليه صهيب وأن يصلي بجماعة المسلمين ثلاثة حتى تتحد أهل الشورى على من يستخلف»(١).

وذكر الآخرون كل بحسبه عن هذه العلاقة بين عمر وصهيب ما يدعمها ويقويها وأن صهيباً أقرب الناس من حزب الخلافة وجهازها.

وعلى أية حال لو أنّ أحداً أمعن النظر بالبحث المتقدّم لعلم أن المصداق الواقعي للآيات ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هو عمر بن الخطاب الخليفة الثاني والآية الشريفة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ كائنة في النقطة المقابلة للآيات المتقدمة، أنها لا تصدق على غير علي بن أبي طالب(ع)، وسوف يعرف السبب في وضع الآيات الثمان المعلن عنها قبلاً وما يؤيدها، والسبب في تأويل الآية ٢٠٧ وهي أعظم منقبة وأجلها وردت في القرآن الكريم في صهيب، صاحب عمر الأثير والوفي لجهاز الحكم يومئذٍ.

ومن الواضح جداً أن الآية «٢٠٧» المؤولة في صهيب طبقاً لنصوص الروايات الثمان الموضوعة، ومؤيداتها وهو رفيق عمر المخلص) أي تطبيقها على رجل ما زال يذرف الدموع على هلاك عمر وكان يتمنى عمر لو صرف الخلافة إليه وناط الحكم به) وأن

---

(١) أسد الغابة، ج٣، ص٣٣، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

هذه الموضوعات وجدت طريقها إلى أذهان الأمة وتمكنت منها على الوجه الأتم.

عند ذاك لا يبقى من يحتمل أن نزول الآيات الثلاث قبلها في عمر بن الخطاب ومن البديهي أن هؤلاء الناس المسحورين بمظاهر السقيفة وقد غُسلت أدمغتهم عن معرفة الحق سوف يؤمنون بسرعة قصوى أنَّ الآيات الثلاث ٢٠٤ إلى ٢٠٦ هي في الأخنس بن شريق حقاً وصدقاً ويتداعى إلى أذهانهم المغسولة قبلاً أن جميع ما يرد على الروايات من إشكال ومؤاخذات في تناول الآيات للأخنس لا أصل لها فلا يلقون إليها بالاً ولا يصيخون لها سمعاً نعم إن جهاز وضع الحديث الراجع إلى دار الخلافة عمل بحذق إلى درجة محيّرة ألجمت نطق كل إنسان.

مثلاً ذكر في الروايات المعتمدة أن علياً(ع) نام على فراش رسول(ص) حين هاجر النبي إلى المدينة فنزلت الآية الشريفة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ بين مكة والمَدينة، وذكَرت الروايات أيضاً: أن النبي أقام في قباءَ حتى شهر ربيع الأول، ولم يدخل المدينة، وقال: لا أدخلها حتى يقدم عليّ ابن عمي علي

لذلك نرى جهاز الوضع الملحق بالخلافة سعى سعيه لينسب هذه الخصوصيات المروية في علي(ع) إلى صهيب بن سنان الرومي.

والحديث الموضوع[١] يقول آخر من هاجر من الصحابة صهيب وبلغ قباء مع علي بن أبيطالب(ع) وما زال النبي هناك لم يدخل المدينة وقبل وصول صهيب قال النبي لأبي بكر: إن اللهأنزل في صهيب آية: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ولما نزل صهيب قباء بشرهأبو بكر بنزول الآية فيه، ومدحه النبي على فعله حيث اشترى نفسه بماله. وهذا ما كان من تهافتالروايات الثمان ووضعها.

ونأتي للروايات الأخرى التي أولوا بها الآية ٢٠٧ ووردت في الدر المنثور لنرى أنّها آراء شخصية ومذاهب فردية متمة لمسيرة الروايات الثمان في مدح صهيب بن سنان الرومي، ويظهر حالها للباحث بقليل من الدقة وإمعان النظر، وكلها تهدف إلى صيانة عمر بن الخطاب عنالذم وصرف الآيات عنه ومحو فضيلة أمير المؤمنين وتقليل شخصيّته، والأعجب من ذلك كله أنهذه الآراء كما ذكرنا قبلاً معزوة إلى شخص عمر بن الخطاب.

خذ مثلاً الروايات السبع التي جعلت الآية ٢٠٧ تقابل الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٦ وأولتها برواية«اقتتل رجلان ...» إنّما أراد واضعها في الواقع أن يحرف الآيات عن مسارها الصحيح ، حيث أنّ الواضعالموما إليه أوّلها بالمعنى المذكور من قتال شخصين أحدهما أمر بالمعروف وأبى الآخر ذلك إنّما أراد إخفاء الصفات المذكورة

---

(١) لا ينبغي للموضوع أنْ يسمّى حديثاً إلا لاعتبار بعض الناس له وإلا فهو مكذوب على رسول الله‘

في الآيات المتقابلة تقابل الأضداد إن لم يكن تقابل النقائض لكي يعفي على الصفات المودعة في هذا التقابل والتي لا مصداق لها أجلى من رجلين هما عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وكل واحد منهما يناقض الآخر أو يضادّه، والغرض من ذلك كله هو محوه من الأذهان ورميه في وادي النسيان.

والذي يدعو المرء إلى التأمل والتدبر أن التأويل برواية «اقتتل رجلان» في الروايات المعهودة تناشىء إما من عمر بن الخطاب أو بإيعاز منه وقبول ورضاً من الخليفة الذي كان يدفع باتجاه منع أحاديث الفضائل لعلي، وفي الوقت نفسه يأذن لأبي هريرة وغيره من الوضاعين الرواية والتحدث، ومن الواضح البيّن أن اقتتالاً كهذا لم يحدث بين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب.

وأما ما يعود إلى الروايات السابعة إلى التاسعة فهو وإن كانت له جنبة تطبيقية ويعتبر المقتول في ساحة الحرب دفاعاً عن الإسلام من مصاديق الآية الشريفة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ ولا إشكال في صحة هذا التطبيق وهذا من خصائص آيات القرآن الكريم، فإنها قابلة للانطباق على مصاديقها كلها بدءاً بالأعلى وختاماً بالأدنى وإن اختص النزول بواحد منها، ولكن لا يمكننا بناءً على قرائن خاصة جعل كل قتيل في ميدان الحرب من مصاديق تلك الآية الشريفة، بل ينبغي إحراز القصد النابع من الفكر الصحيح الحكيم والنيّة الطاهرة والإخلاص السليم المرتكز على الحب لله من قبل القتيل متأطر ذلك كله بأمر رسول الله (ص) والإمام

المفترض الطاعة، وأنه داخل ميدان القتال بعد إحراز هذه المقدمات، واستشهد على ذلك،حتى يصح لنا اعتباره من مصاديق الآية المذكورة.

وفي نفس الوقت يجب أن يعلم أن المصداق الأصلي والواقعي للآية الشريفة﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ليس أحد سوى عَلي بنَ أبي طالب(ع)، ثمكلمة يشري حين جاءت فعلاً مضارعاً لتدل على الحدوث والتجدد والاستمرار والدوام.

وواضح للناس جميعاً أنّ علياً بن أبي طالب(ع) هو الوحيد من أصحاب رسول الله الذي باعنفسه في طاعة الله ورضاه وما فتىء يتقحم المهالك والأخطار المستجدة بشوق ووله وحب لفداءرسول الله(ص) كما أنه حائز على القدح المعلى والنصيب الأوفر من الجهاد الأكبر (جهاد النفس) وليس أحد سواه من بين الأصحاب له هذه الصفات الفاضلة(١).

(١) مما يزيد المسلم حيرة وتعجباً أنّ في الروايات العامية الخاصة بليلة المبيت على الفراش أقوالاً منسوبة إلى رسول الله' أنّه قال لعلي×: نم أنت في فراشي فلن يصل إليك منهم أذىً تخشاه [هذهِ الجملة المقحمة في الرواية المنقولة عن ابن هشام (سيرة ابن هشام ج٢ ص١٢٧) على النحو التالي: فإنّه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم] (سيرة ابن هشام ج٢ ص٣٣٣ ط١٣٨٣ ـ ١٩٦٣م القاهرة مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بمصر. المترجم).
إنّ هؤلاء أرادوا أنْ يمحو بهذهِ الجملة الموضوعة فداء علي وتضحيته وفضيلته ليلة المبيت على الفراش من رأس لأنّ قيمة الفداء والتضحية لا تنظر إلا إذا استشعر علي(ع) من ذلك ضرراً موجهاً إليه أو سوءاً سوف يلاقيه أو احتمل

نعم إنَّ تاريخ الرجلين شاهد حي على هذا المطلب ولم يذكر أحد من المحققين ذلك سواءكان مسلماً أو غير مسلم وعلى أيّة حال: فإنّهوإنْ لم يكن إشكال من ناحية تطبيق معنى الآيةالشريفة على بعض القتلى في ميدان الجهاد إلا أن روايتين منها من أصل ثلاث روايات السابعةوالثامنة والتاسعة جاء القول عن عمر بن الخطاب فإنها تحمل الإنسان على محمل الشك ومن حقهأن يشك، فقد أراد بهذا التطبيق أن يمحو المصداق الواقعي للآية الشريفة﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾الذي هو علي بن أبي طالب، فقد أراد محوه من الأذهان ويعارضالروايات الصحيحة التي تحتفظ بهذا المصداق حيّاً ماثلاً في خاطر الأمة بهذه الروايات الموضوعةليتم له قلب الحقيقة رأساً على عقب حيث يقدم للأمَّة بديلاً عن المصداق الحق بمصداق موضوع باطل لا أصل له استبدله بمصداق علي(ع).

هذا ما كان من أمر الروايات الموضوعة، التي وضعها جهاز وضع الحديث الملحق بجهازالخلافة في تأويل الآيات ٢٠٤ إلى

بلاءاً يحل به على أثر ذلك ولكنه عدما يكون في مأمن من الأخطار وحصن حصين من السوء بوعد رسول الله له فما قيمة تضحيته وفدائه عندئذٍ بمبيته على فراش المصطفى'.

إنَّ هؤلاءِ جهلوا بأنَّ جملتهم الموضوعة تنافي متن الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ﴾ لأنَّ معناها أنَّ كل من بات في فراش النبي ليلة الهجرة فإن نفسه في خطر؛ ولذا يصدق عليه أنّه «يشري نفسه» أمَّا لو كان آمناً مطمئناً فلا معنى لهذا الشراء؛ لأنّه مع احتمال خطر الموت يصح الشراء ومع يقين السلامة والنجاة فما معنى بيعه نفسه من الله ؟! (الحاشية من المؤلف).

٢٠٧ من سورة البقرة ورأينا كيف شارك عمر بن الخطاب ورفيقه المخلص صهيب بن سنان الرومي في هذا الوضع.

نعم إنَّ الإنسان النبيه يدرك جيداً ضلوع عمر وصهيب في أمر تفسير الآيات المذكورة آنفاً وقد مر البحث أن الآيات الثلاث ٢٠٤ إلى ٢٠٦ تخص ذات عمر والتعريف بها والآية ٢٠٧ تقف في الجهة المقابلة تماماً وهي نازلة في علي بن أبي طالب.

إلى هنا عرفنا ملامح شخصين من «المنافقين المحترفين» هما عثمان بن عفان الخليفة الثالث وعمر بن الخطاب الخليفة الثاني، وبالطبع معرفة هذين الوجهين من وجوه النفاق تجر إلى معرفة غيرهما من أصحابهما بسهولة تامة، وبالإمكان التعرف من خلالهما على بقية أصحابهما، وإدراك حقيقتهم على أحسن وجه، وأعظم من هذا كله تبادر حقيقة أبي بكر بن أبي قحافة الخليفة الأول إلى ذهن الباحث.

ولما كان أبو بكر يعرف بين الناس بصاحب الغار وقد نزلت في مدحه آية من كتاب الله تعالى: (وهي الآية الأربعون من سورة التوبة) فناسب ذلك المرور بالآية وبحثها لكي نعرف هل نزلت في مدحه أم ذمه وقدحه.

القسم السابع

بحوث في

الآيات ٣٨ ـ ٤٢

من سورة التوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾.

هانحن ذكرنا أربع آيات اثنتان قبل «آية الغار» واثنتان بعدها، ليعلم السياق الذي نزلت فيه آيةالغار (آية ٤٠ سورة التوبة) ليقف المرء على مفهومها والغاية من نزولها.

إنَّ الآيات المذكورة آنفاً نزلت في «غزوة تبوك» وهي تلوم المسلمين على تثاقلهم من النهوض إلى الحرب وتقرعهم على البطء عن طاعة أمر الله ورسوله تقريعاً شديداً.

المبحث الأول

تحقيق مفاد آية الغار ابتداء (آية ٤٠ من سورة التوبة)

في سياقها من الآيات السابقة واللاحقة ولسانها في التعبير

إذا ما أخذنا معنى آية الغار في سياقها أي منضمة إلى الآيات السابقة عليها واللاحقة بها والتي نزلت معها مرة واحدة سوف ندرك بالقطع واليقين دلالتها على المعنى المقصود الذي لا ينبغي تصور غيره، وذلك: أن الله تعالى بعد ذكره غزوة تبوك وتأنيبه المسلمين وتوبيخه إياهم على تقاعسهم عن النهوض مع نبيهم ونكوصهم على أعقابهم، وتحررهم من لزوم التعبئة في هذه الغزوة أراد أن يوقفهم على واقع الأمر من استغنائه عنهم وإن دعوتهم للجهاد ليست للحاجة إليهم، كلا، لأن الله ناصره وخاذل عدوه فقد سبق منه نصره حين لم يكن في الساحة واحد منهم، فعندما حاصر منزله كفار قريش والطغاة المستبدون، وأرادوا الفتك به وتصفيته، إلى درجة اضطر معها إلى ترك الديار والاستخفاء في الغار ولم يكن معه إلا أبو بكر، وهذا لا غنىً به أبداً فإن الرجل ما إن سمع وقع أقدام العدو على باب الغار وسمع الجلبة وصياح القوم، أظهر الفرق الشديد وصار كلاً على رسول الله (ص)، وما زال النبي يطمئنه ويصبّره ويقول له: لا تحزن إن الله معنا وهو الناصر والمعين. وأنزل الله سكينته على رسوله في هذا الوضع الحرج ونصره بالإمدادات الغيبية وجعل كلمة الذين كفروا - وهم الذين تعاقدوا على قتل رسول الله - هي

السفلى وكلمة الحق في نصره رسول‌الله وإظهار أمره هي العليا. إن ربأ كهذا الرب المتعالي ينصر رسوله وهو العزيز الغالب الذي لا يقهريفعل ما يشاء ولا يضل من هداه.

إذن تكون آية الغار لبيان نصرة الله رسوله وتبيين حمايته إياه من كيد العدو وأنه القادر علىإظهار أمره وكبت عدوه ونجاته من شرهم ورفع منار دينه وخفض ما عداه من الباطل.

وتريد «آية الغار» أن تقول للمسلمين الذين تقاعدوا عن الجهاد في غزوة تبوك وامتنعوا عن‌نصرة رسول الله(ص): أيها البؤساء الأشقياء التعساء، إنكم تهلكون أنفسكم وتحيقون بها بفعلكم هذاالذي أخذتموه لحياتكم﴿يهلكون أنفسهم﴾ولن تضروا الله ولا رسوله ولا دينه بشيء؛ لأنّنا نصرنارسولنا في ساعة هي أشدّ من هذه الساعة وذلك حين هاجر رسول الله من مكة واستخفى في غارثور وبناءً على هذا أن «آية الغار» مع أخذ معناها غير مجرد عن السياق فإنّ الغرض منها إفادة النصرة المخصوصة لرسول الله، هذا كل معناها، ومن تصور غيره من قبيل الإشادة بأبي بكر وبيان رفعة مقامه‌وإظهار علو مرتبته فقد افترى على القرآن وعلى كلام الله وحرّف مفاد الآية الشريفة عن موضعه.

استدلالهم:

وأهم ما يتشبث به القوم من الآية كلمتان عن أبي بكر دلالة قوله تعالى: «ثاني اثنين» و«لصاحبه» ويعد النبي في لغة الوحي الرجل الثاني «ثاني اثنين» أحدهما أبو بكر وهو صاحبه فيالغار.

والتحقيق:

ولكن التحقيق يدلُّ على أنْ صلاح الرجل لا يدلُّ عليه واحدة من هذين الكلمتين لأنَّ رسولالله يعتبر ثاني اثنين لكل من يصاحبه أو يماشيه أو يجالسه.

كما أنَّ أي شخص يكون معه في الغار يعتبر صاحبه.

فلنفترض أن عناية القوم بلفظ «صاحب» في الأعم الأغلب من كونه مع النبي في الغار وهوصاحبه في كل مكان ولكن هل تدلُّ كلمة «صاحب» على صلاح من وصف بها أو عدم صلاحه؟!

وهذا القرآن سمعناه يقول في الآيات (٣٢ إلى ٤٤) سورة الكهف عن المؤمن والكافرالذين تلاحيا فقد سمّى أحدهما صاحباً للآخر، قال جلت عظمته:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾، ثم هاهي الآيات حين تعاتبالمشركين أو تحاسبهم بشأن رسول الله تسميه صاحباً لهم، كقوله تعالى:﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَاغَوَى﴾(١)، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٢).

وهذا نبي الله يوسف يخاطب السجينين الذين سجنا معه وأرادا منه تفسيراً لرؤياهما خاطبهمابقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾.

إذنْ، مجرد كون المرء صاحباً في منطق القرآن لا دلالة فيه

---

(١) سورة النجم: الآية ٢.

(٢) سورة التكوير: الآية ٢١.

على حسن ولا قبح، وليس بعيداً أنْ يكون المشرك أو الكافر صاحباً لرسول الله(ص) أو صاحباً لآخر مؤمن.

ومن أجل زيادة يقين القارئ ومعرفته بشكل جيد منكون الصحبة لا تدلُّ علىالقدر المعنوي والسلامة الباطنية، أرى من الأفضل التدقيق في الآية ٢٩ من سورة الفتح، فقد جاءفيها:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَفَضلاً مِنْ اللهِ وَرِضوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِيالإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَاللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرَا عَظِيما ﴾(١).

نلاحظ جيداً:

أنّ الآية لما حكت تعبير التوراة والإنجيل عنهم جاءت بقيد في آخر الآية ومفاده: أن بلوغ كلواحد من هؤلاء المغفرة الإلهية والأجر العظيم الأخروي مشروط بأمرين:

الأول: إيمانهم الواقعي.

والثاني: أعمالهم الصالحة ليست الصحبة سبيلاً من سبل النجاة فمن كان صاحباً كتبت له النجاة علىكل حال دونما نظر في واقع حاله.

وهنا ظهر جلياً أن لا امتياز لأبي بكر في هاتين الكلمتين «ثاني اثنين» و«صاحبه».

والآن لننظر للشرطين الذين ذكرتهما الآية (٢٩) من سورة الفتح لنجاة أصحاب النبي لكل فرد منهم «الإيمان الواقعي المستمر» و «العمل الصالح الدائم» هل هما ثابتان لأبي بكر، أو يصدقان على شخصه، لننظر في المسألة.

المبحث الثاني

تحقيق مفاد آية الغار الأخير ومقابلتها بسائر الآيات

الوارد فيها لفظ "نزول سكينة الله"

وظهور وجه آخر منوجوه المنافقين المحترفين

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ... فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

بيَّن الله تعالى في آية الغار أسباب نصرة رسول الله(ص) فجلعها عبارة عن إنزال السكينةومعها التأييد بجنود لم تروها وإذلال الكفار له، وفي آيتين من هذه السورة نفسها (التوبة) آية ٢٥ و٢٦ أي قبل آية الغار بأربع عشرة آية جمع وسيلة النصر للنبي والمؤمنين بهما، فإنه يقول سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

وهنا نلاحظ عندما يذكرهم الله تعالى بنصره في غزوة حنين يبشرهم بإنزال السكينة (الملازمة للإمدادات الغيبية والآثار

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٥ ـ ٢٦.

الخارجيّة) على رسوله وعلى المؤمنين على حد سواء، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ونفس العناية الربانيّة في إنزال السكينة على رسول الله وعلى المؤمنين في صلح الحديبيّة الآية ٢٦ سورة الفتح، تتكرر ويمتن بها الله على عباده:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(١).

حيث نشاهد الواقع رأي العين، ففي كل موضع يكون المؤمنون مع النبي فإنَّ القرآن ولغة الوحي حين تبشرهم بإنزال السكينة وسائر الإمدادات الغيبية الملازمة لها يشرك المؤمنين مع النبي فيها، خلا أنَّ الأمر في آية الغار اختلف اختلافاً بيّناً ذلك أن السكينة اختصت بالنبي وحده فلم يشرك معه أبا بكر قط.

لماذا؟!

لسنا الآن بصدد معرفة المعنى الواقعي لسكينة الله، على أن معناها لا دخل له جوهري بموضوعنا ولكننا نتساءل لماذا جعل الله السكينة لواحد من اثنين كان كلاهما في الغار فاختص بها رسول الله وحده وحرم منها صاحبه ولم تجر العادة بذلك فقد يشرك المؤمنين مع النبي بالسكينة لماذا؟ وما معنى ذلك؟

هل نسى اللهـ سبحانه عما يصفون ـ صلح الحديبيّة حين أخبر

---

(١) سورة الفتوح: الآية ٢٦.

عنه في سورة الفتح وأنزل البشارة على رسولهبالسكينة وأشرك معه المؤمنين؟! أو أنه والعياذ بالله غاب عنه ما ذكره في سورة التوبة نفسها بأربع عشرة آية قبل آية الغار حين ذكر نصرة نبيّه وإعانته في غزوة حنين وفيها أنزل السكينة على رسولهوعلى المؤمنين؟!

وفي الموضوع مسألة مهمةلابدَّ من بيانها والتعرض لحالها وهي: أنّ صاحب الغار لو كان قدْ تحلى بحلية الإيمان الواقعي لكان الله تعالى رعى جانبه وحفظ له حقه وكان الأحرى برب العزةسبحانه أن ينعم على عبده أبي بكر بالسكينة كما أنعم بها على رسوله وعلى المؤمنين الكائنين معهويبشره بنزولها عليه كما بشّرهم بنزولها عليهم ولكن الله سبحانه يعلم السرائر والبواطن وخفياتالأمور عند كل أحد:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وعلى أية حال فإن آية الغار ـ طبقاً لما يمكن فهمه من آيات القرآن منضمّة إلى بعضها البعض ـ تدل دلالة قاطعة على نفي الإيمان الواقعي من أبي بكر، ولا ريب في ذلك.

إذْ كيف يمكن لمن يفضل الأصحاب الحقيقيين لرسول الله(ص) كلهم وهو كما يزعمون صدّيقهذه الأمة، ويحرمه الله من حقه ويضيعه عليه.

ما المانع على الله أن يأتي بعبارة فأنزل الله سكينته عليه وعلى صاحبه مكان فأنزل اللهسكينته عليه، أو يقول فأنزل الله سكينته على

---

(١) سورة النحل: الآية ٧٤.

رسوله وعلى صاحبه أو أنه يقول: فأنزل الله سكينتهعليهما.

ومن الواضح أن التعبير بواحدة من الجمل الثلاث يكون حق أبي بكر مرعياً، كالآية التي نزلتفي صلح الحديبية والآية التي نزلت في غزوة حنين وروعي فيهما حق المؤمنين المجاهدين معرسول الله(ص) والملازمين لركابه.

من جهة أخرى أن آية الغار نزلت مع الآيات النازلة في غزوة تبوك أي في السنة التاسعةللهجرة وهي مختصة بالفصل الأخير من حياة النبي(ص) ومن هنا ندرك أن عدم إيمان أبي بكر امتدإلى أواخر عمر النبي(ص) وشهد بذلك الوحي السماوي.

ولذلك نجد جهاز وضع الحديث الملحق بقيادة الخلافة انشغل هنا بوضع الأحاديث أكثر منأيّ مكان آخر فندرك من هذه المسألة أن آية الغار لم تكن بذات أهميّة عند أهل النباهة منالأصحاب والتابعين لشخص أبي بكر، لذلك بذل جهاز الوضع جهداً مضاعفاً وأكثروا من وضع الأحاديث في شأن أبي بكر ليحول بين محاولة إعطاء الحصانة والشأنية لأبي بكر وبين محاولة الانتباه إلى مفاد آية الغار الواقعي الذي لا يشير إلّا إلى وجود مشكلة في إيمان أبي بكر، وأنَّ مصاحبته للنبي(ص) لا تعد منقبة وفضيلة بقدر ما هي إظهاراً لحقيقة أبي بكر التي من خلالها اتضح الأمر وبانت محاولات التحويل.

المبحث الثالث
نقد الروايات العامية عن آية الغار وتحقيقها

ذكر السيوطي في كتابه «الدر المنثور» ج ٣ ص ٢٣٩ و ص ٢٤٦ هذه الروايات المروية فيآية الغار التي تنيف على الخمسين رواية وأكثرها متضادة في متونها والرواية التي يثبتها بعضهميروي غيرها سواه، مضافاً إلى هذا أن مدح أبي بكر ملازم لثلثي هذه الروايات إما صراحة وإمابالملازمة وتدلُّ الروايات على أنَّ آية الغار إنَّما نزلت في مدح أبي بكر وبالنظر إلى مضامينها فإنعدداً لا يستهان به منها مبني على الخرافة بحيث يدرك أي عاقل كذبها ابتداءاً.

وننقل هذه الرواية عن عمر بن الخطاب المذكورة في ص ٢٤١ على سبيل المثال لا الحصر:

«أخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ضبّة بن محسن العبري قال: قلت لعمر بنالخطاب أنت خير من أبي بكر فبكى وقال: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر هل لك أنَّ أحدثك بليلته ويومه؟ قال: قلت نعم يا أمير المؤمنين، قال أما ليلته، فلما خرج رسول الله(ص) هارباًمن مكة خرج ليلاً فتبعه أبو بكر - ﷺ - فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه ومرّة عن يمينه ومرّةعن يساره فقال رسول الله - ﷺ - ما هذا يا أبا بكر، ما أعرف هذا من فعلك؟! قال: يا رسول الله أذكرالرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك

ومرّة عن يمينك ومرّة عن يسارك لا آمن عليك،قال: فمشى رسول الله - ﷺ - ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت رجلاه فلما رآه أبو بكر - ؓ - أنها قد حفيت حمله على كاهله وجعل يشد به حتى أتى فم الغار، فأنزله ثم قال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك فدخل فلم ير شيئاً فحمله فأدخله وكان في الغار خرق فيه حيّات وأفاعي، فخشي أبو بكر - ؓ - أن يخرج منهن شيء يؤذي رسول الله - ﷺ - فألقمه قدمه فجلعن يضربنه وتلسعه الأفاعي والحيّات وجعلت دموعه تتحدر، ورسول الله - ﷺ - يقول له: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته أي طمأنينته لأبي بكر، فهذه ليلته وأما يومه...».

إنَّ رواية عمر بن الخطاب بهذهِ الطريقة في مناقب أبي بكر تشير إلى ما يلي:

كان النبي وأبو بكر يهربان في تلك الليلة باتجاه الغار والنبي يمشي على أطراف أصابعه حتىحفيت رجلاه وحينئذٍ حمله أبو بكر على كاهله ومشى يركض به خوفاً من العدو حتى بلغا فم الغارثم دخله أبو بكر ووضع قدمه في الخرق ذي الحيّات لئلا تخرج وتؤذي رسول الله(ص) فجعلنيضربنه ويلسعنه وجعلت دموعه تتحادر وهنا قال له النبي: لا تحزن يا أبا بكر إن الله معنا هذا ما كانمن رواية عمر بن الخطاب.

وأما رواية أنس ففي ص ٢٤٥ جاء فيها ما يلي:

«أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري عن أنس قال: أقبل

النبي - ص - إلى المدينة وهويردف أبا بكر - ﷺ - وهو شيخ يعرف والنبي لا يعرف فكانوا يقولون يا أبا بكر من هذا الغلام بين يديك؟ فيقول: هادٍ يهديني السبيل ...» (١).

وهذا مضحك جداً أن يكون أبو بكر شيخاً يعرف والنبي غلام لا يعرف والناس يسألونه من هذا الغلام؟ أنّها سخرية الرواة واستهانتهم بمقام النبي(ص).

وفي إحدى الروايات وهي أطول روايات الباب وهي منكورة في ص٢٤٣ من الدر المنثورو فيها بذلت عائشة وسعها تشيد بأبيها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وترفع قدر بيتها ففي هذه الروايةحصرت علاقة النبي بأبيها وبيتها يومذاك أنّها تقول: كان رسول اللهﷺ لا يفارق بيتنا في صباحولا مساء ونحن في مكة وكان أبي يرغب في الهجرة عاجلاً إلى المدينة والنبي يقول له: صبراً يا أبابكر لعلّالله يأذن لنا فأرافقك فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله لصحبته وعلف راحلتين كانتاعنده ورق السمر أربعة أشهر فخرج النبي إلى الغار من بيتنا بعد أن هيأنا له زاد السفر وكان أخي عبدالله بن أبي بكر وغلامنا عامر بن فهيرة يغدوان عليه وهو في الغار... (٢).

ونلاحظ هنا كيف تشيد عائشة في هذه الرواية كغيرها من

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ج٧ ص٤٤٧؛ كنز العمال ج٧، ص٢٧٠؛ مسند أحمد ج٣، ص٢١١؛ صحيح البخاري، ج٤، ص٢٦٠. المترجم.

(٢) أخذ المؤلف خلاصة الرواية فلم نجد بدّاً من سردها وهي موجودة بطولها عن عائشة في «الدر المنثور» ج٣ ص٢٤٤ فارجع إليها إنْ شئت وستجد بعضها يكذب بعضها.

الروايات بأبيها وأهلها وتتجنبما يعود على أبيها بالخسر نظير الحزن والغم وأبو بكر في الغار وتجنب السكينة أن تنزل عليه ... فقدأطبقت فمها عن هذا كله، بل لم تذكر في هذه الرواية الطويلة تضحيات علي بن أبي طالبفي ليلة المبيت على الفراش، ولم يجر للتعب الذي تجرعه علي عليه من تهيئة الزاد والراحلة للنبيوأبيها أيّ ذكر على لسانها وقد ورد ذلك كله في روايات العامة، وعبارة «فلرافقك»توحي إلى أنَّ النبي هو الذي خرج ليرافق أبي بكر في هجرته يا للسخرية.

وفي طائفة من هذه الروايات ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٣١ استدلوا بآية الغار على أن الله لام الناسبأجمعهم إلّا أبا بكر فلم يوبخه ولا لامه.

نذكر على سبيل المثال الرواية رقم ٣١ الواردة في أول الصفحة ٢٤٣:

«أخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: والذي لا إله غيره لقد عوتب أصحاب محمد(ص) فينصرته إلّا أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فإن الله تعالى قال: إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذينكفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار خرج أبو بكر والله من المعتبة».

وفي روايات أخرى جاءت العبارات التالية: «لقد عوتب أصحاب محمد» «عاتب اللهالمسلمين جميعاً» و «عاتب الله جميع أهل الأرض» و «ذم الناس كلهم».

ونقول تعقيباً على هذه الروايات:

أولاً: جاء في هذه الروايات أن الله عاتب جميع أصحاب محمد على عدم نصرته واستثنى أبابكر من العتاب، لأنَّ الغرض من هذا العتاب هو الوارد في آيتين قبل آية الغار، وهما قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ* إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾وَلفظ «ألا تنصروه» المذكورفي آية الغار يشير إلىَ هذا المعنى.

وليس من نافلة القول:إنَّ هذا الذم لا ينسحب إلا على عدد من المؤمنين والمنافقين الذيننكصوا على أعقابهم في غزوة تبوك وتثاقلوا عن الخروج، وإلا فلا يشمل الذم أولئك الذين سارعوابالاستجابة لأوامر النبي(ص) وخرجوا من المدينة إلى حرب تبوك سراعاً فهؤلاء بمعزل عن الذموالتوبيخ فلا يشملهم أبداً.

إذنْ فقول القائل: لقد عوتب أصحاب محمد بأجمعهم باطل من القول، ومناقض للحقيقة.

ثانياً: إن ما قيل في الروايات السابقة: إن أبا بكر وحده نصر النبي دون باقي الأصحابـواستدل بآية الغار مرّ جوابها في البحث المتقدم.

فقد قلنا هناك: لا يظهر معنى آية الغار إلا إذا جعلناها في سياق الآيات التي سبقتها أو تلتها،ومن أجل إثبات ذلك نعود إلى المعنى

فنقول: يقول الله تعالى: يا معاشر المسلمين إن تباطأكم وتثاقلكم عن الخروج مع النبي وعدم نصرته لا يضره شيئاً لأنّ الله ناصره ومعينه كما نصره الله يوم لم يكن معه إلّا شخص واحد، أو كان هذا الشخص من خوفه من العدو يظهر الفزع والجزع، وقد أحاط العدو العنيد به ولكن الله نصره على عدوه ولا يعجز الآن عن نصره.

وبناءً على هذا لا يرتبط معنى الآية بنصرة أبي بكر للنبي لتُجعل دليلاً على ذلك.

ثالثاً: اتضح في البحث القرآني المتقدم أن آية الغار لم تكن خالية من مدح أبي بكر فحسب وإنَّما نزلت في ذمه لأن التحقيق في قوله تعالى:«**لا تحزن**»يثبت أن الرجل جازع مما يجري من الحوادث في الغار ويؤدي ذلك إلى ثبوت عدم إيمانه بالنبي وبعصمة الله له أيضاً، وإلى آخر مدى.

في الطائفة الثانية من الروايات (٤٦ ـ ٤٥ ـ ١١ و ٤٧) ورد صراحة أن السكينة المذكورة في آية الغار نزلت على أبي بكر.

ونحن نسوق الرواية ٤٥ الواردة في ص ٢٤٥ على نحو المثال لا الحصر وإليكها:

«أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تاريخه، عن ابن عباس في قوله: فأنزل الله سكينته عليه قال على أبي بكر - ﷺ - لأنّ النبي - ﷺ - لم تزل السكينة معه».

ونقول تعقيباً على هذه الطائفة من الروايات:

أولاً: كما قلنا آنفاً في البحث القرآني وسبقت الإشارة إليه، أنّ آية الغار لما نزلت لبيان نصرة اللهنبيه على عدوّه كان من الضروري عودة الضمائر المختصة بنصرة الله وإعانته نبيه فلابدَّ أنْ ترجع على رسول اللهنفسه(ص) وإلّا فكيف تعود الضمائر كلها ما بين ظاهرها ومضمرها المذكورة قبل جملة«**فأنزل اللهسكينته عليه**»المختصة بالنصرة على رسول الله(ص) وفي هذه الأثناء يشذّ الضمير الوارد فيالجملة المذكورة عن باقي الضمائر وهي الإشارة الحقيقية للنصرة على غير رسول الله(ص).

ثانياً: عمد القوم إلى هذه الروايات المذكورة من أجل إثبات نظريتهم في انصراف السكينة إلىأبي بكر فالتمسوا لها وجهاً ليس له نسبة في الحق إنما هو باطل من القول وذلك حين زعموا:«**لأنَّ النبي لم تزل السكينة معه**»وهو استدلال زائغ لأننا نرى السكينة في غزوة حنين نزلت على رسولالله وعلى المؤمنين معاً مع أن النبي هنا لم تفارقه السكينة كما كان في الغار.

في الطائفة التالية من الروايات التي يجري البحث فيها وهي (الروايات: ١٦، ١٧، ١٨، ٣٥، ٣٦) وهنا تزعم هذه الروايات أن النبي يفخر بصاحبه في الغار، ونحن نذكر رواية واحدة منها علىنحو المثال:

أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير أن النبي(ص) قال: لو اتخذت خليلاً غير ربيلاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخي وصاحبي

في الغار.

وفي هذه الطائفة تجاوزت مناقب أبي بكر منقبة الصحبة في الغار فنسبت إليه منقبة أخرى،وهي إخوة رسول الله(ص) فأصبح أخاه أيضاً.

ونعقب على هذه الروايات بقولنا:

أمّا منقبة الغار وصحبته النبي فيها فلا تعد منقبة وقد مرَّ آنفاً بيان ذلك وليس فيها أي فضيلةلأبي بكر.

وعن الفضيلة الأخرى المذكورة في مثل هذه الروايات ـ مثل الخلة والأخوة ـ لما قارنت منقبة الغار أثارت فيالنفس الهواجس والشكوك مضافاً إلى ما يراه المحقق في تحقيقه من نسبة هذه الفضائل إلى علي(ع) ويرويها الطائفتان يزداد إيغالاً في الشك وسوء الظن، لأنَّ إخوة علي للنبي في مسألة المؤاخاةبين المهاجرين والأنصار ضرورة تاريخية لا يمكن لأحد إنكارها أو التشكيك فيها.

وهذا ما كان من أمر الروايات العامية في الصفحات ٢٣٩ إلى ٢٤٦ من الجزء الثالث من الدرالمنثور ومن بين الروايات الخمسين المذكورة في الكتاب تكون الرواية التالية أجمعها وفي نفسالوقت أسلمها بالقياس إلى سائرها وهي منسجمة إلى حد ما مع مضمون آية الغار، وقد ذكرهاالسيوطي في الصفحة ٢٤٠ ونسوقها الآن كما وردت:

«أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال:

لما خرج رسول الله - ﷺ - من الليل لحق بغار ثور، قال وتبعه أبو بكر - ﷺ - فلما سمع رسول الله - ﷺ - حسه خلفه خاف أنْ يكون الطلب فلما رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلما سمع ذلك رسول الله عرفه فقام له حتى تبعه فأتيا الغار.

فأصبحت قريش في طلبه، فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتى انتهى إلى الغار، وعلى بابه شجرة فبال في أصلها القائف ثم قال: ما جاز صاحبكم الذي تطلبون هذا المكان، قال فعند ذلك حزن أبو بكر فقال له رسول الله لا تحزن إن الله معنا.

قال: فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة وعلي يجهزهم، فاشترى ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهم دليلاً فلما كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم علي بالإبل والدليل فركب رسول الله - ﷺ - راحلته وركب أبو بكر أخرى فتوجّهوا نحو المدينة وقد بعثت قريش في طلبه».

هذه الرواية مع أنها لم تتعرض لذكر نزول السكينة إلّا أنها في نفس الوقت أسلم الروايات العامية المبحوث عنها لأنها تعبر عن معنى الآية تماماً فلم تذكر إلّا النصرة والعون من الله لنبيه المصطفى(ص) ولم تتضمن معنى آخر يتنافر مع مضمون الآية الشريفة وليس فيها أقل انحراف عن مؤدّاها.

فمثلاً: هذه الرواية بخلاف الروايات الأخرى التي جهد رواتها جهداً شديداً في شرح واقعة الغار إلى توجيه شيء من المعنى إلى أبي بكر وأهل بيته فلم تذهب هذه الروايات مذهب نظيراتها ولو بالحد

الأدنى.

لكن الملاحظ في هذه الرواية أن لقاء أبي بكر برسول الله في الطريق حيث تبع النبي مسرعاًحتى وصل إليه وليس فيها ولم تذكر دعوة النبي له قبل الهجرة ولا إعداده لذلك أو إخباره عنهاوطلب الصحبة منه، وأمره بالمقام في مكة حتى يحين موعد الهجرة وقد ذكر آخرون أيضاً أن أبا بكرذهب مع رسول الله(ص) ولم يأخذه النبي معه (والفرق واضح بين الحالين) من جهة أخرى.

من جهة أخرى ليس في الرواية ما روته عائشة واقتصر عليها وحدها(١) من أنّ أبا بكر أعدّللهجرة قبل وقوعها راحلتين له ولرسول الله(ص) وكان يعلفهما ورق السمر وأن أهله وحدهم كانوايبعثون بالطعام إلى رسول الله(ص).

إنَّ التحقيق التاريخي يشهد علىأنَّ الأعمال كلها كانت تتم على يد أمير المؤمنين(ع) ولم يكن أبو بكر وأهل بيتهعلى علم بشيء منها.

إلى هنا ننهى بحث الروايات، وكان الإطناب متعمداً من أجل إيضاح الواقع للقارىء ليعلم أنَّ جهاز وضع الحديث الملحق بجهاز الخلافة كم هو حاذق في الوضع وماهر في صياغة الكذبالملائم لمجرى الأحداث وإلى أيّ حد بذل أعضاء الخلافة جهدهم في تحريف معاني آيات القرآنلتماشي مزاج الحاكم المستبد.

---

(١) تجد روايات عائشة عن واقعة الغار مذكورة في السيرة النبوية، ج٢ ص١٢٨؛ وصحيح البخاري، ج٢، باب هجرة النبي إلى المدينة تاريخ الطبري، ج٢، ص١٠١؛ الدر المنثور، ج٣، ص٢٤٣.

القسم الثامن

بحوث في سورة الأنفال

والكلام عن غزوة بدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنْ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وسورة الأنفال تعتبر السورة الثانية حسب النزول في المدينة، تذكر غزوة بدر وما تابعها، ولماكانت الغزوة في شهر رمضان السنة الثانية فتكون السورة قد نزلت في ذلك الأوان من تاريخ‌الإسلام.

واهتم الحزب الحاكم بحرب بدر اهتماماً بالغاً وميّز المشاركين فيها عن غيرهم لأنها أول‌حروب الإسلام مع المشركين حتى أن عمر بن الخطاب فضلهم بالعطاء على سائر المسلمين [لكنّ‌علياً بن أبي طالب(ع) ساواهم بالمسلمين في عهده حتى عارضه كبارهم واحتجوا عليه] واعتبرت‌الرواية الإسلامية عدد أصحاب بدر من الأعداد المقدسة بل نال من القداسة في هذه الروايات مانالة عدد أصحاب طالوت في الغابرين وأصحاب المهدي في القادمين!

بينما نجد الآية تصف أصحاب طالوت: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ (١) فأخبرت‌الآية عن إيمانهم كلهم وكذلك من المسلم به في المذهب أنّ أصحاب المهدي جميعاً من المؤمنين‌الممتازين.

ولكننا في نفس الوقت نجد لغة الوحي تصرح بوجود المنافقين بين أصحاب بدر «من‌العاديين والذين في قلوبهم مرض» «المنافقون المحترفون».

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٩.

وعلى أية حال سوف نبادر الآن في بحث الآيات التي تقدمت آنفاً وأكثرها تخص غزوة بدر،حتى تتهيأ الأرضيّة للبحوث القادمة.

المبحث الأول

بحث آياتٍ من سورة الأنفال التي تنص على وجود منافقين محترفين ومنافقين عاديين في غزوة بدر وتمييز خصائصهم الظاهرة في تلك الغزوة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يظهر من الآية الشريفة وقوع الاختلاف الشديد بين المقاتلين في غزوة بدر حول غنائمها.

واعتبرت كل طائفة نفسها أحق بها من غيرها حتى نزلت الآية الشريفة السالفة وسلبت اختيارها من أيديهم بأجمعهم.

يقول السيوطي في الدر المنثور تعقيباً على الآية الأولى من سورة الأنفال (ج ٣ ص ١٥٩) ويروي الرواية على النحو التالي:

«أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله(ص) فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله العدو فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون، وأكبّت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول

الله(ص) لا يصيب العدو منه غرّة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم وقال الذين أحدقوا برسول الله(ص): لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله - ﷺ - وخفنا أن يصيب العدو منه غرّة واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسّمها رسول الله(ص) بين المسلمين».

وبنفس المضمون جاءت رواية ابن هشام «في السيرة النبوية» (ج ٢ ص ٢٩٥) والطبري في «تاريخ الرسل والملوك» ج ٢ ص ١٥٧ والواقدي في «كتاب المغازي» ج ١ ص ١٣١ .

وإذا تجاوز النقد الذي يمكن أن يتناول الجملة «وأحدقت طائفة برسول الله لا يصيب العدومنه غرة» فإننا نلاحظ كيف تصف الآية سالفة الذكر العراك الدائر بين المقاتلين والنزاع على متاع تافه من حطام الدنيا وبتعبير إحدى الروايات: أن النزاع اشتد بينهم وأخذ يكيل أحدهم للآخر الشتائم وبلغت بهم الحالة حدّاً أن توسطهم الوحي وحسم مادة الخلاف حين سلبهم الاختيار في الغنائم:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

ندرك بجلاء من لغة الوحي في الجملتين: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا

ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ و﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المذكورتين في الآية الأولى من السورة وما جاء بعدها من الثلاث آياتفي تعريف المؤمن الواقعي، فهي تريد أن تخبر الطائفة التي أحدثت النزاع في غزوة بدر على شيءحقير من متاع الدنيا، أنهم ليسوا بمؤمنين حقيقيين أو واقعيين، لفقدانهم الصفات والعلامات الحقيقية للمؤمن الواقعي المذكورة في الآيات الثلاث.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ويظهر من هاتين الآيتين أن طائفةمن المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله إلى غزاة بدر خرجوا وهم كارهون فلم يلقوا بالاً لأمرالنبي ونهيه، لذلك لما علموا أن هذا التجمع سوف ينتهي بالحرب كرهوا ذلك واشتدّ جدالهم للنبيومواجهتهم للحق المبيّن بالوحي، وكانوا طامعين بحيازة تجارة قريش وينفرون من الجهاد فيسبيل الله، كأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

نجد في هاتين الآيتين النموذج البشري الحاضر في وقعة بدر فهو نموذج تتناهبه نوازعحب الدنيا واحتقاب قافلة قريش التجارية، ويشيحون بوجوههم عن مقارعة الخصم وعن الجهادفي سبيل الله.

وها نحن لا نعثر في الآيات الشريفة المبحوث عنها لحد الآن إلا على الذم والتوبيخ واللوم لنماذج المسلمين الحاضرين في غزوة بدر وبالطبع وجود الآيتين (٢) و (٤) الناعتتين للمؤمنين الواقعيين، والواصفتين لحقيقتهم تعربان عن وجود طائفة منهم تتحلى بصفات الإيمان الطيبة ولننظر الآن أياً من هؤلاء له صفات المؤمنين الواقعيين وأياً منهم لا يملكها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

فالملاحظ في هذه الآيات الثلاث ومن وسط السورة بعد أمرهم بالثبات في مقارعة الخصم والإكثار من ذكر الله تعيد معنى الآيات الواردة في أول السورة بعينها وهو عبارة عن ترك النزاع والجدال والطاعة التامة الله ورسوله ثم يذكرهم بالصفة التي حاقت بقريش وهو الغرور ساعة القتال والإعجاب بالذات وعبادتها، ثم ينهاهم عن أن يكونوا سداً قائماً في وجه الحق.

أجل إن الآيات آنفة الذكر تحض المؤمنين على رعاية الأمور الستة في ميدان القتال:

١ ـ ثبات القدم في قبال العدو.

٢ ـ الإكثار من ذكر الله ساعة القتال.

٣ ـ ترك الخصومة والنزاع والجدال ما بين المجاهدين.

٤ ـ الطاعة المطلقة لأوامر الله ورسوله.

٥ ـ ترك الغرور وعبادة الذات عند التوجه إلى ميدان القتال.

٦ ـ أن لا يكونوا عقبة في الطريق إلى الله ساعة الحرب.

ثم يأمرهم بالتدبر فإن من لا يرعى التقيد بهذه الأمور الستة يكون جهاده خارجاً عن ضوابطالإسلام فلا يكون جهاده جهاداً في سبيل الله، وإن كان مسلماً، وكان قتالهم باسم الإسلام.

وعلى أية حال عمدت لغة الوحي بعد الآيات الثلاث إلى الإفصاح عن بعض الخصوصيّاتلكلا العسكرين المتنازعين في غزوة بدر أنه يقول سبحانه:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

في الساعة الحرجة المحاصرة بالبلاء «ساعة لقاء العدو» أطلقت طائفة «المنافقين» و «الذينفي قلوبهم مرض» ألسنتهم بثلب المؤمنين المجاهدين بقولهم: غر هؤلاء دينهم فقاتلوا قريش وهمفي جيش مدجج بالسلاح.

أجل، الا يعلم المنافقون وطائفة﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ أن الله ينصر المتوكلين عليهلأن الله عزيز حكيم ونصرته لأهل التوكل

حتمية.

وهنا كشفت الآية الستار عن هوية جماعة من المسلمين وعن شخصيّتهم، وهم الذين حضروا الواقعة أكثر من ذي قبل.

توضيح ذلك:

لم تبلغ الآيات التي لامت المسلمين وأنّبتهم وقرّعتهم في غزوة بدر لحد الآن ما بلغته هنا منإخراجهم عن دائرة الإيمان ونفيهم منه نفياً مؤكداً، فالآياتتعتبر إيمانهم إيماناً غير بالغمرتبة الكمال ولكننا الآن نرى في الآية ٤٩ إعلاناً رسمياً على لسان الوحي عن حضور طائفة من المنافقينوطائفة«**من الذين في قلوبهم مرض**»في غزوة بدر.

وبعبارة أخرى:إنّالوحي يعلن عن وجود: المنافقين العاديين و«**المنافقين المحترفين**»بين ظهراني المجاهدين.

لقد صعب وجود المنافقين من عاديين ومحترفين على الذين ينظرون إلى أصحاب بدربإعجاب بينهم مما حمل بعضهم على الزعم بأنّ الآية ٤٩ من سورة الأنفال تقصد بذم المنافقين عبدالله بن أبي سلول وإخوانه منهم الذين حضروا مع النبي وأصحابه في غزوة بدر وقال قوم آخرون:المراد بالمنافقين المذكورين بالآية هم الموجودون في معسكر المشركين القرشيين.

ولكن الضرورة تقضي ببطلان كلا الرأيين.

أولاً: إن المسلمين المتخلفين في المدينة لا علم لهم بوقعة بدر

بين النبي وأصحابه من جهة وبينالمشركين من جهة أخرى، حتى يطلقوا ألسنتهم بثلب المؤمنين يستوي في ذلك المؤمنون والمنافقون وقد علموابالحادث بعد فوات الأوان فلم يكن الظرف ساعتئذٍ يحتمل ذماً أو قولاً بباطل وقد انتهى كل شيءلأن العلم بوقوع الحرب بلغ المنافقين وسائر الناس بعد انتهائها وقد أوفد النبي إلى المدينة بالبشارةبالنصر زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة وحملا البشارة بحسم المعركة لصالح المؤمنين إلى المدينةوما دار حولها من قرىً وبيوت ومن الواضح أنَّ مجال القول ينقطع بعد ختام المعركة بالنصر المبين،وقد سدَّ النصر منافذ القول على المنافقين فأبلسوا وانقطعوا.

ثانياً: من غير المعقول وجود المنافقين في معسكر المشركين وكفار قريشلأنَّ المنافق هوالذي يظهر الإسلام وينكره في الباطن ويعاديه ومن اللازم خلو معسكر الكفار من وجود طائفةبهذه الصفة بلْ مكان هؤلاء في معسكر المسلمين ليعود عليهم بالتظاهر بالإسلام بالنفع، لا الخسرانوالضرر وإلّا فمن البديهي وقوعهم تحت طائلة لوم المشركين وعتابهم أو عقابهم إذا كانوا بينظهرانيهم ويتظاهرون بالإسلام وسوف يؤدي ذلك إلى هلاكهم.

أجل من المحتمل وجود مسلمين ضعفاء يكتمون إسلامهم بين كفار قريش لا العكس، فلايقبل العقل وجود منافقين بينهم فما الحاجة إلى كتمانهم الشرك وهم في حماية رجاله وبينأساطينه.

وعلى أيَّة حال فإن وجود المنافقين والذين في قلوبهم مرض بين جماعة المسلمينالحاضرين في واقعة بدر وهي أول حرب وقعت بين

المسلمين والكفّار مدعاة إلى التأمل جداً وذلك أمر يحمل الباحث على تعميق الفكر بشأنهم وتدخلهم في المسائل المصيرية من حياة المجتمع المسلم.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

في هذه الآيات وهي آخر ما نزل من السورة أعادت الكرّة في تقريع المسلمين الذين حضروا الواقعة، وتوبيخهم على الاحتفاظ بالأسارى من أجل أخذ فدائهم .

وهنا نسوق بعض الروايات الدالة على اللوم والتوبيخ حتّى يستبين ألم النبي من عمل المسلمين في أخذ الأسرى والإصرار على استحيائهم وأخذ الفداء منهم:

يقول السيوطي في الدر المنثور (ج ٣ ص ٢٠٢):

«أخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة عن أبي عبيدة - رض - قال: نزل جبرئيل على النبي - ص - يوم بدر فقال: إن ربك يخيرك إنْ شئت أن تقتل هؤلاء الأسارى وإن شئت أن تفادي بهم ويقتل من أصحابك مثلهم، فاستشار أصحابه فقالوا: نفاديهم فنتقوّى بهم ويكرم الله بالشهادة من يشاء».

ويروي محمد بن عمر الواقدي عن الإمام علي(ع) مضمون هذه الرواية في كتابه المغازي ج ١ ص ١٠٧ ويقول الطبرسي في

مجمع البيان (ج ٢ ص ٥٥٩):

« روي أن النبيّ ـ ص ـ كره أخذ الفداء حتى رأى سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه فقال: يارسول الله هذا أوّل حرب لقينا فيه المشركين والإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال».

فمن الروايات أعلاه ونظائرها المروية في الجوامع الحديثية للفريقين يظهر بجلاء أن أوامرالوحي والنبي نفسه إلى الحد المحتمل أراد صرف المسلمين الحاضرين ببدر عن أخذ الفداء ولكنالأكثرية من المسلمين الحاضرين ساعتئذ لم يطيعوا الوحي ولا النبي وقدموا الفداء على غيره ثمأخذوه من الأسرى.

هذا ما كان من أمر التفسير الميسَّر لآيات من سورة الأنفال التي أخبرتنا عن وجود عدد منالمنافقين العاديين والمنافقين المحترفين في غزوة بدر بين جماعة المسلمين. وكشفت عن صفاتهموخصوصيّاتهم ضمن خطة اللوم والتوبيخ المتخذين ضدهم بالآيات الآنفة.

وأبرز صفات المنافقين المحترفين والمنافقين العاديين (مع ملاحظة الفوارق من حيث مراتبالنفاق والنقص) جاءت في الآيات المذكورة على النحو التالي:

١ ـ كراهتهم المجابهة مع مشركي قريش وجدالهم مع النبي(ص) حول ذلك.

٢ ـ تعلق قلوبهم بالمتاع التافه من حطام الدنيا وخصومتهم مع

المؤمنين وجدالهم للظفر به.

٣ ـ منعهم من قتل الأسرى في حرب بدر الذين كانوا من أئمة الكفر وأعداءًللإسلام وللنبيالشرسين كي يبلغوا مآربهم بأخذ الفداء منهم.

ومن الواضح الطبيعي أن صفات المؤمنين الواقعيين طبقاً لهذه الضابطة تكون تماماً في الطرفالمقابل من هذه الفئة، وهي كالتالي:

يطيعون رسول الله بكل قلوبهم، ويودون قتال المشركين أكثر من أي شيء آخر، للقضاء علىأئمة الكفر واقتلاع جذورهم ولا يهنون ولا يضعفون ولا يبدون للكفر جانباً مسالماً فيغزاة بدر، ولا يحول بينهم وبين الجهاد حطام دنيوي زائل، ونيتهم قائمة على القتال وتصفية أئمةالكفر ومحقهم، حتى يظهر الله دينه ويثبت قواعده ويكون الحكم في الأرض له.

نعم: إذا أقاموا الدين وثبتت دعائمه يعملون طبقاً للآية الشريفة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾(١).

وفي أوان قوة الإسلام وسلطانه الظاهر، يكون أمر الأسرى بين خيارين«المنة عليهموتحريرهم»أو«أخذ الفداء»منهم والمؤمنون في مثل هذا الظرف يلقون قيادهم لأمر رسول اللهويطيعونه غاية الطاعة، ولا ينقلون على الأرض قدماً إلا بأمره.

---

(١) سورة محمد: الآية ٤.

وهذه هي الضابطة الجامعة لطرفي النفاق والإيمان التي وضعتها الآيات الشريفة في غزوةبدر بأيدي المسلمين ولنا أنْ نتمعن الآن في أمر المسلمين الذين حضروا بدراً فمنهم من ضمّته دائرة النفاقومنهم من ضمته دائرة الإيمان، وساروا بخطاهم على هدي هاتين الدائرتين، فلابدَّ من البحث في ذلك.

المبحث الثاني

التعرف على المنافقين المحترفين الذين حضروا واقعة بدر

روى ابن هشام في السيرة النبوية بعد ذكره سيرة رسول الله ومعه المسلمون الملازمون لهوعده المنازل التي نزل بها(ص) في الطريق منزلاً منزلاً، ما دار بين النبي وأصحابه قبلوصولهم إلى أرض بدر.

«وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش فقامأبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال:

يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذيبعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ـ ص ـ خيراً ودعا له به!

«ثم قال أشيروا عليّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حينبايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فيذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا فكان رسول الله(ص) يتخوف ألا تكون

الأنصارترى عليهانصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ـ ص ـ قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال:أجل.

«قال فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودناومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضنا معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوناغداً انا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء لعلّالله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسررسول الله ـ ص ـ بقول سعد ونشّطه ذلك ثم قال سيروا وابشروا فإن الله تعالى قد وعدني احدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»(١).

وروى محمد بن جرير الطبري في تاريخ (الأمم ـ الرسل ـ والملوك)(ج ٢ ص ١٤٠) عن ابن إسحاق هذا المطلب بتغيير يسير في بعض الكلمات.

وليس من نافلة القول: إن الجملة الشريفة﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾آية٢٤ من سورة المائدة نزلت على النبي أواخر أيامه فلا ينبغي أن تعد من كلام المقداد في غزوة بدر.

---

(١) السيرة النبوية، جـ٢ ص ٢٦٦.

ولذلك لم يرو ابن سعد في الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٨ لمّا نقل كلام المقداد المعبأ بالحرارةوالحب للنبي(ص) الجملة المذكورة لأنّه قال:

فقال المقداد بن عمرو البهراني والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معكحتى تنتهى إليه».

وعلى أية حال، فإنّنا نلاحظ في الروايات الآنفة أن رسول الله(ص) لم يظهر أيّ ابتهاج مماقاله الرجلان أبو بكر وعمر ولم يدع الله لهما بالخير على نقيض ما قاله المقداد بن عمرو وسعد بنمعاذ فإن قولهما سرّ النبي(ص) ودعا لهما، والإنسان العاقل الفطن يدرك الفرق جيداً بين أقوال أبيبكر وعمر وأقوال سعد والمقداد وما بينهما من التضاد الفاحش فإن الرجلين منعا رسولالله منمواجهة المشركين وحالا بينه وبين مجاهدة الكفار.

بل يظهر من تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ١٤٠ رواية أخرى نقلها عن«**عبدالله بنمسعود**»وفيها يتجلى تألم النبي الشديد مما قاله أبو بكر وعمر حتى قام المقداد بن عمر بعدهماوقال ما قال ورواية ابن مسعود كما رواها الطبري هي:

«عن عبد الله بن مسعود قال: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحبّ إليّ ممافي الأرض من شيء: «كان رجلاً فارساً، وكان رسول الله ـ ص ـ إذا غضب احمرّت وجنتاه فأتاهالمقداد على تلك الحال فقال ابشر يا رسول الله ... والذي بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومنخلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك!».

وهنا لابدَّ من ملاحظة فصول الرواية جيداً بأن النبي تولاه غضب شديد من قول الرجلين أبيبكر وعمر اللذين سبقا المقداد بالقول، حتى احمرّت وجنتاه، وتدارك المقداد الموقف بكلامهالرصين المعبأ بالوله والحب للنبي ودعوته مما حمل رسول الله على السرور والجذل وعاودته الثقةبأصحابه.

نعم: مع ما نص عليه الوحي (آية ٧ سورة الأنفال) وصرحت به الروايات عن رسول الله(ص)بالنصر وأخبرهم رسول الله بنصر الله إياهم ووعدهم إحدى الطائفتين (الشوكة، والعير) مع كل هذانجد أبا بكر وعمر أعرضا عن وعد الله وضربا به عرض الجدار وحادا عن القتال وخطئا رسول اللهفي مذهبه، ولما كان نقل كلامهما إزاء كلام معاذ والمقداد الصريح الجيّد المعجب، يحيق بجهازالخلافة وحزبها عزف ابن هشام وابن جرير الطبري عن نقله كاملاً واكتفيا بنقل جملة قصيرة «قال وأحسن».

لكن محمد بن واقد وهو من كتاب «المغازي» متقدم على ابن هشام والطبري، عندما يعرضلموضوع استشارة النبي أصحابه في «كتاب المغازي»(ج ١ ص ٤٨) في غزوة بدر يذر ذيل ما قالهعمر ثم يتم ذلك بقوله:

« ثم قال: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزّها ما ذلت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت،والله لا تسلم عزها أبداً ولتقاتلنك، فاتّهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته». وهذا ما كان من معارضةأبي بكر وعمر للحرب مع المشركين وجدالهما مع رسول الله في الأمر

وتثبيطهما المسلمين عنها،وهي أولى صفات المنافقين المذكورين في غزوة بدر، وهنا لابدَّ من الوقوف على جهودهما، وإلى مَ انتهت فيمسألة الأسرى أبالقتل أم بالفداء.

روى الطبري في تاريخ الأمم (الرسل) والملوك (ج ٢ ص ١٦٩) رأي ابي بكر وعمر فيمسألة الأسرى فقال:

«حدثنا أحمد بن منصور قال حدثنا عاصم بن علي قال حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثناأبو زميل، قال حدثني عبدالله بن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم بدر، التقوافهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر سبعون رجلاً.

«فلما كان يومئذ شاور رسول الله ـ ص ـ أبا بكر وعلياً وعمر فقال أبو بكر: يا نبيّ الله هؤلاءبنو العم والعشيرة والإخوان فإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ـ ص ـ ماترى يابن الخطاب؟ قال فقلت: لا والله ما أرىالذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنني من فلان فأضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبناهوادة الكفار هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم ...».

في الرواية أعلاه نرى أنَّ أبا بكر طوى المراحل كلها من مسيرة المنافقين فكان مانعاً لرسول اللهمن قتل الأسارى أي أنه خالف سنن الله ورسوله الذين حكما بقتل الأسرى في غزوة بدر لأنهم أئمةالكفر والشرك والضلال فردّ أبو بكر حكم الله وسنة رسول الله وجنح مع أكثرية المسلمين الذينيريدون أخذ الفداء وإطلاقهم، طمعاً

في العاجل من حطام الدنيا.

أجل إنه امرؤ مكر ودهاء، صاحب ذكاء يريد كسب الأكثرية من المسلمين الذين حضروا بدراًإلى صفه ووضع منّة في رقاب قريش وهم أئمة الكفر ونيل منافع دنيوية عارضة في أخذ الفداء.

هذا ما كان من أمر أبي بكر وأما عمر بن الخطاب فإنه وإن كان رأيه قتل الأسرى وهو خلافـرأي أبي بكر ولكنّ السؤال يدور هنا حول الدافع الذي حمله على اتخاذ هذا الرأي هل هو الإيمان والاتباع لسنة الله ورسوله أو رأي صادر عن هوىً في نفسه ورغبة خفيّة في أمر شاغل باله.

ومن أجل إيضاح هذا المطلب ينبغي الرجوع إلى الوصية التي أوصاها النبي أصحابه في بنيهاشم وجماعة آخرين الذين أخرجتهم قريش بالقهر معها إلى القتال فلننظر في هذه المسألة:

روى ابن هشام في السيرة النبوية (ج ٢ ص ٢٨١) والطبري في تاريخ الأمم والملوك (ج ١ص ١٥١) عن ابن عباس أنه قال: «إن رسول الله ـ ص ـ قال لأصحابه يومئذٍ إني عرفت أن رجالاًمن بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلايقتله ومن لقي أبا البختري بن الحارث بن أسد فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسولالله فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرهاً قال: فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس؟! والله لئن لقيته لألحمنّه بالسيف فبلغت رسول الله ـ ص ـ فجعليقول لعمر: يا أبا

حفص أما تسمع إلى قول أبي حذيفة يقول: اضرب وجه عم رسول الله؟!

فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضربن عنقه بالسيف فوالله لقد نافق.

وهنا نلاحظأنَّ رسول الله(ص) قبل بدء الحرب أمر المسلمين بأجمعهم الحاضرين فيغزوة بدر بعدم التعرض«**للعباس بن عبد المطلب**»و«**عقيل بن أبي طالب**»و«**نوفل بن الحارث بنعبد المطلب**»وأخبرهم أن هؤلاء أجبروا على حضور المعركة مع قريش وها نحن نرى أنَّ النبيتوجه بالشكاية بعد تمرد أبي حذيفة على أمره إلى عمر بن الخطاب، وقال له: ألا تسمع يا عمر مايقوله أبو حذيفة، أنَّه نبذ أمري وراءه ويقول: لأقتلن عم رسول الله(ص) .

أبعد هذا القول وما علمه المسلمون – بخاصة عمر بن الخطاب - من كراهة النبي(ص) قتل بني هاشم ، فكيف وجد عمر الجرأة بعد ذلك وأشار على النبي برأيه في قتل حمزة العباس وعليعقيلاً وهو يقتل فلاناً [ولا نعلم ما هي الضغينة التي تعمر صدر عمر على هذا الرجل، لأنَّ هؤلاءصناديد الشرك وأئمة الكفر].

أيكون «العباس بن عبد المطلب» و «عقيل بن أبي طالب» و «نوفل بن الحارث بن عبد المطلب«الذين أخرجوا كرهاً للقتال من أئمة الكفر وأعداءالله ورسوله الشرسين أم أن لعمر غرضاً خاصاً فيهذا العرض، عجباً: ألم ير المسلمون الذين شهدوا بدراً كلهم، أنّ النبي(ص) في أول ليلة بعد واقعةبدر لم يذق الكرى ولم يطبق له

جفن حتى خلّصوا عمه العباس من القيد عند ذلك استقربالنبي الحال[(١)].

فكيف يتبادر إلى ذهن مسلم بعدما شاهد لوعة النبي عليه وهو في القيد ومع نهيه الصريح عن قتله، رضاه بقتله بعد الأسر.

أجل كان قتل الأسرى قبل رسوخ الدين في الأرض من سنن الله ورسوله لأنَّهم أئمة الكفروقد أجلبوا على الإسلام وشهروا السيف في وجهه وقاتلوا أهله، وليس أخذ الفداء منهم وإطلاق سراحهم ومن الواضح أن هذا الأمر يختص بالأسرى الذين يعودون لمحاربة الإسلام بعد فكاكهم من الأسر فكيف ينسحب هذا الأمر على أمثال العباس بن عبدالمطلب وعقيل بن أبي طالب و«نوفل بن الحارث بن عبد المطلب» [الذين لا يريدون قلع دين الله وإنما خرجوا رعاية لتجارتهم فقد ألجأتهم قريش إلى الخروج مكرهين حتى بلغوا معهم «أرض بدر» مع أنَّ النبي نهى أصحابه عن قتلهم قبل اندلاع نار الحرب والدليل الواضح الذي يثبت بأنَّ العباس لم يكن من أئمة الكفر هو أن الرجل بعد أسره وأخذ المسلمين لأمواله باسم الغنائم وما ناطه النبي(ص) به من دفع فداء عقيل ونوفل وعتبة بن عمرو حليف العباس مع كل هذا وبعد أن وقّى المسلمين هذا الغرم الفادح تشهد بالشهادتين واعتبر مسلماً من ساعتئذٍ.

من ثم يكون الشك لصاحب التحقيق في نوايا عمر واقعاً ومن حقه أن تتناهبه الوساوس والظنون في مضمرات هذا الرجل من قتل

---

(١) راجع تاريخ الطبري، ج٢، ص١٦٠.

بني هاشم.

وهذه نبذة أفصحت عن حقيقة أبي بكر وعمر خلال «معركة بدر» الكبرى.

والآن نعرض إلى تحقيق شخصيّة أخرى وهو من خلطاء عمر وأبي بكر الأوفياء وأصحابهماالأدنياء وهو ممن أسندتْ إليه فضيلة «حضوره بدراً» أي اعتبر من البدريين المتميّزين ألا وهو عبدالرحمن بن عوف فلننظر في هويته ولنقرأ حقيقته على ضوء ما تقدم.

التحقيق في شخصية عبدالرحمن بن عوف:

ومن المسلم به بأنّ غزوة بدر أولى المعارك الثقيلة الكبرى بين المسلمين والمشركين لذلكنبدأ بحثنا بآيتين نزلتا في واقعة بدر على التحقيق لتسهل علينا معرفة عبد الرحمن على نحو جيّد.

والآيتان هما:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُإِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَاإِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً * أَيْنَمَا تَكُونُوايُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْسَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ

مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (١).

إنّنا نلاحظ الآية (٧٧) وفيها يوبخ الله صراحة طائفة من المسلمين الذين كانوا من قبل يهمون بقتال المشركين قبل صدور الأمر إليهم فكان النبي ينهاهم ويحثهم على إقامة الصلاة وأداء الزكاة حتى إذا وجب القتال بعد صدور الأمر به كف بعضهم أيديهم عن القتال حرصاً على أنفسهم لأنّهم خافوا العدو أكثر من خوفهم الله ربهم وراحوا يعترضون على وجوب القتال عليهم قبل الأوان.

وفي الآية الأخرى واصل توبيخه سبحانه لهم إلى أن يقول: إن هؤلاء إذا بلغوا أمنيتهم ومايطمحون إلى نيله من متاع الدنيا قالوا هذه نعمة من الله وإذا ما ابتلوا ببلية قالوا: هذا من عند رسول الله من غير اختشاء ولا حياء.

وهنا يواجهنا سؤال: من هؤلاء؟ ولمن تنتمي هذه الطائفة من المسلمين؟

والجواب: أنّ هذه الطائفة قطعاً هم ليسوا من مسلمي المدينة لأن هذهِ الطائفة من الأنصار قبل هجرة النبي إلى المدينة، لم يلتحموا بحرب مع أهل الكتاب جيرانهم الذين هم اليهود، وكانوا يريدون القتال عن أمرهم ورغبتهم ولا هم ممن يقاتل مشركي قريش.

ولكن بعد هجرة النبي بوقت قصير وجب الجهاد على المسلمين أجمع منه سبحانه فلم تكن الفرصة سانحة للأنصار لكي يقاتلوا قبل

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٧ ـ ٧٨.

صدور الأمر إليهم.

إذنْ لا مفرَّ من اعتبار هذه الطائفة من المسلمين ساكني مكة والذين سبقوا النبيّ بالهجرة،وشملهم الأمر بوجوب القتال من جهة أخرى، ومن الواضح أن عمار بن ياسر وبلالاً الحبشي رضيالله عنهما وأمثالهما ليسوا من أفراد هذه المجموعة لأنَّ هؤلاء كانوا في عهد مكة:

أولاً: من الموالي المستضعفين ولم تكن معهم القدرة في قتال قريش ولا هم من رجالها بناءًعلى تقاليد الجاهلية.

ثانياً: لم يثبت في تاريخ الإسلام ما روي عن العامة أو الخاصة جرأة على رسول الله(ص) منهؤلاء المساكين، فتبين بالقطع واليقين أن هذه الطائفة هم من «فئة المهاجرين» الذين لهم ميزة علىغيرهم من حيث الأسرة والحياة المادية الراقية نوعاً ما وهم من طبقة قريش أو أمثالهم.

ولنتفحص الروايتين التاليتين لنتعرف على هؤلاء القوم.

ذكر السيوطي في الدر المنثور (ج ٢ ص ١٨٤) تعقيباً على الآيتين السالفتين:

١ ـ أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من طريقعكرمة عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ـ ص ـ فقالوا يا نبيّ الله كنافي عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: إني أمرت بالعفو فلا

تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمر الله بالقتال فكفوا فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية.

٢ ـ وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال: كان أناس من أصحاب النبي ـ ص ـ وهم يومئذٍ بمكة قبل الهجرة يسارعون إلى القتال، فقالوا للنبي ـ ص ـ ذرنا نتخذ معاول فنقاتل بها المشركين.

وذكر لنا أن عبد الرحمن بن عوف كان فيمن قال ذلك، فنهاهم نبيّ الله ـ ص ـ عن ذلك قال: لم أؤمر بذلك، فلما كانت الهجرة وأمروا بالقتال كره القوم ذلك وصنعوا فيه ما تسمعون قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

هنا نلاحظ أن هذه الفئة هم عبد الرحمن بن عوف وأصحابه المقربون.

والسبب الذي حدا بهذه الفرقة من الناس أن تنزع للقتال دون أمر أو رغبة من القائد.

ولما تهيأت الظروف للقتال مع الكفار وأوجب الله القتال على المسلمين بعد الهجرة، نبذته هذه الفئة ولم ترض به ولم تقاتل كما يراد منها بل استقبلت هذا الأمر الإلهي بسوء أدب موجّه إلى الساحة القدسية الإلهية وساحة النبي الأقدس(ص).

تبين لنا من هذه المواقف أن تقدمهم للقتال دون أن يؤمروا لم يكن من أجل الدين ولا دفاعاً عن سيد المرسلين بل نزعت بهم

العصبيّة إلى القتال وحملتهم عقدة النقص عليه، لما كانوا يلقونه من بيئة الجاهلية من التمييز الطبقي والتفرقة العنصرية.

ولو كان إقدامهم على الجهاد قبل الهجرة دفاعاً عن النبي أو ترويجاً للدين لكانوا بعدما فرض الجهاد وأصبحت الظروف لقتال المشركين جدّ مساعدة أشد جذلاً به وأعظم فرحاً وأكثر إقبالاً عليه من ذي قبل.

كما ظهر ذلك من المقداد و«**سعد بن معاذ**» في حضرة النبي(ص).

وعلى أية حال ظهر من مجموع ما تقدم أن عبد الرحمن بن عوف ورفيقيه المخلصين وصديقيه الحميمين - أبي بكر وعمر - كانوا على كره شديد لقتال المشركين لما تجلى لنا واضحاً وظهر جلياً أن مسارعتهم للقتال أولاً دون أن يؤذن لهم إنّما كان على أثر عقدة تأزمت في نفوسهم لسلوك الكفار مع الطبقات الدنيا من المجتمع، حيث كان طابعه النبذ والاحتقار وهم من هذه الطبقات البسيطة، فحملوا في صدورهم أحقاد الأزمات النفسية وبادروا إلى القتال انتقاماً للنفس وليسَ غضباً الله تعالى وهذا ما كان من أمر المنافقين في دفعهم لجهاد الكفار وكراهتهم له.

وأما موقف عبد الرحمن بن عوف من الأسرى، هل هو القتل أو الفداء ونيل حطام دنيوي زهيد فإن الروايتين التاليتين يوضحان هذا الأمر بجلاء تام:

روى ابن هشام في السيرة النبوية (ج ٢ ص ٢٨٣ و ٢٨٥)

والطبري في تاريخ الأمم والملوك (ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣) عن عبدالرحمن بن عوف نفسه الرواية التالية:

١ ـ «قال ابن إسحاق: حدثني عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال ابن إسحاق وحدثنيهأيضاً عبدالله بن أبي بكر وغيرهما عن عبدالرحمن بن عوف قال:

«كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة وكان اسمي عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبدالرحمن ونحن بمكة فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أرغبت عن اسم سماكه أبوالكفأقول: نعم.

« فيقول: فإني لا أعرف «عبد الرحمن» فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجيبني باسمك الأوّل وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف.

« فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي، اجعل ما شئت، قال: فأنتعبدالإله، قال: فقلت: نعم، قال: فكنت إذا مررت به قال: ياعبدالإله فأجيبه فأتحدّث معه.

«حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أمية أخذ بيده ومعي أدارع قدْ استلبتها وأنا أحملها، فلما رآني قال لي يا عبد عمرو فلم أجبه فقال: يا عبدالإله، فقلت نعم، قال: هللك فيّ، فأنا خير لك من هذه الأدارع التي معك قال: قلت: نعم هاالله ذا.

«قال: فطرحت الأدارع من يدي فأخذت بيده ويد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أمالكم حاجة باللبن؟ قال: ثم خرجت أمشي

بهما».

٢ ـ قال ابن إسحاق: حدثني عبدالواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبدالرحمن بن عوف قال: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه (خذ بأيديهما، يا عبد الإله من الرجل منكم، المعلم بريشة نعامة في صدره قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

«قال عبدالرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي ـ وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت الشمس فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد فيقول بلال: أحد أحد.

فلما رآه قال رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال أبأسيري، قال: لا، إنْ نجا، قال: قلت: أتسمع يا ابن السوداء قال: لا نجوت إن نجا، قال: ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا به حتى جعلونا في مثل السمكة وأنا أذب عنه قال: فاخلف رجل السيف، فضرب رجل ابنه فوقع وصاح أمية صيحة ماسمعت مثلها قط قال: فقلت له: انج بنفسك ولا نجاء بك فوالله ما اغني عنك شيئاً قال: فهزموهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما».

وذكر مضمون هاتين الروايتين الواقدي بسنده في كتاب المغازي (ج ١ ص ٨٢ و ٨٣).

دلت الروايتان المذكورتان أعلاه على الأمور التالية:

أولاً: كانت العلاقة في عهد مكة بين عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف على خير ما تكونوأمية هذا كما وصفه بلال رأس الكفر، ومع أنه كان ينزل ببلال أشد العذاب لمْ يكن يبدو من عبدالرحمن بن عوف أيّ إنكار عليه أو لوم له، مع أنّه من أئمة الكفر.

ثانياً: حين كان المسلمون يلتحمون مع العدو المشرك في معركة ضارية من أجل الإسلام كان‌عبدالرحمن بن عوف يجول في ميدان القتال يجمع الدروع الثمينة التي رماها المشركون ليتخففوامنها للهرب، وهذه شهادته بحق نفسه وبينما كان المؤمنون يتعقبون المشركين ويقتلون الصناديدمنهم وأئمة الكفر ويقطعون للقضاء عليهم السهل والجبل بحب وشوق ورغبة كان عبد الرحمن قدْ أصبته الدنيا فراح يجمع المتاع التافه الذي خلفه العدو هنا وهناك.

ثالثاً: ولقد رأيتم موقفه المتشدد في حفظ أسيريه أميّة بن خلف وابنه وكيف بذل وسعه للبقاءعليهما، من أجل أن ينال فداءهما حتى أنه أفحش على بلال رضوان الله عليه، فوصفه بـ «ابن السوداء».

فتبين لنا من هذه المشاهد المتكرّرة منه أن غرض الرجل ما كان الدفاع عن الدين ولا لنشرالإسلام، ولقد قاوم مقاومة شديدة ليدرأ القتل عن أمية بن خلف وابنه ودافع عنهما دفاع المستميت،وهما من أئمة الكفر.

وكان يماري في الدين من أجل بلوغ هدفه وهو نيل القليل من حطام الدنيا حتى أهان بلال إهانة يتورع عنها المؤمن.

وبناءً على هذا فإن صفات المنافقين كما غطت صاحبيه من المفرق إلى أخمص القدم غطته أيضاً مثلهما، فكان واحداً من هذه الفئة المنافقة.

هذا ما كان من أمر عبد الرحمن بن عوف في غزوة بدر وقد عرفناه من خصائصه النفاقية الثلاث والتي استفيدت من سورة الأنفال.

ويأتي الآن دور صاحب ثالث يقع من أبي بكر وعمر في الصميم وهو ذو وفاء لهما، وقد أسندت له البدرية وخلعت عليه خلعتها وسمّي له شرفها ألا وهو سعد بن أبي وقاص ونأخذ الآن في الإعراب عن هويته وبيان شخصيّته وما جرى له في غزوة بدر.

التحقيق في شخصية سعد بن أبي وقاص:

ونشير قبل الشروع في ذلك إلى كتابين اثنين ذكرا المغازي بإسهاب وبسطا أمر الوقايع بسطاًوافياً وأعربا عن مواقف أصحاب رسول الله إعراباً مثيراً وهما «مغازي ابن إسحاق» و «مغازي الواقدي».

[توفي ابن إسحاق سنة ١٥١ هجرية قمرية، وتوفي الواقدي سنة ٢٠٧ كذلك].

وكان كتاب ابن إسحاق في أصله عبارة عن كتب ثلاثة المبتدأ، والمبعث، والمغازي، وكانيلقيها على تلامذته على غير انتظام إملاءاً، والآن لا يوجد الكتاب عند أحد من الناس، ومن أرادالاطلاع على الكتابين الآخرين المبعث والمغازي برواية زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي وهوأحد رواة ابن إسحاق الخمسة عشر فعليه أن يرجع إلى كتاب «السيرة النبوية» لابن هشام وينبغيعليه افرادهما عن رأي ابن هشام الخاص به ليصل إليهما، من رواية ابن إسحاق نفسه.

ولكن كتاب المغازي للواقدي حظي بالطبع في ثلاثة أجزاء والآن هو في متناول أيدي الباحثين.

والجدير بالذكر أنَّ أجزاء بلْ أبعاض من المغازي مبثوثة في كتب المؤرخين بنقولهم الخاصة، كما فعلذلك الطبري وغيره بنقله في مؤلفاته عن ابن إسحاق والواقدي.

بعد إيضاح هذه المقدمة نقول:

إنَّ الباحث حين يقف عند كتابي «المغازي لابن إسحاق» و «المغازي للواقدي» يواجه لسعدبن أبي وقاص في غزوة بدر وضعاً استثنائياً، قياساً إلى سائر المسلمين الذين حضروا الوقعة لأنَّه لمِيقتل أحداً ولكنه استطاع أسر الكثير من المشركين بلغ بهم الواقدي الأربعة وهذا الوضع المستثنى له حمل قوماً موالين لجهاز الحكم على الاسترابة بأمره منهم ابن هشام وهو أحد الموالينلجهاز الخلافة(١) ؛ لذلك راح يثبت لسعد قتلى فأثبت له قتيلاً ونصف القتيل مع ذكر الاسم بينما لايوجد له شيء من هذا في مغازي ابن إسحاق ولا مغازي الواقدي.

ولم يرد اسم أحد من المشركين مقتولاً بيد سعد.

ثانياً: أخفى هذا الكتاب أسماء المسلمين الذين أسروا المشركين واكتفى بذكر أسماءالمأسورين فقط، بينما ذكر الواقدي في مغازيه أسماء الفريقين الآسرين والمأسورين.

أجل الإشكال يأتي من هذه الناحية.

لأنَّ هذا الوضع الاستثنائي لا يتم إلّا بضرر محيق بشخص

---

(١) لاشك في ولاء ابن هشام لهم ومن سبر كتابة السيرة النبويّة بدقة وقارنه بغيره من كتب السيرة والتاريخ، سوف يقف على جلية الحال جيداً.

مضافاً إلى أنّه بنفسه صرح بذلك فقال: إني تصرفت في كتاب ابن إسحاق وغيّرت فيه منها قضايا لا تصح روايتها ولا يحمد نقلها أو أنها تنافي المزاج العام للأمة من ثم سارعت إلى حذفها وإثبات ما هو أليق وأحسن منها.

سعد ذلك أن رجلاً مثله لا يقتلأحداً من المشركين ويقبض على أسرى كثيرين أكثر من غيره فإنه من البديهي أن يحمل علىالاعتقاد بأن سعداً ما كان منذ البدء راغباً في قتال المشركين أو قتلهم ثانياً وجود أسرى كثر فيحوزته يحمل على الاعتقاد بأنّ الرجل لا يرغب في قتل الأسرى.

وهذان الأمران جعلتهما سورة الأنفال دليلاً على انعدام روح الإيمان في المرء.

ومن الظاهر الجلي أن وجود وضع كهذا لا يدل على فقدان شرف القتال ببدر وهدر فضيلتهمافحسب بل يجعل صاحبه في عداد المنافقين ويجرده من منزلته في مجتمع المسلمين.

من هناترى ابن هشام وأضرابه يفزع إلى التزوير ويخالف رويّته في تنظيم كتابه إلى الحدالذي يخفي جانب النفاق عن سعد لئلا يطلع عليه أحد من الناس في غزوة بدر وهذا ما كان من أمرصنفي النفاق للمنافقين الذين حضروا غزوة بدر وتجليهما في سعد بن أبي وقاص.

وأما الخصوصية الثالثة (وهي عبارة عن عقد القلب على متاع الدنيا والخصومة مع سائرالمسلمين من أجل ذلك) فإنّها موجودة فيه ولذلك نقول:

ذكر السيوطي في كتابه «الدر المنثور» (ج ٢ ص ١٥٨) تعقيباً على جزء الآية الشريفة﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾سبع روايات عن «سعد بن أبي وقاص» يظهر بها وضع سعد في حيازتهالخصوصيّة

الثالثة للنفاق والمنافقين الحاضرين في غزوة بدر.

ونحن نسوق واحدة من هذه الروايات على سبيل المثال:

«أخرج عبد بن حميد والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعد قال: أصاب رسول الله(ص) غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف فأخذته فأتيت به رسول الله(ص)فقلت نفّلني هذا السيف فأنا من علمت، فقال: ردّه من حيث أخذته، فرجعت به حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه فشدّ لي صوته، وقال: ردّه من حيث أخذته فأنزل الله يسألونك عن الأنفال».

وهنا نرى أنّ هذا الرجل كيف رهن قلبه في وقعة بدر عند متاع الدنيا التافه وراح يجادل رسول الله جدالاً شديداً.

ونحن لا نريد هنا الإطناب في بحث الروايات السبعة ولكن الباحثين والمحققين سوف يدركون إذا ما دققوا في أمر الروايات وبحثوها بحثاً جاداً الصفات المعروفة في المنافقين الملازمة لسعد بن أبي وقاص مضافاً إلى ما تقدم ونكل هذا الأمر إليهم.

هذا ما كان من أمر سعد في وقعة بدر وقد عرفناه من الصفات المخصوصة للمنافقين التي صرّحت بها سورة الأنفال الحاضرين في الغزوة، وعلى هذه الضابطة نوالي البحث لإدراك المؤمنين الحقيقيين الذين حضروا القتال في غزوة بدر.

المبحث الثالث
التعرف على طائفة من المؤمنين الحقيقيين الذين حضروا غزوة بدر

عند التحقيق في المعنى المتميز في سورة الأنفال نعثر على فريقين ماثلين للعيان أمام البحث المستوعب ، يتميز هذان الفريقان بميزانين دقيقين يبرز كل ميزان فريقاً بصفاته الحقيقية المختصة بذاته.

الميزان الأوّل يتكون من القرائن التالية:

١ ـ كراهة مواجهة العدو وهم كفار قريش.

٢ ـ النفور من قتل الأسرى المحاربين والميل إلى أخذ الفدية منهم.

٣ ـ رهن القلوب في المتاع الدنيوي التافه والجدال المحتدم حول ذلك بين المنافقين المحترفين والعاديين وغيرهم من المؤمنين.

وبناءً على عزل هذه القرائن التي يتألف منها الميزان الأول يبدو لنا الميزان الثاني واضحاً بقرائنه المعبرة عن مصاديقها من المؤمنين وهي:

١ ـ التلهف على مجابهة العدو بالسيف على صعيد بدر ساحة الحرب وقتاله لأنّه بمجموعه ينضوي تحت لوائه أئمة الكفر.

٢ ـ النأي عن أسرهم وتفضيل القتل عليه ، وعلى فرض

حدوث الأسر لجماعة منهمفالانصياع إلى أمر النبي بقتلهم لازم ولا مانع من ذلك بل الدواعي إليه كثيرة.

٣ ـ العزوف عن متاع الدنيا والزهد في عاجلها وترك الخوض في ذلك باعتباره مجادلة فيالباطل.

وهذه القرائن الثلاث تدل بوضوح على وجود المؤمنين الحقيقيين والمؤمنين العاديين فيميدان القتال ببدر الكبرى.

والآن وقد حصلنا على هذه الضابطة لنذهب شوطاً بعيداً في الكشف عن هوية المسلمينالحاضرين في غزوة بدر لتميز المؤمن الحقيقي من المؤمن العادي من غيرهما.

اقرأ الصفحات ٣٦٥ إلى ٣٧٤ من الجزء الثاني من سيرة ابن هشام بدقة لكي تلم بالموضوعالذي سنشير إليه لاحقاً، وتثق بما نقوله بحق واطمئنان.

يذكر ابن هشام في غزوة بدر أسماء المقتولين من مشركي قريش ويسميهم «أئمة الكفر»ويعدد أسماءهم واحداً إثر الآخر ويطلق عليهم هذا التعريف.

ثم يعطف عليهم شهداء الإسلام الذين استشهدوا في المعركة ويسميهم بأسمائهم ولا ينسىذكر من قتلوا على يديه.

ومن خلال التحقيق النزيه لسير المعركة نجد أن أشد الناس نكاية بالعدو وأعظمهم جهاداًوأحماهم عزماً وأصلبهم بأساً وأصبرهم على تحمل أعباء القتال في أتون الحرب هو علي بن أبيطالب(ع)

ثم يتلوه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب(ع)، ويتلوه في الرتبة الثالثة عمار بن ياسررضي الله عنهما.

يروي ابن هشام عن الخمسين قتيلاً من المشركين الذين ذكرهم ابن إسحاق وقتلوا فيالمعركة سبعة عشر نفراً منهم قتلوا بسيف علي وحده وشارك في الأربعة الآخرين وقتل الحمزةخمسة منهم وشارك في قتل الخمسة الآخرين أيضاً وقتل عمار بن ياسر خمسة منهم كذلك.

قال محمد بن عمر بن واقد في كتاب «المغازي» ج ١ ص ١٥٢: قتل علي بن أبي طالب منالمقتولين ببدر وعددهم تسعة وأربعون رجلاً اثنين وعشرين رجلاً وحده، وشارك في قتلالآخرين.

وهذا ما كان راجعاً إلى الخصوصية الأولى المرتبطة بالقتل والقتال في غزوة بدر وأما ما يعودإلى الخصوصيّة الثانية وهي المرتبطة بأخذ الأسرى من عدم أخذهم وعلى فرض وقوع ذلك عدمكراهية قتلهم بأمر رسول الله(ص)، فإننا نقول: إن الشيعة تروي عن الإمام أمير المؤمنين(ع) بأنه لمييأسر أحداً في بدر (١) من المشركين كما جاء في كتاب «البرهان» ج ٢ ص ٦٨ في تفسير علي بنإبراهيم القمي فإنه قال: ولم يأسر أحداً.

وفي الروايات العامية أنه أسر شخصاً واحداً هو عمرو بن أبي

---

(١) ذكر المجلسي& في بحار الأنوار، ج١٩، ص٣٥٦ أنّ عمرو بن أبي سفيان أسره علي بن أبي طالب(ع).

سفيان وصار من سهم رسول الله طبقاً لما تقوله الرواية وأطلقه النبي دون فداء برجل من المسلمين كان قد وقع في قبضة المشركين بعد الغزوة وأيد الواقدي هذا القول في غزواته ج٢ ص٩٠ (١).

يتضح لنا موقف علي بن أبي طالب (ع) في غزوة بدر من أخذ الأسرى بأنه ما كان راضياً بأخذهم لأنهم أئمة الكفر فلا يصح الإبقاء عليهم وهم يستعدون لجولات وجولات ضد الإسلام.

ونلاحظ أيضاً أنه يسارع بأمر رسول الله إلى ضرب عنق شخصين منهم هما «عقبة بن أبي معيط» و «النضر بن الحارث» (٢) وذلك لقلع جذور الشرك وقمع أبنائه ورؤوسه ولخضد شوكته واستئصال شأفته.

والسر الذي يتجلى لنا واضحاً بيناً من رفض أخذ الأسرى لأنَّ فعل ذلك قبل تثبيت قواعد الإسلام وإرساء دعائمه موهن لقواه ومعفٍ على أسسه ذلك أنَّ الأسرى الذين يخرجون من الحرب المعلنة ضد هذا الدين سالمين بعد دفعهم مبلغاً من المال زهيداً سوف يضرون عليه في المستقبل ويخرجون أشد مضاءً في حربه وأقوى عزيمة على مصاولته ومجاولته وأحكم بصيرة في عداء النبي وإشهار السيوف في وجهه ومقاومة دعوته، وهكذا تمت الحال وجرت على هذا المنوال،

(١) الواقدي: وعمرو بن أبي سفيان صار في سهم النبي' بالقرعة كان أسره علي وأرسله النبي' بغير فدية لسعد بن النعمان بن أكال من بني معاوية خرج معتمراً فحبس بمكة. المغازي ج١، ص١٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٣٦٦ و ٣٦٧.

فإنّ رؤوس الشرك والكفر بعد إطلاق سراحهم استطاعوا ثانية تجميع قواهم بسرعة فائقة وحشدطاقاتهم القصوىفي غزوة أحد ضد رسول الله(ص) والإسلام، وهذا ما كان من أمر الخصوصيةالثانية.

وأما الخصوصية الثالثة وهي «سلامة القلوب من حب المتاع الدنيوي التافه» فإن وضع أميرالمؤمنين(ع) في هذا الشأن أظهر من الشمس في رائعة النهار وشاهد صادق على ما نذهب إليه.

وما تقدم الآن مما قرأته يتضمن معرفة شخصيّات ثلاثٍ من المؤمنين الحقيقيين الذي حضروامعركة بدر.

١ ـ علي بن أبي طالب.

٢ ـ حمزة بن عبد المطلب.

٣ ـ عمار بن ياسر.

عليهم السلام جميعاً.

والرجلان الآخران اللذان كان لهما حضور متميز في وقعة بدر هما المقداد بن الأسود وسعدبن معاذ رضي الله عنهما.

لقد تقدم مما ذكرناه في فصل استشارة النبي أصحابه في أمر القتال وعدمه ما قاله الرجلانللنبي من الحديث المعبأ بالحب والحرارة والرضا والتسليم لأمر النبي(ص) وأن قولهما هذا يدلُّ على بصيرتهما وعن إيمانهما بالإسلام ونبيّه(ص) وموقعهما من هذا الدين، وبناء على هذا يعتبرالرجلان لهما المقام الرابع والخامس في المؤمنين الحقيقيين.

٤ ـ المقداد بن الأسود.

٥ ـ سعد بن معاذ.

٦ ـ عبيدة بن الحارث بن المطلب.

وعبيدة هذا هو المؤمن الأول من بني هاشم الذي استشهد في غزوة بدر.

ولكي نقف على عظم مقام هذا الرجل فعلينا تدبر هذه الفقرة من كتاب أمير المؤمنين لمعاويةابن أبي سفيان «فكان إذا احمر البأس ودعيت إلى نزال أقام أهل بيته فاستقدموا فوقى بهمأصحابه حر الأسنة والسيوف فقتل عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أحد وجعفر وزيد يوم مؤتة .. عليهمالسلام»(١).

وجاء في رواية ابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٨ «... وأيم الله ما رأيت ولا سمعتبأحد كان أنصح الله في طاعة الله ورسوله ولا أنصح لرسول الله(ص) في طاعة الله ولا أصبر علىالبلاء والأذى في مواطن الخوف من هؤلاء النفر من أهل بيته الذين قتلوا في طاعة الله، عبيدة بنالحارث يوم بدر وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد وجعفر وزيد يوم مؤتة ...».

وهنا نلاحظأنّ عبيدة بن الحارث سمي في هذا النص على أنه من المؤمنين الواقعيينوشهادته مساوية في الفضل لشهادة الحمزة(ع)

(١) صفين لنصر بن مزاحم ص٩٠ شرح ابن أبي الحديد ج١٥، ص٧٨؛ بحار الأنوار ج٣٣ ص١١٢.

وهو من مفاخر أهل البيت.

٧ ـ عوف بن الحارث.

٨ ـ معوّذ بن الحارث.

ولهذين الأخوين أخ ثالث يدعى «معاذ بن الحارث» وشهد بدراً أيضاً وكان أحد هؤلاءالإخوة الثلاثة قاتل أبي جهل وموسده الثرى وأمهم جميعاً تدعى «عفراء«.

٩ ـ عبد الله بن رواحة.

والأشخاص الثلاثة كانوا من المؤمنين الحقيقيين واستشهد اثنان منهما وهما عوف ومعوذ فيساحة القتال، وبقي عبدالله بن رواحة على قيد الحياة إلى حرب مؤتة وكان ثالث الأمراء الذيننصبهم النبي(ص) على الجيش بعد جعفر بن أبي طالب(ع) وزيد بن حارثة رضى الله عنه، وقاتل عبداللهرضي الله عنه وأرضاه.

ومن أجل زيادة المعرفة عند القارىء في هؤلاء النفر وفي غزوة بدر خاصة نعرضالرواية التالية من سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٧ وتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري ج٢ ص ١٤٨ بين يدي القارىء فقد روى المؤرخان الرواية التالية:

«... ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل منالصف دعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهماعفراء ورجل آخر يقال هو عبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتم؟ فقالوا: رهط من

الأنصار، قالوا ما لنابكم من حاجة ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله(ص): قم ياعبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا علي» (١).

وتشير الرواية إلى أنَّ الفتيان الثلاثة أول من برز إلى العدو يحملون أرواحهم على راحاتهمولكن الواقدي في مغازيه ج ١ ص ٦٨ والرواة من الشيعة ذكر أنَّ النبي هو الذي دعى الفتيان إليهقبل أن يردهم المشركون صيانة للأنصار أن تبدأ الضربة الأولى لهم لأنه يكره ذلك فدعاهم وأمرهمبملازمة الصف ثم استدعى «عبيدة وحمزة وعلياً» عليهم السلام وأمرهم بمقابلة العدو.

١٠ ـ عمير بن الحمام.

ذكر ابن هشام في «السيرة النبوية» (ج ٢ ص ٢٧٩) وكذلك الطبري في تاريخ الرسلوالملوك ج ٢ ص ١٥٠، عن عمير هذا الرواية التالية:

«قال ابن إسحاق ثم خرج رسول الله(ص) إلى الناس فحرضهم وقال: والذي نفس محمد بيدهلا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

فقال: عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن بخ بخ فما بيني وبين أن أدخلالجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذف

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٦٢٥؛ تاريخ الرسل والملوك، ج١، ص٤٤٧.

التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل»[(١)].

وهذا نموذج إيمان «عمير بن حمام» وكمال محبته.

١١ ـ سعد بن خيثمه، وهذا من المسلمين الأتقياء الذين خرجوا في غزوة بدر طمعاً في الشهادة ونالها كما أراد.

١٢ ـ عثمان بن مضعون.

١٣ ـ مصعب بن عمير.

١٤ ـ أبو الهيثم بن التيهان.

١٥ ـ سهل بن حنيف.

إنَّ هؤلاء الصحابة لم تغرهم الدنيا، ولم يتدنسوا بالنفاق ، ولم نقف من خلال سيرتهم على ما يشير إلى أدنى علامةٍ من علامات النفاق، ولغرض معرفة ذلك أكثر، فلابدَّ للباحث أنْ يرجع إلى كتب الرجال وتراجمهم لدى الفريقين ليقف على حسن سلوك هؤلاء، واستقامتهم وامتداح طريقتهم، رضي الله عنهم وأرضاهم من صحابةٍ لرسول الله(ص).

(١) تاريخ الرسل والملوك، ذكر وقعة بدر، ج١، ص٤٤٨.

القسم التاسع

بحوث من سورة آل عمران

من الآية ٢٨ ـ ٣٢

وهي ذات الصلة بالمنافقين المحترفين

توضيح مختصر عن سورة آل عمران

تعد «سورة آل عمران» من حيث ترتيب النزول ثالث سورة نزلت في المدينة المنورة، فقدنزلت بعد السورتين البقرة والأنفال، وتحتوي بمجملها على مائتي آية.

وأهم آيات هذه السورة وربما بلغت خمسيها اختص في بيان انحرافات أهل الكتاب وإبطالأثر التبشير الذي لجأوا إليه آنئذٍ في قبال الدعوة الإسلامية، واحتواء الشبهات التي راحوا يبذرونهافي عقائد المسلمين يومئذٍ وتخلل هذه الآيات، آيات تتحدث عن عصمة مريم وطهارتها وفضل آلعمران لكي تدفع بالتلميح والكناية تلكم الأفكار الملوثة التي ينسبها اليهود إلى مريم وابنها المسيح(ع).

واختصت ستون آية من أصل مائتين أي ما يقارب الثلث من الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ بغزوة أحدوبيان حال المسلمين الذين حضروا الموقعة.

وذكر فيما تبقى من الآيات جانب من المعارف والعقائد والأخلاق الإسلامية وفي عدد منالآيات بيّن الخالق سبحانه نكات عِدَّة تختص بأدب العبودية.

وما يختص ببحثنا من آيات السورة والتي تتناول الموضوع بصفة مباشرة هي الآياتالمحددة بعدد ٢٨ إلى ٣٢ و ١٢٨ إلى ١٨٠ وسنعرضها فيما يأتي من البحث ونبين حالها.

الآيات:

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾.

ونقول في بحث الآيات أعلاه:

يظهر من سياق الآي ومن فحواها ويستفاد من لوازمها كذلك أن قوماً من المسلمين وبالتعبير القرآني المؤدب «المؤمنين» يقيمون علاقات حميمة مع الكافرين ويتخذونهم إخواناً وأولياء، في حين يتظاهرون بالمحبة الله تعالى ويبرزون له الطاعة والخضوع من عند أنفسهم، ويبدو منهم الجفاء والقطيعة للمؤمنين.

وفي مناخ نفسي كهذا المناخ نزلت الآيات آنفة الذكر لتقريع الفئة المذكورة بخطاب شديد اللحن وتوبيخ ممزوج بالعتاب والغضب، ثم تطلب منهم بنوع من التوجيه تغيير هذه الرؤية المذمومة والاقتصار بميل القلب ومحبته على الله ورسوله، وأن لا يكونوا إلا مؤمنين حقيقيين.

وهنا ينبغي الإجابة على سؤالين منتزعين من متون الآيات

المزبورة وهما:

١ ـ من هم أعضاء هذهِ المجموعة من المسلمين؟

٢ ـ من هم هؤلاء الكافرون الذين أصفاهم هؤلاء الود ومالوا إليهم وأقاموا العلاقات الحسنةمعهم؟!

ومن أجل إيجاد مخرج للسؤال الأول نقول في جوابه:

بما أن الآيات السالفة أطلقت على القوم لفظ «المؤمنين» وألفتت إلى أن سلوكهم مع هذا أخطرسلوك في عدائهم الله ورسوله فلابد من كونهم والحال هذه من فئة «المنافقين المحترفين».

أجل عندما ندقق النظر في الآية التي تقول: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية وهي الآية الثامنة والعشرون ثم الآية التاسعة والعشرون القائلة: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ الآية، ومثلها الآية الثلاثون التي تنص على يوم القيامة وتصورللمرء نفرته من أعماله القبيحة يومئذٍ: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ الآية، وفي الآية الواحدةوالثلاثين تسخر منهم فتقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ الآية، وأخيراً تأتي الآية الثانية والثلاثون لتقوللهم بعد إلغاء كل طهر وفضيلة منهم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

يتبين لنا من مجموع هذه الآيات الزاجرة والناهية والغاضبة والمبكتة التي لا يمكن إطلاقها علىأية فئة من جمهور المسلمين إلا على فئة المنافقين، وهم تلك الطائفة الذين اجتاز نفاقهم الخطوطالحمراء قياساً إلى غيرهم من أخوانهم من ذوي النفاق

وصار أعمق رمزية وأشد خطراً على الإسلام من سواهم.

وهنا نرى الآيات الخمس التي تعلق بها البحث، فإن جزء الآية: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تكرر في حقهم مرّتين، ثم بين الله سبحانه لهم أن استمرارهم على رويّتهم المذمومة تجر إلىخصومة الله لهم وأنه سبحانه يكون خصمهم بنفسه والمحارب لهم وهي الجملة التي لم تنزل فيغيرهم مطلقاً ولم يهدد الله بها أي فئة من الفئات المنشقة على آداب الإسلام، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن الجزء المنير من الآية: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾أخبرهم الله به بصفة جازمة قاطعة أنهم ببقائهم على الحال التي هم عليها وباستمرارهم على النزعةالمذمومة هذه فسوف يقطعون كل علاقة تربطهم بالله، ويبترون حبال المودة بينهم وبينه، ويعفون علىكل صلة تشدهم إليه.

وعندما نمعن النظر بمثل هذا الوعيد الشديد لا نجده جرى في حق أحد سواهم ولا خاطبالله به من عداهم على وجه الإطلاق.

من جهة ثالثة فإن جزء الآية الشريفة﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾وهيالمرقمة برقم ٣١ يشعرنا بأن القَوميتظاهرون بالمحبة ومع ذلك تضرب أحلامهم الآية: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾رقم ٣٢ وتعرب عن كفرهم بصورة مؤكدةثابتة، عند إصرارهم على رويتهم الخبيثة المذمومة.

وتظهر لنا هذه النكات المتقدمة الواحدة تلو الأخرى أن هذه الفئة المعينة ليست سوى«المنافقين المحترفين» وهذا ما اختص

بالسؤال الأول.

وأما ما اختص بالسؤال الثاني ويتضمن بيان الفريق الكافر الذي ربط بينه وبين فئة المنافقين المحترفين العلاقات التي قرّعهم الله عليها ووبّخهم: أي فريق هو ومن أي فصيلة من فصائل الكفار،فقد تعددت فصائلهم وفئاتهم، فنقول لبيان ذلك:

لما كانت الآيات التي نتعرض لبيانها (٢٨ إلى ٣٢) في عداد الآيات التي تصدّرت سورة آل عمران النازلة بعد سورة الأنفال طبقاً للترتيب النزولي للسور، كما نجد تسلسل نزول الآيات الآنفةقبل نزول الآيات الخاصة، ببيان وقعة أحد وهي الآيات (١٢١ إلى ١٨٠) سورة آل عمران، فإذا مااتضح الأمر إلى هنا، فينبغي أن نلم بأولئك الكفار الذين كان المسلمون يتقونهم في ذلك الفاصل الزمني الواقع بين نزول الدفعتين من الآيات، حيث أنّب الوحي أولئك المسلمين الذين اعتمدوا سياسة الملاينة والمصانعة والود والمحبة مع هذا الفريق من الكفار، واستثنى من ذلك صورة واحدةهي التقية «إلّا أن تتقوا منهم تقاة».

ومن الواضح جداً أن المسلمين في هذه الفترة الزمنية الواقعة بين غزوة بدر وغزوة أحد كان خوفهم الأكبر وخشيتهم منحصرة بكفار قريش، لأن المراودة حاصلة بين هؤلاء وما زالت العلائق التي تكونت قبل الإسلام باقية على حالها من حيث الرحم والمصالح والذهاب والإياب منهم وإليهم.

أما يهود المدينة وما حولها فلم يكن المسلمون يخشونهم ومن ثم فلا مصانعة أو مداهنة بينهم،ولا تتصور التقية بينهم في مثل هذا المناخ غير المتأزم.

يؤيد دعوانا هذه ما نزل من الآيات في ذم اليهود وتكذيبهم وثلبهم من سورة البقرة، وهذاشاهد لا يكذب فلو كان لليهود شوكة يتقيها المسلمون لاختلف خطاب الآيات لهم، وعلى العكس من ذلك فقد كان اليهود أنفسهم في خوف ورهب من المسلمين تكشف الآيات التالية عن هذاالواقع:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ٧٧ ﴾ (١).

﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢).

وبهذا يتضح أن أهل الكتاب هم في خوف من المسلمين وهم الذين يتقونهم لشدّة خشيتهم.

أجل إن هؤلاء المعنيين الذين نهى القرآن عن محبتهم ومصانعتهم هم كفار قريش الذين قتل منهم سبعون في غزوة بدر

وأسر منهم سبعون أيضاً فاشتد كلبهم على المسلمين وتوقد أتون غضبهمواشتعل حقدهم عليهم، وكانوا على أهبة الاستعداد لتوجيه ضربة للإسلام قاصمة تأتي على بنيانه منالقواعد وتمحو المسلمين عن جديد الأرض.

ويتضح أمر حقدهم على المسلمين بصفة لا تقبل النقاش بما جروه على المسلمين من تجهيزجيش أحد وقدومهم من مكة إلى المدينة وإيقاد نار الحرب المدمرة، حيث أدّت إلى هزيمةالمسلمين هزيمة نكراء بقيت آثارها ماثلة في حياة المسلمين زمناً طويلاً.

وهنا يكون للتقية معنىً من هذه الفئة من الكفار لأن المراودة بينهما ما تزال على حالها،وهناك احتكاك قائم بين المسلمين والكفار، بفعل الجوار وقرب الدار والعلاقات التي بنتها المصالحالمشتركة بينهما، فكان المسلمون في جيئة وذهوب بينهم وبين المشركين فاستلزم ذلك استعمال التقيةلضمان السلامة من خطرهم وشرهم.

يؤكد ذلك ما كان مشروعاً للمسلمين من التقيّة وهم في مكة قبل الهجرة كما جرى لعمار بنياسر وأبيه وأمه رضي الله عنهم وأرضاهم، والآية التالية تشرح تلكم الكيفية: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١) فقد نزلت في حكم التقية وتأكيد مضمونها ومشروعيّتها، وإمضاء تقية عمارحين اضطر إلى ذلك، وأجاز للمسلمين سلوك جادة التقية بل جعلها لازمة لهم.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

وبناءً على هذا فإن الآيات (٢٨ إلى ٣٢) (سورة آل عمران) وإن توسطت الآيات المختصةبأهل الكتاب إلا أن النكتة المشار إليها وسياق الآيات من أول السورة إلى ما يليها تدلنا على أنَّالقصد من الكفار هم كفار قريش لا غيرهم.

ونكتة أخرى تثبت هذا المطلب بالقطع واليقين وهي الخصوصية الواردة في الآية: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

بيان ذلك أن هذه الخصوصية في الآيات كلها لم تأت إلا في موردين:

المورد الأول في الآيات المشار إليها التي دار حولها البحث.

والثاني الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ سورة النساء وهنا يكون المعنى قطعياً لأنه ظاهر بين من أنالآيات تريد تأنيب «المنافقين المحترفين» حيث اتخذوا من كفار قريش أولياء وأوداء، وقابلواالمسلمين بالهجر والجفاء.

وقدْ مرَّ البحث في الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ من سورة النساء فراجع.

على أننا ذكرنا دلائل علاقات «المنافقين المحترفين» مع كفار قريش ومحبتهم إياهم وميلقلوبهم إليهم في طول الكتاب وعرضه.

وقد مر بنا فيما سبق من الكتاب ذي الصلة ببحث سورة الأنفال وتحقيق أوضاعالمسلمين الحاضرين في غزوة بدر وشاهدنا كيف حاص أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطابعن المواجهة

الساخنة مع كفار قريش وأصرا على الحيلولة دون قيام الحرب، كمارأينا رأي العين علاقة المودة والمحبّة بين رأس الكفر أميّة بن خلف وبين عبدالرحمن بن عوف.

وسيأتي بيان الصداقةالحميمة والمحبة بينخالد بن الوليد وضرار بن الخطاب الفهري وهما رجلان من علية القوم الكافرين مع عمر بنالخطاب في غزوة أحد، وكذلك سيأتي البحث في سورة محمد لبيان كيفية الارتباط السياسي بين المنافقين المحترفين وكفار قريش.

وعلى أية حال، فلا يعترينا الشك في دلالة الآيات (٢٨ إلى ٣٢ سورة آل عمران) علىالعلاقات الودية بين «المنافقين المحترفين» وبين كفار قريش يقابل ذلك عداؤهم الباطني للمسلمينونفرتهم منهم وبغضهم لهم.

وسوف نركز في بحوثنا على هذه النقطة اليقينية والمقطوع بها بغض النظر عن الكفار هل همكفار قريش كما سلف البحث حول ذلك أو غيرهم.

وإلى هنا تم تحقيق الآيات ٢٨ إلى ٣٢ من سورة آل عمران وفيما يأتي سيتم البحث في تحقيق الآيات١٢١ إلى ١٨٠ من السورة نفسها.

المبحث الأول

بحث الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ سورة آل عمران ذات الصلة بغزوة أحد

وقد قسمت المسلمين الحاضرين في الغزوةإلى أربع فئات:

١ ـ الشاكرين أو شهداء الأعمال.

٢ ـ المقتولين في سبيل الله.

٣ ـ المؤمنين التائبون.

٤ ـ المؤمنين غير التائبين وهم «المنافقونالمحترفون أنفسهم».

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
(١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ
تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ
(١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
(١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ
(١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ
(١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ
(١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا
وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ
(١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ
الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ
عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ
النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى
إِذَا فَشِلْتُمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ
مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا
عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ
يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ
وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً
مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا
مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ
كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ
الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ
بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا
مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ
لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ
يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ
تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ

بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) ﴾.

لما كانت الآيات السالفة نزلت في غزوة أحد وتتضمن شرحاً لمجمل أحوال المسلمين الذين حضروا تلكم الغزوة، ولا بد من تقديم موجز عن غزوة أحد كمقدمة بين يدي الآيات الكريمة منتزع من الروايات المعتمدة لدى الفريقين التي تسالم حفاظها على نقلها وتصحيحها أو ترجيحها لكي تتهيأ أرضية البحث حول الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ سورة آل عمران بصورة أجلى وأتم، ولكي نتميز بجلاء وضع «المنافقين المحترفين» يومذاك، الذين أعربت عنهم الآيات بالشكل الذي أدركه القارىء من سياقها.

وكانت غزوة أحد على النحو التالي:

لما هزم كفار قريش في وقعة بدر هزيمة نكراء، فقتل منهم سبعون وأسر سبعون من كبار القوم وذوي الجاه منهم، عقدوا العزم على تلافي الهزيمة في العام القادم وهي السنة الثالثة للهجرة فتجهزوا أحسن جهاز واستعدوا استعداداً تاماً للحرب، وأقبلوا من مكة ينحون المدينة حتى بلغوا جبل أحد وهو على بعد فرسخ من المدينة، ويقع في شمالها وأقاموا هناك يومين اثنين بل أياماً ثم نشبت الحرب بين العسكرين في ذلك المكان، وسميت الحرب حرب أحد باسم ذلك الجبل وكانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة.

وكان عدد مقاتلي قريش ثلاثة آلاف مقاتل بعدة حسنة وجهاز للحرب تام، وقد اقتضاهم الزمان والمكان أن لا يفرطوا في العدة، وأن

تكون لهم قوة دفاع جبارة.

وعمد قادة قريش ورؤساؤها إلى حمل نسائهم معهم لتشجيع المقاتلين وإنكاء نار الحماس فيهم وللنوح على قتلى بدر ورثائهم لتحريك الغيرة في نفوس القوم من أجل الإقبال على القتال بحماس وجدّية.

أما المسلمون فقد دار بينهم في بدء الأمر جدال طويل حول البقاء في المدينة أو الخروج إلى العدو وكان جماعة منهم يتحرقون شوقاً للقتال ويهيمون وجداً بالشهادة والقتل في سبيل الله مما حمل النبي(ص) على الإذن بالقتال خارج المدينة والذهاب إلى جبل أحد لخوض المعركة، وبلغ عدد جيش المسلمين الذين خرجوا للعدو ألفاً من الرجال ولكن عبدالله بن أبي سلول وهو رجل معروف بالنفاق عاد بثلث العدد إلى المدينة بزعم أنهم خالفوا رأيه في البقاء داخل المدينة والقتال فيها، فلم يشترك معهم في الحرب، وعاد معهم كل رجل يجد مسّ النفاق في نفسه. وهؤلاء هم «المنافقون العاديون» الذين أظهروا نفاقهم تبعاً لعبدالله بن أبي سلول وهو الوجه البارز بينهم وامتازوا عن المسلمين.

تبعهم فريق آخر لم يكونوا منافقين ولكن أذهلتهم عدّة قريش وملأ الخوف نفوسهم فلم يواصلوا رحلة الحرب وعادوا من حيث أتوا بعد أن فتّوا في عضد المسلمين، ولكن الله تداركهم فمحى ما في قلوبهم من الفزع وحفظ الإيمان فيها، فكروا بعد الفرار واصطحبوا إخوتهم المسلمين لأنّهم لم يكونوا من أهل النفاق، وقصدوا مثلهم ميدان

القتال ونقص عدد المسلمين إلى سبعمائةشخص.

ولما دخل النبي(ص) ميدان القتال وألقى نظرة فاحصة على موقع العدو وشاهد بنفسهالشريفة قوّة تحصيناته، اتخذ وأصحابه موقعاً في المعركة بحيث يكون جبل أحد وراءهم وجبل«عينين» على يسارهم والمدينة أمامهم.

وكانت ثغرة في جبل «عينين» يمكن أن يجتازها العدو إليهم ويحمل عليهم من ورائهمفاستدعى النبي «عبدالله بن جبير» ومعه خمسون رجلاً من الرماة وأمره بالمقام في ذروة الجبللكي يحولوا بين العدو وبين تخطى الثغرة وقال لهم: إياكم ومغادرتها غلبنا أو غلبنا، وعليكمبالمرابطة هنا حتى يأتيكم أمري، لأن العدو سوف يغتنم الفرصة ويحمل علينا من ورائنا إن أنتمتركتم مواقعكم.

وبدأت الحرب، فكانت الريح في أولها للمسلمين، وقتل الإمام أمير المؤمنين الرجالالشجعان من جيش العدو، ووقع اللواء من أيديهم فلم يتمكن أحد من حمله، ولم يجد العدو حيلةأمامه سوى الهرب فولى هارباً وأبدى المسلمون من الشجاعة ما لم يتصوره العدو وشرعوا في جمعالغنائم، وهنا تحرك الرماة لمغادرة الموقع حين شاهدوا الغنائم في أيدي إخوانهم فتسللوا الواحدتلو الآخر حتى خلت الثغرة منهم، وصاح بهم عبد الله بن جبير: ويلكم، أمر رسول الله فلا تخالفوه،ولكنهم لم يعبأوا بندائه وكان خالد بن الوليد وهو أحد القادة في جيش العدو على ميمنته، ولما شاهدخلو الموقع وانشغال الرماة بجمع الغنائم حمل بفرسانه على عبدالله بن جبير ومن بقي معه

فأرداهم قتلى، وتحدّر على المسلمين من الخلف فلم يشعروا بالجيش إلّا وقد علاهم، وفعل عكرمة ابن أبي جهل وكان على الميسرة فعل خالد، وهنا تراجع الفارون من عسكر العدو وهم يشاهدون لواءهم يخفق مرة أخرى وأحاطوا بالمسلمين مع خالد وعكرمة واعترضوهم بسيوفهم فقتلوا قريباً من سبعين رجلاً وجرحوا الكثيرين.

وفرّ الباقون خلافاً لما أمرهم القرآن به من الثبات وعدم الهرب، حتى بلغوا مشارف المدينة وكان عثمان بن عفان منهم طبقاً لما رواه الفريقان(١).

وقصد العدو رسول الله(ص) وتعمد التركيز عليه وكان النبي تحت لواء الأنصار وكان المدافعون عنه أكثرهم من الأنصار وكان جل الشهداء منهم رضي الله عنهم، ولم يقتل من المهاجرين إلّا أربعة أنفس منهم سيدنا الحمزة عليه السلام وسيدنا مصعب بن عمير ﷺ، والذي قتل مصعب كان يظنه رسول الله(ص)، من ثم رفع عقيرته منادياً قتلت «محمداً»، وما إن أشيع قتل النبي بين الناس حتى وقع ما بأيدي المسلمين ولاذ من ثبت منهم بالفرار، ولم يثبت مع النبي فيما اتفق عليه الفريقان سوى أمير المومنين(ع) ولم يجمع المسلمون على ثبات غيره مع النبي.

وهنا نشاهد الآيات الكريمة ذكر المنافقين بالذم والتقريع مع أن

(١) وكذلك فرَّ أخواه أبو بكر وعمر، ولكن عثمان طال فراره في الأعرض حتّى عرَّض به النبي' بقوله: ذهبت بها عريضة.

المنافقين العاديين عادوا قبل اندلاع الحرب مع عبد الله بن أبي سلول ولم يشهدوا القتال ولكن القرآن الكريم ما زال يقرع المنافقين ويصفهم بالأوصاف المذمومة المنفرة التي لا تنطبق إلا على «المنافقين المحترفين» وينعت الفارّين منهم بما يستحقونه (الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ سورة آل عمران).

أجل سوف نميط القناع عن وجوههم عند مزيد التوضيح للآيات الشريفة.

وعلى أية حال لما رأى النبي المسلمين يفرون من القتال جماعات جماعات نادى الفئات القريبة منه التي تسمع نداءه لأنهم ثبتوا قليلاً فكانوا آخر الفارّين، فصاح بهم: «معاشر المسلمين إليّ إليّ أنا محمد ولم أقتل، عباد الله إلى أين تفرون» ولكن القوم قد ملأ الرعب نفوسهم فلم يلقوا بالاًلنداء النبي وواصلوا الركض نحو أهليهم، وعلم بعض المسلمين في هذه الأثناء أن النبي لم يقتل لذلك أسرعوا بالعودة إليه.

اتفق الرواة على ثلاثة منهم وهم أبو دجانة الأنصاري وسهل بن حنيف وعاصم بن ثابت.

ولما خمدت نار المعركة أخذ الرجل والرجلان والثلاثة يرجعون إلى النبي(ص) وهم في ألهوحياء مما أتوه من تركهم النبيّ وحده، وفرارهم عنه، إلا أن بعضهم لم يظهر عليهم شيء من الحياءوكان الكفّار بعد الذي جنوه من النصر قد حزموا أمتعتهم وركبوا رواحلهم وعادوا إلى مكة وقد قتلواسبعين مسلماً ومثلوا بجثثهم تمثيلاً

همجياً.

وفي اليوم الثاني أمر النبي الجرحى بتضميد جراحهم وتعقيب العدو ففعلوا ذلك وتعقبوا العدومع رسول الله(ص) .

وبلغ بهم النبي حمراء الأسد التي تبعد عن المدينة ثمانية أميال وكان كفار قريش وقد بلغواالروحاء قد عقدوا العزم على مباغتة المسلمين بالكر عليهم ولكنهم لما علموا بتعقب المسلمين لهمإلى حمراء الأسد ملأ الرعب نفوسهم وأقلعوا عما نووا وقصدوا مكة على فرق من المسلمين.

وعاد النبي من حمراء الأسد بعد مضي يوم أو يومين مع من كان معه من المسلمين دون أنْ يلقى قتالاً.

وهذه حكاية غزوة أحد على سبيل الاختصار طبقاً لما رواه الفريقان.

وأما ما كان له صلة بالهوامش وهو التعرف على المسلمين المشاركين في الحرب فإنّالتعاليق التالية تختص بالآيات (١٢١ إلى ١٨٠ من سورة آل عمران) وسوف نجري مزيد بيانوتوضيح لها.

وفيما يلي تفسير مختصر للآيات السالفة:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

يظهر من كلمتين في قوله تعالى﴿والله سميع عليم﴾ضمن الجملة«والله سميع عليم»بوضوحأن عدد ممن حضر الموقعة مع رسول الله كانوا يضمرون في قلوبهم مناوئة النبي ومخالفته

وهويسوي الصفوف وينظمها لخوض القتال، وكانوا على كره من القتال خارج المدينة، ورأيهم مخالف لرأي النبي وفي قلوبهم عقد مضمرة، تدل على ذلك الآيات التالية:

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ* وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ* بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ* لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾.

ولنتدبر في الآيات الكريمة:

يظهر لنا من مجموع الآيات الكريمة الأمور التالية:

١ ـ يظهر على الآيات طابع التوبيخ واللوم والتقريع للمسلمين الذين حضروا واقعة أحد ولايستشم منها دليل واحد على مدحهم أو الثناء عليهم أو إكبار جهودهم وبناءً على هذا فإن قوماًأرادوا انتزاع المدح من جملة«والله وليهما»الواردة في الآية (١٢٢) ولكنهم أخطأوا الحق فإنّ مجيء هذه الجملة في سياق الآية آنفة الذكر دليل على كونها للذم للا للمدح.

٢ ـ يظهر من الآيات أن رضى الله ورسوله في وقوع الحرب خارج المدينة ولكنّ قوماً لايريدون ذلك ولا يحبّونه لذلك تراهم في خصام وجدال مع النبي(ص) فجاءت الآيات لتأنيبهموتذكيرهم بحرب بدر وما جرى فيها من النصر على العدو مع كره هؤلاء القوم للقتال

وإرادتهمتعطيله.

وبناءً على هذا نقطع بوضع الروايات العامية التي تصور النبي كارهاً للقتال خارج المدينة وأنَّ رأيه متفق مع رأي عبدالله بن أبي سلول، وشيوخ المهاجرين والأنصار الذين كانوا يحبذون القتالداخل حدود المدينة، وينأون عن مقارعة العدو حيث معسكره قائم، فلا صحة لهذه الروايات وإنَّما وضعها جهاز وضع الحديث الملحق بجهاز الخلافة العام.

أجل فإنَّ جهاز الوضع هذا حين شاهد الشيوخ من المهاجرين والأنصار يعزفون عن الحربـمع العدو وينأون بأنفسهم عن مقارعة الخصم كما صرح بذلك الواقدي في كتاب «المغازي» ج١ص٢١٠، فقال: وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله(ص) من المهاجرين والأنصار،وأن الآيات الكريمة تسفه آراءهم وتكذب توقعاتهم، لذلك عمدوا إلى الوضع لتفادي خزي أولئكالمشيخة مديرو جهاز الخلافة بجعل النبي شريكاً لهم - وحاشاه - في ذنبهم.

والعجب في الأمر أن جهاز الوضع الآنف الذكر كلما تمادى به الوقت كان أقدر على إحكامالوضع وعلى تثبيت موضوعاته وضبطها.

كما رأيت من الواقدي وهو من كتاب السيرة حين يذكر تلكم الروايات يلحقها بقوله: وكانذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله(ص) من المهاجرين والأنصار.

لكننا عندما نقرأ سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وغيرهما من

كتاب السيرة نرى أن الجملةالمذكورة لا وجود لها في كتبهم وقد حذفت قصداً لئلا يلحق برواة الحزب الحاكم نقص من نقولهم (ونعني بالحزب الحاكم ما كان يعبر عنهم بشيوخ المهاجرين، وأظهر أفرادهم هم الخلفاء الثلاثة).

ولكن روايات الشيعة تنص على أن النبي من أول يوم كان يرى إجراء القتال خارج حدودالمدينة ولذلك أخذ يحرض المسلمين على ذلك ويأمرهم بالخروج إلى حرب العدو حيث يتواجدكما ذكر ذلك البحراني في تفسير الآية (١٢٣) من كتاب البرهان عن علي بن إبراهيم قال: فلما بلغرسول الله(ص) ذلك جمع أصحابه وأخبرهم أن الله قد أخبره أن قريشاً قد تجمعت تريد المدينةوحثّ أصحابه على الجهاد والخروج(١)(٢).

٣ ـ المطلب الثالث المستفاد من الآيات الموضحة له والكاشفة عنه أن الطائفتين اللتين وردذكرهما في الآية ١٢٢ هما غير المنافقين العاديين أي عبد الله ابن أبي سلول وأصحابه، لأن مفادالآيتين ١٦٧ و ١٦٨ من سورة آل عمران وسوف يأتي بيانهما وترجمتهما يدل على أن عبدالله بنأبي سلول وأتباعه وهم «المنافقون العاديّون» تقاعدوا عن مصاحبة النبي وعزفوا عن خوضالمعركة معه فما شاركوا في أولها ولا آخرها بخلاف هاتين الطائفتين فقد ذكرت الآية

---

(١) يمكنكم ملاحظة هذهِ الروايات الموضوعة في سيرة ابن هشام ج٣، ص٦٧ و ٦٨ «**مغازي الواقدي**» ج١، ص٢٠٩ و ٢١٠؛ تاريخ الطبري ج٢، ص١٨٨ و ١٨١؛ الدر المنثور ج٢، ص٦٧ و ٦٨ وغيرها من الكتب المختصة.

(٢) البرهان، ج١، ص٣١٠.

١٢٢ ضعفهماوتخاذلهما عن الحرب مع وجودهما في الصف ولم تذكرهما الآية فيمن ترك الحرب وعاد أدراجهكما فعل ابن أبي سلول وأتباعه.

ونجد في الروايات العامّية إشارة موضحة إلى هاتين الطائفتين فقد سمتهما الروايات وهماعبارة عن «بني سلمة» بطن من الخوارج و «بنو حارثة»بطن من الأوس وكلاهما من الأنصارولكننا عندما نمعن النظر في استعمالات القرآن وطرائق توظيفه للألفاظ الدالة على أكثر من معنىنراه لم يستعمل لفظ الطائفة فيما اصطلح عليه بالقبيلة أبداً بل حين يستعمل هذه اللفظة إنّما يريد بهاالجماعة الذين يؤلف بينهم اتجاه واحد أو فكر واحد أو هدف واحد كأن يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (١).

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ (٣).

وبناءً على هذا يقتضي أن يقف الباحث موقف الشك من هذه الروايات العامية ولايجد مندوحة من رميها والشطب عليها كالروايات السابقة لأنّها موضوعة، ولا يداخله شك علىأن هاتين الطائفتين لا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٥٦.
(٣) سورة المزمل: الآية ٢٠.

يعدوان «المهاجرين» و «الأنصار» الذين جنحوا مع شيوخهم واتحدوا معهمفي الفكر والاتجاه، وكانوا يعارضون قتال العدو خارج حدود المدينة ويخافون من خوض المعركةهناك.

٤ ـ المطلب الرابع المستفاد من الآيات أن النبي(ص) وعد المسلمين النصر كما وعدهم فيغزوة بدر شريطة تحليهم بالصبر والتقوى وأن لا يعطوا العدو ظهورهم كما جاء في الآية (١٥٢) منالسورة نفسها﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾الآية، وسوف نبينها فيما بعد،وهذه الآية تفيد معنى النصرة التي مرّت في حرب بدر.

٥ ـ يستفاد مما مضى لا سيما ما ذكرناه في الرقم (٣) أن المنافقين العاديين عبدالله بن أبيسلول ومن لف لقه، كانوا قد أعلنوا العصيان ومعارضة الحرب في أحد من أول وهلة وكشفوا عننفاقهم ابتداءً وأبوا المشاركة في الحرب بحال من الأحوال، وتبين من هذا أن المنافقين العاديينأعلنوا عدم المشاركة في الحرب منذ البداية ولكن هناك فئتان من المسلمين هما عبارة عن:

١ ـ المؤمنون الواقعيون الذين فوضوا أمرهم إلى الله وأطاعوا أوامره واتبعوا رسوله ورضوا بالمواجهة مع العدو خارج المدينة حيث المنطقة التي يحتلها الآن.

٢ ـ والفئة الثانية هم أولئك الذين يتظاهرون بالإيمان ويعدون من المؤمنين ولكنهم يأبونالطاعة لله ورسوله وينأون عن الجهاد بين يدي النبي وليسوا على استعداد للتضحية كما أنهميرفضون القتال

خارج أسوار المدينة، وهاتان الطائفتان هما اللتان اشتركتا في القتال فلننظر باقي الآيات ذات الصلة بواقعة أحد ما الذي تقضي به على هاتين الطائفتين مع اختلاف مراتبهما بالنسبةللمنتسبين إليهما من الأفراد في «التسليم» وعدمه.

ثم إنّ لغة الوحي تواتر نزول الآيات بشأن المسلمين المشاركين في الموقعة فتقول:

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين* إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين* وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين* أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين* ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾.

يظهر لنا جلياً من هذه الآيات الخمس:

١ ـ أن عدداً من المؤمنين الذين كانوا يصرون قبل وقوع الحرب على المجابهة خارج المدينة قد نقض عزمهم واهتمامهم في الدفاع عن الإسلام بعد القتال والهزيمة واستشهاد تلك الدفعة من الأحبة وجرح آخرين منهم وأصابهم الوهن مما أنزله بهم العدو فاستولى عليهم من ذلك حزن ثقيل.

من هذه الجهة فإنّ الله تعالى يعظهم وعظاً ممزوجاً بالتوبيخ والتأنيب ويأمرهم أن لا يسلطوا على أنفسهم الوهم وأن لا تهي عزائمهم وتضعف إرادتهم من هذه الضربات التي تلقوها بسوء تصرفهم لأنّ العزة والرفعة لهم إنْ كانوا مؤمنين.

٢ ـ ثم يعلن لهم عن الهدف الأصلي من هذه الابتلاءات إنما هو الاختبار والامتحان، وأن الأيام والدول والسرور متداولة بين الناس لكي يميز الله المؤمن من الكافر ويمحص المؤمنين بمعرفة درجاتهم وتفاوت رتبهم ليلحق صاحب الإيمان الخالص بركب الشهداء على الناس وعلى أعمال الخلايق وأنت ترى أننا هنا فسرنا كلمة شهداء لا بمعنى المقتولين بل المراقبين لأعمال الخلايق لأنَّ لفظ شهيد لم يطلق في القرآن إلا على هذا النمط من الناس أما إطلاقه على المقتولين في ميادين الجهاد فإنما هو اصطلاح إسلامي مستحدث.

أجل وتجد في القرآن الكريم من أوله إلى آخره التعبير عن المؤمنين المقتولين في ميدان الحرب بلفظ «**الذين قتلوا في سبيل الله**» و«**من يقتل في سبيل الله**» كما يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢).

٣ ـ يستفاد من الآية «١٤٠» أن من بين المؤمنين الحاضرين في وقعة أحد واحداً أو جماعة بلغوا رتبة الشهداء على الأعمال لكونهم أدّوا واجبهم خير أداء وعملوا بما عهد إليهم من الوظائف

(١) سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٥٤.

وثبتوا في المحنة وتحملوا شدائد الابتلاءات بصبر وجلد.

والآن لننظر إلى أين تصل بنا التحقيقات القادمة في معرفة هؤلاء الأفراد وما الذي نحصل عليه بالقطع واليقين من معرفة واقعهم.

٤ ـ يستفاد من الآيات أعلاه ١٤٠ و ١٤٣ أن المسلمين الذين أحزنهم غلبة المشركين وداخلهم الوهن في حماية دين الله ومازج إرادتهم الضعف هم من المؤمنين الذين فوضوا أمرهم إلى الله ورضوا بما رضيه الله ورسوله لهم وكانوا على أتم الاستعداد للحرب خارج المدينة حيث تقع مواقع العدو، لأنه:

أولاً: جاء في الآية ١٤٣ التصريح بكونهم كانوا يتمنون الموت والشهادة في سبيل الله قبل لقاء العدو ولاشك من أن هذه الصفة هي صفة المؤمنين الواقعيين.

وثانياً: تصفهم الآية بأنهم قدموا قرابين في الحرب وقتل منهم من قتل وجرح من جرح ومن الواضح الجلي أن هذه الصفة هي صفة تلك الفئة من المسلمين الذين تحملوا عبء الحرب وقابلوا العدو وجهاً لوجه وكانوا في شوق عارم لهذه المواجهة وقد أبدوا بسالة وثباتاً يفوقان غيرهم من سائر المشاركين وبالطبع لا تكون هذه الروح إلا عند المؤمنين الواقعيين.

أما أولئك الذين لم يسلموا أمرهم لله ولم يرتضوا بما رضيه الله ورسوله لهم وما كانوا على استعداد للبذل والعطاء فمن المقطوع به أن يكون هؤلاء أول الفارين ولم يثبتوا في ميدان الحرب لينالهم السيف في

القتل أو الجرح.

ومن البديهي أن هذه الفئة الثانية لا يهمها أمر الإسلام منذ البداية من ثم تتصدر القائمة فيالفارّين من المواجهة قبل غيرها ثم لا ينالها حزن على الإسلام وإنْ حلَّ به ما حل من العدو وكانوافي بداية أمرهم متراخين عن الدين بعداء عنه لا يريدون حمايته والدفاع عنه، وليس لهم إرادةتقتضيهم تقديم شيء من أنفسهم في سبيل الله ولئن كانت هزيمة أحد قد خلفت أثراً بيّناً في نفوسهم فإنَّ ذلك لا يعدو تنكرهم للإسلام وخروجهم عليه وعودتهم للجاهلية الأولى مرّة أخرى، ويمكنهمالالتجاء إلى رؤوس قريش لحمايتهم وصونهم عما يلحق بهم من الأذى عندما يعودون إلى حضيرةالكفر وتستردّهم الجاهلية.

ويؤيدنا على هذا المذهب الآيتان التاليتان:

١ -﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْوَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾.

٢ -﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْيُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾.

ولا بدع أن تفيد الآيتان مارتا الذكر ما يلي:

١ ـ يظهر أن جماعة بعينها ارتدّوا عن الإسلام حين شاع خبر قتل النبي(ص) أو أنهم أزمعواالارتداد، وينبغي أن يكونوا متميّزين بصفاتهم عن تلك الفئة التي ذكرتها الآيات الشريفة الخمس (آيات ١٣٩ إلى ١٤٣) فقد أثبت هذه الآيات أولئك الذين تقاعسوا عن

نصرة الدين وظهر عليهم العجز والكلال. ولكن علتهم موجة الحزن من غلبة العدو فوبخهم القرآن ولامهم لوماً شديداًوقرّعهم تقريعاً صعباً.

لأنَّ إظهار الحزن من غلبة العدو وتصور العجز في النفس من ردعه شأن، وعقد العزم على تركالدين والارتداد عنه شأن آخر، والحالة الأولى لا ضير من حدوثها للمؤمن الواقعي ولا مانع منذلك فيما إذا انتابته عوامل عِدَّة وهو لا يزال في حظيرة استغفاره وندمه على ما فرَّط في جنب الله، ولكن الحالة الثانية لا تجامع الإيمان ولا يمكن أن تخامر نفس المؤمن الواقعي.

ولما كان المنافقون العاديون أي عبدالله بن أبي سلول وأتباعه بمنأىً عن الاشتراك في حربأحد فلابدَّ من وضع العلامة وهي الارتداد عن الإسلام أو عقد العزم على ذلك، على فئة أخرى منالفئات التي شاركت في الحرب مع المجاهدين جنباً إلى جنب ولكنها لم تخلص لله ولرسوله ولاسلمت أمرها لهما ولا رضيت بالمواجهة خارج المدينة، وهذه الفئة لا تعد في المنافقين العاديين،ولا هي بطبيعة الحال من المؤمنين الواقعيين فلابدَّ من كونها من «المنافقين المحترفين» بالقطعواليقين، وفي اصطلاح القرآن الكريم﴿الذين في قلوبهم مرض﴾، وهذا هو اسمهم المميّز.

نعم أولئك هم «المنافقون المحترفون» وهم المتميّزون بحدة الذكاء والفطنة بين جماعتهم، لأنإسلامهم منذ البداية متصل بنواياهم في اغتنام فرص المستقبل، ويريدون بهذا العزم الوصول إلىالهدف،

ويوطئون لأنفسهم في السيادة على المجتمع الإسلامي، كما بيّنا ذلك فيما سبق من مباحث الكتاب.

ومن الضروري أن تطير أحلامهم في عصف رياح الهزيمة في وقعة أحد ويرون أنفسهم وقدخسروا الشوط الذي حدثتهم به أنفسهم بعد إخفاق الدين وقتل نبيه، لا ملجأ لهم إلا بالعودة إلىموقعهم الأول في عالم الجاهلية واستعادة مكانتهم بين إخوانهم الأول من الوثنيين المشركين لذلكتراهم قد سارعوا إلى أحضان الجاهلية فرموا بأنفسهم بين يديها وارتدوا عن الدين الذي بنواعليه الأحلام ثم هدم بقتل نبيّه(ص).

والآيات التي تتضمن شرح حالهم من بين الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ سورة آل عمران باستثناءالآيتين هي الآيات ١٥٤ و ١٦١ و ١٦٢ وسنتكلم عن هذا الموضوع بتفصيل أكثر.

٢ ـ والمطلب الثاني الذي يستفاد من الآيتين الشريفتين هو أنّالله تعالى استثنى فئة من الفئاتالمذكورة بالآيات وسماها «فئة الشاكرين» وهي المتصفة بخير الصفات إذ لم ترهب الموت في هذاالسبيل ولا الجرح ولم يداخلها الحزن ولا دخل عليها الوهن والضعف في الدفاع عن الدين (كالوهن الذي دخل على المؤمنين الراغبين في مواجهة العدو خارج حدود المدينة) ولم يطرأعليها الانقلاب الحادث في نفوس «المنافقين المحترفين».

ولذاترى الآية ١٤٥ وهي ثاني آية من الآيات المذكورة حين قسّمت الناس إلى قسمين:

١ ـ «من يرد ثواب الدنيا» الذين يطلبون الدنيا ويرهنون ألبابهم عندها.

٢ ـ «ومن يرد ثواب الآخرة» الذين مالوا إليها واشتاقوا إلى نعيمها جعلت الشاكرين من القسم الثاني الذين يريدون ثواب الآخرة، ولابدَّ من كونهم من المؤمنين قطعاً، فيقول بصفة مطلقة عن هؤلاء ﴿وسنجزي الشاكرين﴾.

والآن علينا معرفة المعنى في كلمة الشاكرين بصورة أسمى في اهتمامات القرآن الكريم ليتميز سمو مقام الشاكرين عن المؤمنين، يقول الله في عرض قصة إبليس:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(١).

نفس المضمون ورد في الآية ٨٢ و ٨٣ من سورة «ص» حيث تلاحظ أنَّ كلمة مخلصين جاءت بصيغة اسم المفعول (بفتح اللام ـ المترجم) فهم في حرز من إغواء الشيطان ولا سبيل له على المعصومين.

من جهة أخرى نرى المعنى نفسه يتكرر في الآيتين ١٦ و ١٧ سورة الأعراف بوجه آخر: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

---

(١) سورة الحجر: الو[illegible] ٣٥ ـ ٤٠.

فتجد هنا المخلصين أنفسهم المستثنين من غواية الشيطان في سورة الأعراف ذكروا هنا باسمالشاكرين ويثبت من ذكر الجملة ولا تجد أكثرهم شاكرين أنهم في حرز من إغواء الشيطان وفيهذه المقارنة نجد الشاكرين هم أنفسهم المخلصين الذين شملتهم عناية الله وقد ذكروا بتعبير أسمىفي هذه العبارة وهم أقلية ممتازة جداً «من المؤمنين الحقيقيين» الذين خرجوا من محيط الإغواءبما أوتوا من العصمة.

وعلى أية حال، عندما نعلم بعناية القرآن الخاصة أن الشاكرين وهم التعبير الأسمىللمخلصين، هم أولئك الذين حازوا مرتبة العصمة نعلم لزوماً أنَّ الشاكرين المذكورين في الآيتين١٤٤ و ١٤٥ (سورة آل عمران) هم عيناً الشهداء على أعمال الخلايق الذين ورد ذكرهم في الآياتالأربع قبل هذا المورد، وبالتحديد آية (١٤٠) لأنَّ من لم يبلغ درجة العصمة لا ينال صفة الشهادةعلى الأعمال.

ويتأكَد مما قلناه لحدٍّ الآن أن من بين المؤمنين الحاضرين في غزوة أحد فرداً أو أفراداً بلغوا رتبةالشاكرين وكانوا شهداء على الأعمال وقد نالوا درجة العصمة ماداموا أحياءاً ونجوا من غواياتإبليس لعنه الله.

ومن الضروري المقطوع به أنَّ صاحب هذه الصفات كان فرداً أو كانوا أفراداً فوضوا أمرهمإلى الله من أول أمرهم ورضوا بما رضيه الله ورسوله ومن ثم عقدوا العزم على مناجزة العدو خارجحدود المدينة في الموقع الذي يقيم فيه ثم إن هذا النمط من

الفئات لا يفر من مقارعة العدو فيساحة الوغى ولا يفزع من الشهادة أو يخاف الجراحة ولا يداخله الوهن والخور في الدفاع عندين الله، لأنَّ طرو مثل هذه الحالات وإنْ كان مسّاً طفيفاً مناف للعصمة ومسقط لرتبة الشكر والشهادة على الأعمال.

ولما كان هذا النمط مخلصاً وليس للغواية الشيطانية سبيل إليه لا يشمله شيء من تأنيب الآيات (١٢١ إلى ١٨٠ سورة آل عمران) التي شملت المسلمين الحاضرين في غزوة أحد، وإطلاقها عليه مع من عنت الآيات لا معنى له ثم نجد بعد ذكر عدد من الآيات ونزولها في تربية المؤمنين على أثر ما حلَّ بهم من ضعف وخور أزاء الدفاع عن الدين وحمايته خاطب الله المقاتلين في ساحة الوغى بقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ

الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) ﴾.

وهنا لابدَّ من الوقوف على هذهِ الآيات الكريمة لنستفاد منها:

ما يستفاد من الآيات آنفة الذكر ١٥٢ إلى ١٥٥ سورة آل عمران هو عبارة عن:

١ ـ مضمون الآية (١٥٢) قابل للتطبيق على قصة عبدالله بن جبير والرماة الخمسين الذينأثبتهم النبي(ص) في الثغرة وأمرهم بحمايتها من الاختراق، ولكنهم حين شاهدوا غلبة المسلمينوهزيمة الكفار وقع اختلاف فيما بينهم بين البقاء أو النزول للاغتنام فعصى الأكثرية منهم أمر النبي(ص) وأخلوا مواقعهم ونزلوا من أعلى الجبل طمعاً في حيازة الغنائم والتحقوا بالمسلمين الباقين.

فلما رأى صنيعهم خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبي جهل تمكنوا من اجتياز الثغرة وحملواعلى المسلمين من خلفهم فحلت بالمسلمين الكارثة المعلومة.

فعرّفت الآية الكريمة عصاة أمر النبي وهم الأكثرية ب «منكم من يريد الدنيا» ووصفت القلةالثابتة بقولها: «ومنكم من يريد الآخرة«.

٢ ـ الآيتان ١٥٣ ـ ١٥٤ قسمت المسلمين الذين شهدوا المعركة وعصوا أمر اللهورسوله وفروا من ساحة الوغى إلى طائفتين:

الأولى المؤمنون النادمون والعائدون إلى النبي بعد الفرار حين علموا بحياته وأنه لم يقتل كماأشيع عنه.

الثانية هم المصرون على ما فعلوا الذين لم يعتريهم الندم ولا عادوا بعد هزيمتهم ولا رجعواإلى النبي بعد فرارهم وإن كانوا قد علموا بحياته وأنه ما يزال بين ظهراني أصحابه، فلم يأسفوا علىما فعلوا بل ركبوا رؤوسهم مصرين على عصيانهم ثم اعتبر القرآن الكريم الغم الذي اعترى الطائفةالأولى نعمة من الله شملت حالهم لتمحو الغم المتقدم المنافي للعبودية والطاعة لله تعالى والتكفير عنه.

ثم يضيف موضحاً أن نعاساً لذيذاً غشيهم إلى جانب النبي مصحوباً بالأمن والسكينة بعد ذلكالغم المريع.

هذا ما تقدم من شأن «المؤمنين» الذين فرّوا من ميدان القتال ثم رجعوا إليه بعد علمهم بحياةالنبي(ص)، نادمين حزانى يعضون أصابع الندم معلنين التوبة والندم على ما فرط منهم.

ولكن الطائفة الثانية: عرفهم الله بالآية التالية: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾فلم يعترهم ندم على فرارهم ولا استحيوا من رسول الله حين عصوا أمره ولميتمتعوا بتلك السكينة والنعاس اللتين نالهما المسلمون بعد العودة فحسب بل ذهبوا إلى مدىً أوسعفإنَّ الآية ١٥٤ تثبت أن هؤلاء عراهم الإلحاد بالله وإنكاره والكفر به وعاودهم الظن الذي كانوايظنون به وهو ظن الجاهلية الأولى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾!

هؤلاء هم نفس الجماعة قطعاً الذين أخبرت الآية التالية عن

ارتدادهم: ١٤٤ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّارَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، وعن تصميمهم علىالرجوع إلى الدين الجاهلي بعد سماعهم خبر قتل النبي(ص) .

وأيضاً هم أنفسهم الذين ذكرت الآية ١٦١ و ١٦٣ أنهم نسبوا الخيانة إلى رسول الله(ص)في الحرب.

٣ ـ وما كان قطعياً بالنسبة للدلالة الآية (١٥٥) وهي آخر آية من الآيات الأربع المذكورةأعلاه أن جميع المسلمين المشاركين في غزوة أحد الفارين من الزحف بعد ظهور العدو عليهم يعدون مذنبين ذنباً كبيراً فادحاً ويوصف ذنبهم بالكبيرة طبقاً لما أثبتته الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ* وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاًإِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١) .

وبناءً على هذا فإن المؤمنين الذين ثابوا إلى النبي بعد الفرار ثابوا نادمين على ما فعلوا قدعلاهم الحزن مما ارتكبوا من العصيان والذنب العظيم، فقبل الله توبتهم وغفر ذنبهم ولكنّ طائفة أُخرى لم يتغيروا ولا ندموا ولم يعترهم الحزن لذلك شملتهم الآية﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ والتدبر في الآيات ١٢١ إلى ١٨٠ يعطي دلالة قاطعة على أن ذنوبهم لم تغفر ولم تقبل توبتهم.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٥ ـ ١٦.

لننظر فيما نجد من التحقيقات بعد هذا الفصل في هؤلاء الذين لم تقبل توبتهم من هم وإلى أية فئة يرجعون.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾.

إن ما يستفاد من دلالة الآيات آنفة الذكر (١٥٦ إلى ١٦٠) أن الفئة السالفة الذين يألمون لوقوع القتل فيهم ويتحدثون عن النبي بحديث أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام فيؤذون بذلك النبي(ص)ليسوا من المؤمنين الذين ثابوا إلى رشدهم وتابوا واستغفروا ولم يكونوا ممن تاب أو غفر له، لأنَّ دلالة الآية الثانية: ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ وهي الآية ١٥٣ يثبت لنا أنَّ نزول «الغم الثاني» على هؤلاء المؤمنين قد ذهب بالغم الأوّل المتكون من الألم والحزن والحسرة على قتلاهم وبناءً على هذا فإنَّ فحوى الآية على أنَّ أفرادها هم من نوي الفرار عن الزحف، وقد دلت عليهم الآية ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾(١).

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

ولا يمكن أنْ تفوتنا الإشارة إلى: أن فئةالفارين من الزحف المنقسمين إلى تائبين ونادمين ومصرين غير تائبين تتفاوت درجاتهم بالإيمان،فمنهم المسمى مؤمناً الذي بلغ إيمانه إلى دركة الارتداد وكان مصداقاً تاماً لقوله تعالى: ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾وهؤلاء كما ذكرت الآيات هم الذين نسبواالخيانة إلى النبي(ص) وحاشاه مما يقول المنافقون.

وإلا فإن أفراد الفئة الآخرين لم يصل إيمانهم إلى حدود الارتداد فلا يعتبر خوفهم علىأنفسهم ولا غمهم ولا حسرتهم ارتداداً بل ما دون الارتداد.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) ﴾.

والآيات الأربع أعلاه تظهر بوضوح انحطاط تلكم الفئة الحاضرة في موقعة أحد التي آذتالنبي إلى هذا الحد حيث نسبوا إلى ساحته القدسيّة الخيانة، والواقع أن مقابلة النبي إياهم باللطف معما بدر منهم من إساءة أدب وتطاول على مقامه الشريف دليل على صدق نبوته.

ومن المقطوع به أن هذه الخيانة المنسوبة إلى مقامه ـ أكرمه الله منها ومن كل سوء ـ لا تختصبرعاية الحرب ولا بإدارة شؤونه ولا

بسير المعركة أو وضع الخطط لنجاحها لأنه(ص) بذل من الرعاية والدقة والخطط ما لا يحده وصف، وشاهد الجميع الخطة المحكمة التي وضعها النبي مماأدّت في البداية إلى النصر المبين، ولولا ما فعله الرماة في الثغرة من مخالفة أمره لما تغير وجه المعركة ولكان النصر لعسكر النبي مضموناً وحتمياً.

وبناءً على هذا ينبغي أن ينظر وجه آخر لهذه الخيانة التي ألصقوها إذ يعود ذلك، أنَّ ذلك يعود إلى ماكانوا يرونه من الإقامة في المدينة وإدارة القتال فيها وعدم الخروج إلى الجبل لأنهم لا يحبذون مواجهة العدو في الحرب وجهاً لوجه.

وهذا هو كما قال الواقدي رأي أكابرهم وشيوخهم من المهاجرين والأنصار في المكث داخل المدينة.

والآن حين انقلب وجه المعركة لصالح العدو وقتل من المسلمين سبعون وجرح منهم جماعات كثيرة فقد وجد المعارضون الفرصة سانحة فأطلقوا لألسنتهم العنان في لوم النبي وإلصاق الهزيمة به وعبروا عنه بخيانة الأمة.

تعساً لهؤلاء المتظاهرين بالإسلام الذين ينسبون لنبيّهم الخيانة، من ثم تغيّرت سجية «جهاز وضع الحديث الملحق بالخلافة» بعد وثوبهم على الحكم ونيلهم ما تاقت إليه أنفسهم من أسرّة الخلافة فرأوا أن نسبة الخيانة إلى النبي يضر بشأن خلافتهم (لا سيما والتهمة صادرة من أكابر القوم- المهاجرين والأنصار - والحزب الحاكم منهم) فعمدوا إلى سيرتهم الأولى من وضع الحديث، فنقلوا مسرح

الأحداث إلى غزوة بدر لا غزوة أحد وزعموابأنّ قطيفة حمراء غلّت وخفي أمرها علىمسؤولي الغنائم فقال قائلهم: إنّ النبي غلّها فأنزل الله سبحانه قوله:﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾لكي يبرأساحة النبي من هذا الاتهام الكاذب.

[والأحاديث الموضوعة في هذا الشأن يمكن العثور عليها في الجزء الثاني من تفسير الدرالمنثور ص ٩١ فلاحظها هنا](١) ومن الواضح أن الآية لو كانت مختصة بغزوة بدر لكانت نازلة فيتلك الأيام وليس بعد مرور عام على اتهام القوم للنبي(ص) ولنزلت في سورة الأنفال ولما كانتتنزل بين الآيات المختصة بغزوة أحد من سورة آل عمران، وحينئذٍ نصل إلى درجة القطع واليقين أنّ الآية نزلت في مناسبة إلصاق تهمة الخيانة بالنبي في «غزوة أحد» وأن

---

(١) وإليك جملة من هذهِ الموضوعات:

أخرج أبو داود وعبد بن حميد والترمذي وحسنة وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق مقسم عن ابن عباس قال: نزلت هذهِ الآية وما كان لنبي أنْ يغل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر قال بعض الناس: لعلّ رسول الله أخذها فأنزل الله وما كان لنبي أنْ يغل.

وعن سعيد بن جبير، قال: نزلت هذهِ الآية: وما كان لنبي أنْ يغل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من الغنيمة.

وبسنده عن ابن عباس قال: فقدت قطيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المشركين فقال بعض الناس لعلّ النبي' أخذها فانزل الله وما كان لنبي أنْ يغل قال خصيف فقلت لسعيد بن جبير ما كان لنبي أنْ يغل بنصب الياء ورفع الغين.

والروايات في ذلك كثيرة وربما عبروا ببعض الناس عن عمر أو غيره ممن له منزلته؛ لانه لو كان القائل من سائر الناس لذكروا اسمه.

راجع: الدر المنثور، ج٢، ص٩١، ط دار المعرفة ـ بيروت.

الذين اتهموا النبي(ص) هم أولئك القوم النازل فيهم قوله تعالى: ﴿أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾، ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ* الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فالذي يظهر من هذهِ الآيات مارة الذكر لاسيما الآيتان (١٦٧ ـ ١٦٨) أنّ المنافقين العاديين وقدأحصتهم الأدلة السابقة حصرت أسماءهم وهم عبدالله بن أبي سلول وأتباعه، لم يشاركوا في غزوةبدر من يومها الأول واعتزلوا الحرب، وبناءً على هذا ثبت بما لا يقبل الشك أنّ الآيات ١٢١ إلى١٨٠ التي توبخ القوم المشاركين في الحرب من سورة آل عمران غير الآيتين المذكورتين ويختلف التوبيخ فيهما عن التوبيخ في تلكم الآيات فإنهما تماماً نازلتان في غير المنافقين المذكورين يقيناً حتّى جاء التوبيخ فيها على النحو التالي:

١ ـ لماذا غلبكم الحزن من انتصار العدو عليكم وضعفتم عن نصرة الدين وأصاب عزائمكم الخور والوهن (الآيات ١٤٠ ـ ١٣٩ و ١٤٦).

٢ ـ لماذا ارتددتم عند سماعكم نبأ مقتل النبي او نويتم الارتداد (آية ١٤٤).

٣ ـ لماذا عصيتم النبي بترك مواقعكم على ثغرة الجبل (آية ١٥٢).

٤ ـ لماذا ظننتم بالله ظن الجاهلية الأولى (آية ١٥٤).

٥ ـ لماذا فررتم من لقاء العدو في ساحة الوغى وارتكبتم جريمة كبرى وهو الفرار من الزحف(آية ١٥٥).

٦ ـ لماذا نسبتم قتل إخوانكم في الدين والإيمان لغير إرادة الله تعالى وتقديره وتدبيره)آية١٥٦).

٧ ـ كيف نسبتم الخيانة إلى رسول الله(ص)(آية ١٦١ و ١٦٢) لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

وهذه التوبيخات كلها نزلت في المنافقين غير العاديين لأنها بأجمعها توبخ قوماً حضرواالموقعة وشاركوا في الحرب في حين أنَّ أولئك المنافقين العاديين لم يحضروا الحرب إطلاقاً.

ونستفيد من كيفيّة التوبيخات أنها ليست على نحو واحد لذلك نضطر إلى اعتبار ما كان أسهلوقعاً منها وأدنى إلى البساطة، ويمكن حمله على المؤمنين بالنظر لاختلاف مراتب الإيمان عندهم،متوجهاً إلى المؤمنين الحاضرين في غزوة أحد ولكن النمط الآخر من التأنيب الذي يستحيل صدورأسبابه من المؤمنين الواقعيين وهم القوم الذين سلموا أمرهم إلى رسول الله حباً به وإيماناً بدعوته،ومثل هؤلاء لا يصح منهم نسبة الخيانة إلى سيد البشر(ص)، ويستحيل ارتدادهم بعد سماعهم بنبأموته أو أن يظن بالله والرسول

بعد الإيمان بهما ظن الجاهلية الأولى، ويكون بعد هذا البيان التوبيخ بالضرورة منصباً على من نطلق عليهم المنافقين المحترفين.

وبعبارة أخرى: إنّ التأنيب المستفاد من الآيات مورد البحث يمكن حمله على أهل المحبة مع اختلاف مراتبها بالقدر الذي يجوز شرعاً حمله عليهم وحينئذٍ يندرج تحت مفهومه المؤمنون الحاضرون في المعركة ولكن القدر الذي يمتنع حمله عليهم منه لاشك في انصرافه إلى المنافقين المحترفين لأن سائر المنافقين ليس لهم حضور في المعركة.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يظهر من هذه الآيات الثلاث بوضوح أن بين القتلى من حرب أحد فريق يعدون «أولياء الله»؛ لأنّه مضافاً إلى استبشارهم بنعمة الله وفضله الذي قُسم لهم فإنّ الآية (١٧٠) تفيد بأنهم من الشهداء على أعمال المؤمنين من بعدهم «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

ومن الواضح أنّ هذا المقام في الاصطلاح القرآني هو مقام «أولياء الله» كما يقول سبحانه: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

(١) سورة يونس: الآية ٦٢.

ولما كانوا شهوداً على مقام المؤمنين بعدهم فلابدَّ من كونهم في ذلك المقام ليكونوا شهوداًعليه.

وأما قولنا إنّ جماعة ممن قتلوا في حرب أُحد هم أولياء الله لا كل من قتل فإنَّ علة ذلكواضحة:

أولاً: تشهد لنا أحاديث الفريقين أنَّ بعض من قتل لم يكن مؤمناً راجع ص ٢٦٣ من الجزءالثاني من المغازي للواقدي وص٩٣ الجزء الثالث من سيرة ابن هشام وص ٢٠٩ الجزء الثانيتاريخ الطبري، وغيرها، فقد نص هؤلاء على أسماء بعض المقتولين في غزوة أحد وأن أصحابهااعترفوا قبل خروج أرواحهم أنهم إنما حاربوا حمية للقبيلة والنسب ولا إرب لهم في الدينوالإسلام لأنّهم لا يؤمنون به.

وثانياً: يوضح لنا المطلب أكثر قيد في «سبيل الله» الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾وما جاء في سائر الآيات حول ذلك، فإنَّه خير شاهد علىَ ما نقول، لأنّها ضابطة القتل في سبيل الله والوصول إلى رتبة «أولياء الله» لا تنطبق على كل قتيل اللّهمَّ إلّا على قتيلقادته محبة الله ورسوله إلى بذل نفسه وإلى الشهادة، وإلّا فإنَّ الأمر واضح وضوح الشمس إذليسَ كل مقتول ما لم تكن نيته متمحضة لله ولاءاً ومحبة يعتبر مقتولاً في سبيل الله بمجرد وقوعه قتيلاً فيميدان المعركة وبناءً على هذا فإنَّ الأمر يرجع إلى الله ورسوله فمتى أخبرا عن شخص بعينه أنه يحبالله وله مقام الولاية والطاعة فإن المرء يقر مطمئناً بكونه من أولياء الله وإلّا

فليس من المعقول بذلهذا المقام العظيم لكل أحد لكونأنّه قتل في الميدان، فإنّ هذا مجرد دعوى لا دليل عليها، أجلبلغنا ثناء رسول الله(ص) على عدد من الشهداء نظير الحمزة بن عبد المطلب وإخوانه وسوف يأتيالحديث عنهم إن شاء الله تعالى﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَأَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْإِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوارِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

يتجلى لنا من الآيات الثلاث آنفة الذكر، أن الجماعة الذين تعقبوا العدو بأمر رسول الله بعدانتهاء الحرب هم من المؤمنين الجرحى في الغزوة وليس كل من حضر الحرب لأنّ القيد المذكور فيالآية خير شاهد على ما نقول وهو قوله تعالى:﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾وتأتي الآية عقب ذلك:﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾فتبين من ذلك الذين أمروا بتعقيب العدو هم المؤمنون الجرحى، وهذا الجانب من الروايات مذكوربكتب الشيعة صراحةكما جاء في كتاب «البرهان» في تفسير الآية (١٤٠) (سورة آلعمران) من تفسير علي بن إبراهيم القمي فإنه قال:

«فلما دخل رسول الله(ص) المدينة نزل عليه جبرئيل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تخرجفي أثر القوم، ولا يخرج معك إلّا من كانت به جراحة، فأمر رسول الله(ص) منادياً ينادي: يامعاشر المهاجرين والأنصار من كانت به جراحة فليخرج ومن لم تكن به

جراحة فليقم»[(١)].

وفي بحار الأنوار: روى عن تفسير النعماني الخبر التالي:

أوحى الله تعالى إلى رسول الله(ص) أن أخرج في وقتك هذا لطلب قريش ولا يخرج معك من أصحابك إلا من كانت به جراحة، فأعلمهم بذلك فخرجوا معه على ما كان بهم من الجراح حتى نزلوا منزلاً يقال له: حمراء الأسد[(٢)]

والملاحظ في روايات الشيعة أن الخروج لتعقب العدو اقتصر على الجرحى من المقاتلين لكن جهاز الوضع الملحق بجهاز الخلافة لما شاهد أن القضية تحيق برجال الحكم من أمثال أبي بكر وعمر ولا دليل على أنهما نالتهما جراحة في الحرب ومن جهة أخرى فإن الاشتراك في تعقيب العدو مسلوب عنهما، لم يجد وسيلة في درء ذلك عنهما ومن لف لفهما إلا بالوضع والتحريف، لذلك حرَّفوا نداء رسول الله(ص) للمسلمين يومها إلى الصورة التالية:

«...وأذّن مؤذنه(ص) ألا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس»[(٣)].

تلاحظون كيف حرفوا النداء فجاء مكان قوله: «لا يخرج معنا إلا الجرحى» كما ورد ذلك في روايات الشيعة، جاءت رواية جهاز

---

(١) البرهان، ج١، ص٣١٧.

(٢) بحار الأنوار، طبعة جديدة، ج٢٠، ص١١٠، ح٣٥.

(٣) ج٢، ص٢١١ سيرة ابن هشام، ج٣، ص١٠٧؛ كتاب المغازي، ج١، ص٣٣٤؛ الدر المنثور، ج٢، ص١٠٢.

الوضع على النحو التالي: «لا يحضر معنا إلا من حضر يومنابالأمس» ليكون لغير الجرحى أيضاً نصيب في تعقيب المشركين ويفتح الباب على مصراعيه فيوجه رجال الحكم.

ومن حسن الحظ أن جهاز الوضع يفضح كذبه بنفسهوكلما رقع جانباً انخرق جانب غيرميدلٌ على كذبه ولما عجز عن استيعاب التأريخ كلّهُ وعن إنزاله على فحوى كذباته فإنّ القضيةأفصحت عن كذبه ووضعه من موضع آخر، وذلك أن التاريخ المكتوب بيده والمنقول عنه ينص على أنَّ رسول الله(ص) خرج في تعقيب العدو مع سبعين رجلاً حتى بلغ بهم «حمراء الأسد»(١).

ومن الواضح أن المتعقبين بناءً على الأحاديث المحرفة ينبغي أن يكونوا جميع المقاتلين فيحرب أحد وهم أكثر من السبعين بينما نراهم ينصون على هذا العدد فحسب وهو عدد الجرحىوحدهم وهذا لا يصح إلا على ما رواه الشيعة هذا ما كان من شأن نزول الآيات السالفة من سورة آلعمران التي تحكي قصة المسلمين الذين شاركوا في غزوة أحد وتبين عن وضعهم النفسي والأدبي.

والآن نتعرض لخصوصيّاتهم الإيمانية على أساس فهرسة مختصرة ثم نعمد إلى تحقيقات الغزوةالتاريخية حتى نحصل على معرفة تامة لجميع الفرق المشاركة في الغزوة ونميط الستار عن«المنافقين المحترفين» الحاضرين في تلك الغزوة فتتجلي لنا حقيقة المنافقين

---

(١) يمكنكم ملاحظة الأحاديث الخاصة بهذهِ الغزوة في تفسير السيوطي، الدر المنثور آية ١٧٢ من سورة آل عمران.

وتاريخهم الذي ورد ذكره في سورة آل عمران.

الفئات المقاتلة في وقعة أحد:

إنَّ الذي استفدناه من البحث والتحقيق حول الآيات السالفة (آيات ١٢١إلى ١٧٤ سورة آل‌عمران) أنّلغة الوحي قسمت الطوائف المقاتلة (باستثناء المنافقين العاديين لأنّهم لم يشاركوا فيالحرب من رأس وهم عبد الله بن أبي سلول وأتباعه) إلى أربع طوائف:

١ ـ «الشاكرين وشهداء الأعمال» الذين بلغوا مقام العصمة.

٢ ـ «المقتولين في سبيل الله» الذين بلغوا رتبة أولياء الله.

٣ ـ «المؤمنون التائبون» الذين عادوا بعد هزيمتهم في الحرب إلى رسول الله مسرعين يعلوهم الحياء والندم مما فعلوه.

٤ ـ «المسلمون غير التائبين» وبعبارة أُخرى «المنافقون المحترفون» هؤلاء وإنْ عادوا إلىرسول الله بعد فرارهم من ساحة الحرب فإنهم ما عادوا نادمين ولا عرفوا للندم طعماً وإنما عادوابنفوس جاهلية قد نخرها سوس الشرك وعبث بها وباء الكفر.

الطائفة الأولى: وهم عبارة عن الشاكرين وشهداء الأعمال، وهؤلاء ينبغي أن يحوزواالصفات التالية طبقاً لما حُقق من الآيات الكريمة بصفة حتمية:

أولاً: ينبغي أن يكون من بداية الحرب يميل إلى إدارة القتال خارج حدود المدينة.

ثانياً: أن لا يكون قد فر أثناء القتال ولا في أي وقت آخر.

ثالثاً: لم يطرأ عليه الوهن والخور بعد الجرح في الدفاع عن الدين.

رابعاً: مع ما وصل إليه من الجراح الصعبة فإنه أمر بتعقيب العدو.

خامساً: تطلب شهادة القرآن والرسول بحقه بأنّه معصوم ومخلص بصيغة «اسم المفعول»وإلّا ففي غير هذه الصورة لا يمكن تحقيق مقام كهذا لأي شخص كان على وجه الأرض.

الطائفة الثانية: «المقتولون في سبيل الله»: وهؤلاء ينبغي أن يحوز كل فرد منهم الصفاتالثلاث التالية:

أولاً:ميله منذ البداية في القتال خارج حدود المدينة.

ثانياً:أنْ لا يكون فرّ من ميدان الحرب وأن يكون ثابتاً مستسراً في القتال حتى الشهادة ولا تفارقه الاستقامة.

ثالثاً: أن يحضى بثناء الله ورسوله عليه لكي يعلم أنه مقتول في سبيل الله، وإلّا فليس في مجردالقتل دلالة على أنه في سبيل الله ما لم يحز ثناء الله وثناء رسوله عليه.

الطائفة الثالثة: وهم المؤمنون التائبون وينبغي أن تتوفر فيهم الخصوصيّات التالية:

أولاً: ميلهم في البدء إلى الحرب خارج المدينة حيث يقيم العدو.

ثانياً: وإذا ما حدث الحرب وولى هارباً منها فإنّه من اللازم عودته على عجل دون أن يتمادىفي الفرار، ويعود تائباً نادماً ويلتحق برسول الله(ص).

ثالثاً:لابدَّ من تعرضه لغشية النعاس الذي غشيهم لمدة قصيرة.

رابعاً: أن يتعقب العدو وهو مجروح بأمر النبي(ص).

الطائفة الرابعة: وهم المسلمون غير التائبين وبعبارة أخرى «المنافقون المحترفون» طبقاً لمااستفدناه من الآيات مورد البحث والتحقيق، ويكونوا مصاديق للنقائص التالية مع اختلافهم فيالمراتب والدركات:

أولاً: هلعهم الشديد من مواجهة العدو وإصرارهم على مقاتلته داخل حدود المدينة.

ثانياً: هربهم من الحرب بعد إحساسهم بغلبة العدو من غير أن يجرحوا ولئن نال أحداً منهمجرح ما فإنّه على أثر الفرار من الزحف أو كون ذلك اتفاقياً ولم يكن على أثر الثبات والاستقامةومجاهدة العدو.

ثالثاً: ارتدادهم عن الدين بمجرد سماعهم نبأ قتل النبي(ص) ومضيهم في الارتداد وعودتهمإلى دين الجاهلية.

رابعاً: جبن قوم منهم بعد انتهاء الحرب، وعلمهم بحياة النبي(ص)، فهم وإن عادوا إلى النبي لمبركبهم الندم من ارتكابهم كبيرة «الفرار من الزحف» ولا من ارتدادهم ولا من إرادتهم ذلكومضيهم عليه.

خامساً: لم يغشيهم النعاس بعد عودتهم إلى النبي ولم يذوقوا نعمة الأمن زمن طرو النعاس عليهم بل كانوا عرضة للأرق والقلق من شدّة الخوف الذي مازج أخيلتهم ولما خامرهم من خيالات الجاهلية الأولى سلب منهم هذا النعاس القصير اللذيذ الذي أمن به المؤمنون التائبون حينما استولى عليهم.

سادساً: لما كانت هذه الفئة لا تحبذ خروج النبي والمؤمنين من المدينة للقتال وكانوا من أول الحرب يفزعون من مواجهة العدو وجهاً لوجه خارج المدينة والآن لما آلت الحرب إلى ما آلت إليه ومالت الكفة لصالح العدو أطلقوا ألسنتهم في لوم النبي وتأنيبه وبلغت بهم الحالة أن نسبوا إليه خيانة الأمة وحاشا مقامه من ذلك.

وهذه هي الخصوصيات الإيمانية واللاإيمانية التي تحلى بها المسلمون الذين اشتركوا في حرب أحد تستفاد من الآيات (١٢١ إلى ١٧٤ من سورة آل عمران) وذكرنا ملخصه على شكل فهرسة.

والآن نشرع في البحث التاريخي حول المطالب التي رسمنا هيكلها قبلاً وسوف نتعرف على أفراد كل طائفة في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني

فئة الشاكرين والفرد المقطوع به منهم

لا يوجد بعد رسول الله(ص) وهو «المصداق الأتم» لفئة الشاكرين والشهداء على الأعمال الذين شهدوا وقعة أحد كعلي بن أبي طالب(ع) إذ هو المصداق الأتم لأهل هذه الفئة وهذه المعارف الإسلاميّة الدائرة بين القرآن والسنة تمثله على الاتصاف بهذه الصفة خير تمثيل، لأنَّ الخصوصيات الخمس لم تكن لشخص حضر الموقعة يومئذٍ إلّا لرسول الله(ص)، فهي له بصورة مسلمة، وليس لأحد سواه. ولا تصدق على أحد بعده صدقها على ابن عمه أمير المؤمنين ومن كان له إلمام بأخبار الفريقين فإنّه يرى ذلك ماثلاً للعيان من أنّ أعظم الناس بطولة وأعظمهم تضحية وفداء يومئذٍ هو علي بن أبي طالب(ع) وهو الرجل الوحيد الذي اتحدت نظرة المسلمين إليه وأجمعوا عليه وعرّفوه بالجامع لهذه الصفات التي اقتسمها مع النبي(ص).

وما من داع يدعونا لذكر السند التاريخي في هذا الموضوع لأن من كان له أدنى اطلاع على ذلك يدرك فحوى ما نقول، ومن رجع إلى المصادر التاريخية عند العامة أو الخاصة يعرف وضوح الأمر لديها ويصل إلى المعرفة اللازمة له في هذا الشأن، ولكن من أجل أن يتزين كتابنا بجملة منها نسوق انموذجين أدناه كشاهد على ما نقول:

١ ـ روى الطبري في تاريخ (الرسل) الأمم ـ المؤلف (والملوك) ج ٢ ص ١٩٧: حدثنا أبوكريب قال حدثنا حبان بن علي عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: «لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية أبصر رسول الله(ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبدالله الجمحي قال: ثم أبصر رسول الله(ص) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي: احمل عليهم فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي.

فقال جبرئيل يا رسول الله(ص) إن هذهِ للمواساة، فقال رسول الله: إنه مني وأنا منه فقال جبرئيل وأنا منكما».

ونلاحظ أنَّ الإمام قتل حملة الألوية بأجمعهم وهم شجعان قريش وأهل النجدة فيها، مضافاً إلى ما يصده عن رسول الله من هجوم الفرق التي تقصد رسول الله بذاته ويبدد جمعهم ويفرقهم ويشتتهم ويقتل أبطالهم وقرومهم، ولقد بلغ صدق جهاده مع رسول الله ودفاعه عنه حداً أن صدقه جبرئيل الأمين ملاك الوحي وكلله رسول الله بجملة «**إنه مني وأنا منه**» وفيها دلالة على وحدتهما واتحادهما وتشابه ذاتيهما.

٢ ـ ابن أبي الحديد: في شرح نهج البلاغة ج٣ ص٤٠١ يقول: فجميع من قتل من المشركين يوم أحد ثمانية وعشرون قتل علي(ع) منهم ما اتفق عليه وما اختلف منه اثنى عشر، وهو إلى جملة القتلى كعدة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ وهو قريب من

النصف».

أجلْ إنَّ المصادر الموثقة عند الفريقين توضح بجلاء أن علياً كما كان في غزوة بدر بطل‌الجهاد الوحيد في طريق الحق كان في غزوة احد البطل الوحيد في ميدانها مضافاً إلى اشتدادالمصائب والكوارث على الثابتين مع رسول الله بفعل الفارين يوم أحد كانت أعظم وأجل منها في حرب بدر فظهرت لعلي بطولات في هذه الغزوة أعظم مما ظهرت له في غزوة بدر وهنا لابدَّ من التنويه هنا إلى:

إنَّ الناظر في الروايات العاميّة يجد الرواة قد صنعوا لأبي دجانة الأنصاري وهو رجل من‌أنصار الخزرج حضر غزوة أحد شخصية تمثيلية وكل من اطلع على هذه الروايات سيجد أنَّ شخصية أبي دجانة مساوية لشخصيّة علي بن أبي طالب وفي هذه الروايات: أن النبي كما أعطى‌علياً سيفاً يدعى ذا الفقار وأظهر فيه البطولات الخارقة فقد أعطى أبا دجانة السيف نفسه وكان قدْ منعه كل من سأله إياه ولم يجد له كفوًا إلا أبا دجانة.

ونذكر هنا رواية ابن إسحاق في هذا الموضوع أخذاً من تاريخ الطبري:

«... فقال رسول الله(ص): من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام‌إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بني ساعدة فقال وما حقه يا رسول الله(ص)، قال: أن تضرب بهفي العدو

حتى ينحني فقال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله فأعطاه ... إياه»[(١)].

في هذه الروايات يكون أبو دجانة كعلي بن أبي طالب يحمل على كتائب جيش العدو ويبددشملهم ويفرق جمعهم فيقتل من العدو ويجرح حتى يحمي رسول الله(ص)، وهكذا أظهرت الروايات أبا دجانة بهذا المظهر وجاء في سيرة ابن هشام عنه:

«.. وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس»[(٢)(٣)].

واعتبروا أبا دجانة خير من قاتل في حرب أحد فقد قالوا في حقه: «فوالله ما رأيت أحداًقاتل أفضل من قتاله»[(٤)].

فكان أبو دجانة أشجع من قاتل في حرب أحد وقتل كل من لاقاه في الحرب «فجعل لا يلقىأحداً إلّا قتله»[(٥)].

وفي هذه الروايات ـ بخلاف جميع الروايات التي كرّم رسول الله وجبريل بها علي بن أبيطالب(ع) ـ فقد وضعوا على لسان النبي تنقصه وحاشاه من ذلك وتجد ذلك في «كتاب المغازي» ج١ ص ٢٤٩ «سيرة ابن هشام» ج ٣ ص ١٠٦ «تاريخ الطبري» ج ٢ ص ٢١٠.

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢، ص١٩٥.

(٢) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٧٢؛ تاريخ الطبري، ج٢، ص١٩٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٥٨٩ ط١٣٨٢هـ القاهرة مطبعة المدني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد والطبري، ج٢، ص١٩٦.

(٤) كتاب المغازي، ج١، ص٢٥٩؛ شرح نهج ابن أبي الحديد، ج٣، ص٣٧٤.

(٥) سيرة ابن هشام، ج٣، ص٧٣.

وخلاصة الحديث أن «جهاز الوضع الخليفي» صنع من أبي دجانة في الروايات السالفة رجلاًمرادفاً لعلي بن أبي طالب(ع).

إننا لا نريد أن نحط من قدر الرجل فلسنا قائلين بتفاهة شأنه وحاشاه، ولا نريد إظهار تواكله أو وهنه في غزوة أحد كلا فروايات الفريقين عموماً تثني على شجاعته واستقامته وهو واحد من أولئك الذين بكّروا بالرجوع إلى النبي(ص) بعد الفرار من الزحف.

ولكنّ أصل الحكاية أن روايات العامة لما بالغت فيه إلى حد الغلو، علمنا أن لجهاز الوضع الخليفي يداً في الموضوع حتى يقيموا لعلي نظيراً في الحرب في البسالة والبطولة وعندئذٍ تضيع الحقيقة من مشاهد الإمام أمير المؤمنين وبطولاته في ركام الروايات الموضوعة.

وأدلُّ دليل على ما ذهبنا إليه أن أرباب المغازي والسير حينما ذكروا المقتولين من الكفار بأسمائهم في غزوة أحد لمْ يكن لأبي دجانة(١) ذكر متميز في قتلهم مثلاً نرى ابن هشام عندما يعدد المقتولين من الكفار يسند قتل رجل واحد إلى أبي دجانة مع أن مقتضى الحال أن يكون القتلى من الكفار نظراً للروايات التي ضخمت مشاهده أكثر من ذلك بكثير في غزوة أحد وأن تطغى على كتب المغازي والسير.

وعلى أية حال: إن ما ذكرناه من مشاهد علي(ع) يكفي في

---

(١) راجع سيرة ابن هشام، ج٣، ص١٣٤ و ١٣٥.

إثبات الخصوصيّات الأربع المختصة بالشاكرين وشهداء الأعمال في ذات علي(ع).

وأما ما يعود للخصوصيّة الخامسة (وهي عبارة عن شهادة الله ورسوله بعصمته وكونه من المخلصين(اسم المفعول) فإننا نسوق الآيات التالية على أساس الفهرسة ونلفت عناية القارىء للآيات التي تثبت تلكم الخصوصيّة.

١ ـ آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(١).

٢ ـ آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(٢).

٣ ـ سورة الإنسان: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً* يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾، وهكذا تطرد الآيات في ذكر هذه المعاني السامية إلى قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً* إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾.

وهنا نصل إلى ختام البحث التاريخي المتصل بالفئة الأولى ونعود كرة أخرى إلى حديثنا الأول ونؤكّد فنقول: لا نجد بعد النبي(ص) مصداقاً أتم للشاكرين وشهداء الأعمال في غزوة أحد كما نصت على ذلك البراهين الرسمية من الكتاب والسنة ولا نجد

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٥.

مصداقاً أتم وأكمل يستوعب هذا المعنى كله إلا على بن أبي طالب وقد كان حاضراً في غزوة أحد.

المبحث الثالث
"المقتولون في سبيل الله"
وسمات الفرد المقطوع بكونه منهم

وأما ما يعود إلى الفئة الثانية «وهم المقتولون في سبيل الله» فنحن عندما نجري تحرياًتاريخياً حول الموضوع فلا نعثر على فرد تتجمع فيه كل الصفات وكل السمات المطلوب تحققها فيالمقتولين في سبيل الله، كما أعربت عن ذلك روايات الفريقين إلّا حمزة بن عبد المطلب عم النبي(ص).

ذلك أن الخصوصيات الثلاث التي لابدَّ منها لهذه الفئة، وهي:

١ ـ رضاه وقبوله للقتال خارج المدينة حيث يتمركز العدو.

٢ ـ ثباته في ساحة الوغى وعدم هربه مع من هرب والتفافه حول النبي لحمايته وللشهادة بينيديه بصبر واستقامة.

٣ ـ شهادة النبي له وصحة قتله في سبيل الله مؤكّداً ذلك من النبي نفسه(ص) بصورة كاملة.

والآن نشير إلى نموذج من المستندات التاريخية حول ذلك:

١ ـ روى محمد بن عمر بن واقد في «كتاب المغازي» ج ١ ص ٢١٠ الرواية التالية:

وقال رجال من أهل السن أو أهل النية) منهم جعفر بن عبد المطلب وسعد بن عبادة والنعمانبن مالك بن ثعلبة في غيرهم من

الأوس والخزرج إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهناالخروج إليهم جبناً عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا.

«فقال حمزة بن عبد المطلب والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهمبسيفي خارجاً من المدينة.

وهنا نلاحظ أنَّ حمزة يصر على القتال خارج المدينة ومواجهة العدو حيث يقيم مواقعه.

٢ ـ يقول ابن هشام في السيرة النبوية (ج ٣ ص ٧٤) نقلاً عن «وحشي» قاتل الحمزة(ع):

«قال وحشي غلام جبير بن مطعم والله إني لأنظر إلى حمزة يهدّ الناس بسيفه ما يليق به شيئاًمثل الجمل الأورق إذ تقدّمني إليه سباع ابن عبد العزّى فقال له الحمزة: هلم إلي ياابن مقطعة البظور،فضربه ضربة فكأن ما أخطأ رأسه وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه فوقعت في ثنتهحتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فغلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتيثم ...»(١).

والرواية نفسها يرويها الطبري في تاريخه ج ٢ ص ١٩٩(٢).

ويروي الواقدي في المغازي الرواية التالية ج ١ ص ٢٩٠: ويقال: لما أصيب حمزة جاءتصفية بنت عبد المطلب تطلبه فحالت

(١) سيرة ابن هشام ج٣، ص٩٠ ٥ ط١٣٨٢هـ القاهرة مطبعة المدني.

(٢) الطبري، ج٢، ص١٩٩ الأعلمي بيروت.

بينها وبينه الأنصار فقال رسول الله(ص) دعوها فجلست عندمتبكي فجعلت إذا بكت بكي رسول الله(ص) وإذا نشجت ينشج.

«وكانت فاطمة بنت النبي(ص) تبكي وجعل رسول الله يقول: لن أصاب بمثل حمزةأبداً...»(١).

تشاهدون هنا كيف ذرف رسول الله الدمع لحمزة وقوله: لن أصاب بمثل حمزة أبداً كناية عنأن مصيبته عظيمة لا تنسى كما يعرب عن حسرته العميقة عليه وآهاته الشديدة.

٤ ـ وروى محمد بن سعد في الطبقات الكبيرة ج ٣ ق ١ ص ٦ عن عبد الله بن مسعود:

«قال: وضع رسول الله حمزة فصلى عليه وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلىعليه فرفع الأنصاري وترك حمزة ثم جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه فرفع الأنصاريوترك حمزة حتى صلى عليه يومئذٍ سبعين صلاة»(٢).

وقدْ خصَّ النبي حمزة من بين المقتولين المسلمين في غزوة أحد بصلاة مميّزة فيهاسبعون تكبيرة وقد ذكر موضوع الصلاة الخاصة على حمزة ابن هشام في السيرة النبوية ج ٣ ص١٠٢ والواقدي في كتاب المغازي ج ١ ص ٣١٠ وغيرهما في سائر جوامعهم.

---

(١) شرح ابن أبي الحديث، ج١٥، ص١٧، نقلاً عن الواقدي.

(٢) طبقات ابن سعد، ج٣، ص١٦، ط دار صادر بيروت.

٥ ـ وذكر ابن سعد المناحة على حمزة في الطبقات ج ٣ ص ٥ على النحو التالي: وسمع رسول‌الله(ص) البكاء من بني عبد الأشهل على قتلاهم فقال رسول الله(ص): «لكنّ حمزة لا بواكي له»فسمع ذلك سعد بن معاذ فرجع إلى نساء بني عبد الأشهل فساقهن إلى باب رسول الله(ص) فبكين على حمزة فسمع ذلك رسول الله(ص) فدعا لهن وردّهن «فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك اليوم على ميّت إلّا بدأت بالبكاء على حمزة ثم بكت على ميّتها»[١].

ورأيتم كيف ضاق رسول الله ذرعاً بخلو البيوت من البكاء على حمزة (ع) وكيف دعا سعدبن معاذ نساء الأنصار إلى بيت النبي(ص) ليبكين على حمزة ثم اتخذن ذلك دأباً في كل من يموت منهم.

ذكر هذا الموضوع أي توجع النبي على عدم المناحة على حمزة وقدوم نساء الأنصار إلى بيته من أجل ذلك ابن هشام في «السيرة النبوية» ج ٣ ص ١٠٤ والطبري في تاريخ الأمم (الرسل) والملوك ج ٢ ص ٢١٠ والواقدي في كتاب المغازي ج ١ ص ٣١٥ وص ٣١٧ .

وهذا ما كان من شأن المستندات الكثيرة التاريخية التي تعين خصوصيّات المقتولين في سبيل الله واجتماعها في شخص حمزة ويرون أنّه يمثّل الفئة الثانية تمثيلاً أظهر من كل أحد،وأما من عداه من سائر المقتولين فهم مصعب بن عمير، وأنس بن النضير وعبدالله بن

---

(١) المصدر السابق، ج٣ ص١١.

جبيروغيرهم، وهؤلاء عندما نلاحظ نصوص التاريخ والحديث عند الفريقين (العامة والخاصة) ونقارنبينهما بتحكيم أصول معرفة المتون نجزم بأنهم على الحقيقة في عداد فئة المقتولين في سبيل الله وإذالم تتحد نظرة الفريقين إلى قتيل تلقائياً فإنه لا يمكن الحكم عليه بأنه من المقتولين في سبيل الله، ولايثبت له ذلك كما إن معرفة أفراد الفئات الآتية نتميزها بهذه الطريقة المعتبرة.

مثلاً: عندما نريد معرفة أفراد الفئة الثالثة (المؤمنون التائبون) ونسعى لتمييزهم عن غيرهممن حضر الموقعة، ولمعرفة من منهم سارع بالعودة إلى رسول الله بعد الفرار من الزحف عمن تلكأوتأخَّر، واستشعر التوبة والندم فليس من وسيلة إلا النظر في كتب الفريقين والتدقيق في شؤون كل واحد منهم في روايات السنة والشيعة. فإذا رأينا الفريقين متفقين على تكريمه ومدحه والثناءعليه علمنا بالقطع واليقين أنه «في عداد المؤمنين التائبين»، وإلا فلا يعتبر من الفئة الثالثة من استقلتكتب العامة في الحديث عنه وتمجيده دون كتب الخاصة فينبغي أن تشارك روايات الشيعة أيضاًأولئك القوم في مدحه والثناء عليه أما إذا قدحت فيه وجرحته أو سكتت عنه على أقل تقدير فلادليل على كون فرد كهذا في عداد الفئة الثالثة «المؤمنون التائبون» مطلقاً.

نعم عندما نعمل الطريقة السالفة فإنا نجد أفراداً مثل أبي دجانة وسهل بن حنيف وعاصم بنثابت والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة والمقداد بن الأسودوعمار بن ياسر وغيرهم وقد اتفق الفريقان على تكريمهم والثناء عليهم في

غزوة أحد نجزم بلاهوادة في أنهم من فئة المؤمنين التائبين أمّا من انفردت العامة بتمجيده والثناء عليه فلا ولا كرامة؛ لأنّنا نجد هذه الطريقة المثلى مستعملة في الكشف عن الواقع التاريخي فكل موضوع يردده المخالفون في كتبهم يتخذ ذلك دليلاً على صدق وقوعه وتحققه.

المبحث الرابع

التحقيق بشأن أفراد ثلاثة من فئة المنافقين المحترفين الذين حضروا غزوة أحد

لحد الآن تناولنا حقيقة أفراد ثلاثة من الفئات الثلاث الحاضرين في الموقعة (وهم الشاكرون وشهداء الأعمال والمقتولون في سبيل الله، والمؤمنون التائبون) لكي نلم بها إلماماً يميط اللثام عن معرفة الحقيقة والآن علينا بدراسة الفئتين الأخروين وهما «المسلمون غير التائبين، والمنافقون المحترفون» فنقول:

إنَّ سبيل معرفة الفئة الرابعة أي «المنافقون المحترفون» وهم الهدف الأصلي لنا من تصميم هذه البحوث كي نقتفي آثارهم ونعرف مواضع أقدامهم في غزوة أحد من خلال الآيات الخاصة فيها من سورة آل عمران ونؤكّد على المصادر التالية:

١ ـ محمد بن جرير الطبري في كتاب «تاريخ الأمم (الرسل) والملوك»(ج ٢ ص ٢٠١) فقد روى هذه الرواية:

«وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى «الصخرة» فقاموا عليها».

٢ ـ محمد بن عمر بن واقد في كتاب المغازي (ج ١ ص ٢٩٥) روى هذه الرواية:

«فكان عمر يقول: لما صاح الشيطان قتل محمد أقبلت أرقى في الجبل كأني «أروية»[(١)] فتبين من هذا أن عمر من أولئك الفارين الذين صعدوا الجبل ولجأوا إلى تلك الصخرة.

٣ ـ وروى ابن هشام في السيرة النبوية ج ٣ ص ٨٨ عن ابن إسحاق الرواية الآتية:

«... انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجالمن المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال ما يحبسكم؟! قالوا: قتل رسول الله قال: فماتصنعون بالحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله(ص) ثم استقبل القوم فقاتل حتىقتل ...».

والطبري يروي الرواية نفسها في «تاريخ الأمم (الرسل) والملوك» (ج ٢ ص ١٩٩) بسندهعن ابن إسحاق.

وظهر في هذه الرواية أن شخصاً آخر التحق بعمر في الصخرة هو طلحة بن عبيدالله وهذانالرجلان معهم جماعة من المهاجرين والأنصار الذين فرّوا من الزحف وصعدوا الجبل واحتموابالصخرة من القتل.

ولكن ورد اسم طلحة في الرواية ومثله جملة «في رجال من المهاجرين والأنصار» كما جاءذلك على لسان ابن هشام والطبري. وهنا لا يمكن لأتباع السقيفة أنْ يصرحوباسمه وأسماء الأعلام من

(١) جمع أروى وهي التي لا تبرح أعلى الجبل من الصيد.

المهاجرين والأنصار الذين هم على شاكلته ـ وهم دونما ريب نفس القوم الذين أداروا عجلة قيادة الخلافة ـ من أصحاب الصخرة من ثم حرف جهاز الوضع الخليفي الرواية نفسها فجاءت على لسان الواقدي على النحو التالي:

«وقالوا: أتينا عمر بن الخطاب في رهط من المسلمين قعوداً ومر بهم أنس بن النضر بن ضمضم عم أنس بن مالك فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قتل رسول الله(ص) قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جالد بسيفه حتى قتل»(١).

وترى أنَّ الرواية أعلاه هي الرواية نفسها المذكورة في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ولكنها في كتاب مغازي الواقدي حذف منها اسم طلحة بن عبيدالله كما حذف منها الجملة «في رجال من المهاجرين والأنصار» واستبدلت جملة «في رهط من المسلمين» بها، لكي لا يلحق نقص أكثر بأتباع السقيفة.

ثم إنَّ جهاز الوضع مع ثبوت فرار طلحة بن عبيدالله ولجوئه إلى الصخرة وهربه من الزحف في ميدان الحرب فقد وردت روايات تشيد بشجاعته وبسالته وثبوت قدمه في غزوة أحد واعتبر من الثلة التي ثبتت في الدفاع عن النبي ولم يغادر الساحة مدافعاً عن رسول الله(ص)، ولاريب في أنَّ ذلك من وضع الجهاز المذكور.

وللتدليل على ذلك نسوق هذا النموذج في السياق التالي:

---

(١) كتاب المغازي، ج١، ص٢٨٠.

روى محمد بن عمر بن واقد في كتاب المغازي (ج ١ ص ٢٥٤) الرواية الآتية: «وقاتل طلحةبن عبيد الله يومئذٍ عن النبي(ص) قتالاً شديداً فكان طلحة يقول: لقد رأيت رسول الله(ص) حينانهزم أصحابه وكرّ عليه المشركون وأحدقوا بالنبي(ص) من كل ناحية فما أدري أقوم من بين يديهأم من ورائه أو عن يمينه أو عن شماله فأذبّ بالسيف من بين يديه مرة وأخرى من ورائه حتّى انكشفوا.

«فجعل رسول الله(ص) يقول: قدْ أنجب».

والآن نُدقق في نصّ الرواية حتّى ننقل رواية أنس بن النضر بوجهها الآخر.

رواها الطبري في كتابه «تاريخ الأمم (الرسل) والملوك ج٢ ص ٢٠١» بوجهها الآخر هكذا:

«وفشا في الناس أن رسول الله(ص) قد قتل فقال بعض أصحاب الصخرة ليت لنا رسولاً إلىعبد الله بن أبي فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان، يا قوم إنَّ محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أنْ يأتوكم فيقتلوكم».

«قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتلعليه محمد، اللّهُمَّ إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثمّ شدّ بسيفه فقاتلحتى قتل».

في هذه الرواية نلاحظ أن «أنس بن النضر» كيف امتعظ من

قول بعض أصحاب الصخرة الموحية بكفرهم وقد رأيت في الرواية المنقولة قبلاً أن عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله كانا منهم فاضطرب النضر مما سمع واعتذر إلى الله مما نطق به القوم ولجأ إليه واندفع نحو الشهادة.

ظهر من هذا أن أفراداً من الفئة الرابعة وهم «المنافقون المحترفون» كانوا في زمرة «أصحاب الصخرة» وهم الفرّار الذين صعدوا إلى أعلى الجبل ولجأوا إلى الصخرة التي تقع في قمته واحتموا بها.

والآن ينبغي علينا أنْ نُمعن النظر في المستندات المتصلة بغزوة أحد لنجزم بوجود بعضهم بالقطع واليقين.

زيادة معرفة:

باستطاعتنا أنْ نستحضر ما ذكرناه سابقاً من أنَّ صفات الفئات الأربع وخصوصيّاتهم في غزوة أحد استنبطناها من الآيات الشريفة ١٢١ إلى ١٧٤ من سورة آل عمران وقلنا عن صفات الفئة الرابعة وخصوصياتها «المنافقون المحترفون» أن ما يستفاد من الآيات ١٤٤ و ١٥٤ و ١٦١ إلى ١٦٤ من السورة نفسها هو: أنّ المنافقين المحترفين لهم الصفات والخصوصيات التالية:

أولاً: ارتدادهم بعد سماعهم بنبأ قتل النبي(ص) أو عزمهم على الارتداد عن الدين.

ثانياً: حرموا من الأمن الذي حظي به المسلمون بعد العودة إلى النبي، وقد دلَّ عليه ذلك النعاس اللذيذ الذي تغشاهم وكانوا على خوف شديد من المشركين أن يستلبوا أرواحهم.

ثالثاً: نسبة الخيانة إلى رسول الله(ص) باعتبار خروجه من المدينة لقتال المشركين خيانة للأمة كما يرون.

والآن بعد استذكار صفات الفئة المذكورة ـ المنافقين المحترفين وخصوصيّاتهم ـ نعطف الأنظار إلى المستندات التاريخية التي توثقها:

روى الواقدي في كتاب المغازي (ج ١ ص ٢٩٦) فيما يختص بطلحة الرواية التالية:

«وقال طلحة بن عبيدالله: غشينا النعاس حتى كان جحف القوم تناطح...».

يروي طلحة نفسه هذه الرواية (وهو واحد من أصحاب الصخرة) ليحسب من فئة «المؤمنين التائبين» ولم يضع في حسابه أن كلامه هذا يدلُّ بنفسه على كذب نفسه، لأنَّه من الواضح البيّن أن طلحة لو كان في عداد «المؤمنين التائبين» لكان الآن بعد قصور يد العدو عن تناولهم واستراحتهم إلى جوار رسول الله(ص) بعد ذلك التعب الشديد، ومصاولات الحرب ومجاولاتها، يغط في نوم عميق شأن إخوانه الذين تغشاهم النعاس أمنة وأنه الآن في راحة نفسية قد هدأ موج الفزع في نفسه فلا يسمع أبداً أية جلبة تحدث إلى جواره فكيف بلغ سمعه صوت الجحف تتناطح.

أجل كيف يتم الجمع بين كونه من المؤمنين التائبين الذين تغشاهم النعاس من الأمن ويسمعفي الوقت ذاته تناطح جحف المؤمنين وهو غارق في موجة النوم هذه.

وأدل دليل على إثبات أن هذا النعاس اللذيذ قد قطع الناس عن كل صوت يكون إلى جانبهمطيلة النعاس الكلمة المستعملة في الآية الشريفة «يغشى»، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

لأنَّ هذه الكلمة «غشى يغشى غشاوة وغشاءً» في الاستعمالات القرآنية لا تأتي إلا للإحاطةوالاستغراق بحيث لا يمكن لمن تلبسته الخلاص من سلطانها.

ونستعرض هذا الاستعمال في القرآن الكريم على شكل فعل مضارع: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾(١).

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ* يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾(٣).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي استعملت هذهِ المفردة.

وبناءً على هذا لماعبَّرت الآية الكريمة (١٥٤) سورة آل عمران، عن إلقاء النوم على المؤمنينالتائبين بكلمة يغشى فإنَّ هذا التعبير نفسه يدلُّ

(١) سورة الليل: الآية ١ ـ ٢.
(٢) سورة الدخان: الآية ١٠ ـ ١١.
(٣) سورة النور: الآية ١٠.

على أن المؤمنين التائبين قد قطعهم النوم عن كل إحساس بما يجري في الخارج وإن كان صوتاً خفيفاً، وإن شعورهم الظاهر قد انقطع عن إدراك كل حركة تصدر صوتاً يتناوله هذا الشعور في الخارج، فلو ادعى مدع حينئذٍ (كطلحة بن عبيدالله) أن هذا النوم غشيه وأحاط به ولكنه كان يتميز الأصوات ويسمع الهمهمات ويرى بعض الكائنات فإن من الضروري اعتبار هذا القول قولاً كاذباً لا أصل له من الواقع وأن صاحبه جنى لنفسه الكذب بهذا القول المبالغ فيه.

وعلى هذا الروي فإن قول طلحة نفسه (يقول: غشيني النعاس إلى جوار رسول الله(ص) وكنت أسمع أصوات جحف أصحابي تتناطح) دليل على أن النعاس ما تغشاه ولم يكن في عداد «المؤمنين التائبين» بل لابدَّ من عده في فئة ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

وعلى أية حال فظهر حال طلحة من مجموع ما سقناه عنه بوضوح أنه واحد من فئة «المنافقين المحترفين» الذين حضروا غزوة أحد، ولما كان شيوع هذا الموضوع على الناس يضر بمصالح حزب الخلفاء وزعماء الحكم لذلك عمد «جهاز الوضع» بإصرار على وضع الروايات الكاذبة في شجاعته الظاهرية وفضيلته المعنوية ليبرأوا ساحته من رذيلة النفاق، وقد سقنا فيما سلف رواية من هذه الروايات الموضوعة من قبل «جهاز الوضع» هذا في شجاعة طلحة الظاهرة.

والآن نسوق قطعة أخرى من هذه الروايات الموضوعة التي كان الغرض منها إثبات فضائل معنوية له في غزوة أحد ونسبتها إلى رسول الله وأمير المؤمنين علي صلى الله عليهما وآلهما.

«من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله»(١)(٢).

من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا وهو من أهل الجنة، فلينظر إلى طلحة بن عبيدالله، طلحة ممن قضى نحبه «لما كان يوم الجمل وقتل علي(ع) من قتل من الناس ودخل البصرةجاءه رجل من العرب فتكلم بين يديه ونال من طلحة، فزبره علي(ع) وقال: إنك لم تشهد يوم أحدوعظم غنائه في الإسلام مع مكانه من رسول الله(ص) فانكسر الرجل وسكت»(٣).

ونرى هنا كيف نحتت له فضائل ومقامات باطنية على لسان النبي وعلي بن أبي طالب(ع).

وما ذكرناه هنا ما هو إلا غيض من فيض فضائله الموضوعة.

ياللعجب كيف استطاع جهاز الوضع أن ينحت لطلحة مثل هذه الفضائل ذات القرونالمستطيلة على لسان أمير المؤمنين مع أن طلحة شهر السيف في وجهه في وقعة الجمل وظهرتشخصيته المنافقة للناس جميعاً.

نعم إن كلام الإمام أمير المؤمنين في طلحة وأصحابه معرب عن اعتقاده بحقيقتهم ومصيرهم.

إذن ليس طلحة إلا واحداً من فئة المنافقين المحترفين الذين

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص٨٥.
(٢) سيرة ابن هشام، ج٣، ص٧٩، نخسة.
(٣) كتاب المغازي، ج١، ص٢٥٥.

حضروا واقعة أحد والذينكشفنا عن واقعهم وأمطنا اللثام عن صورتهم فيما درسناه من القرآن وعرفناه من التاريخ.

بعد هذا سوف نطلع بصورة أجلى على تاريخ المنافقين في بحث الآيات ٥٣ إلى ٦٢ منسورة الأحزاب، وسوف يتضح هذا الوجه منهم أكثر وأكثر.

والآن إلى الوجه الثاني منهم:

روى محمد بن عمر بن واقد في كتاب المغازي (ج ١ ص ٢٩٦) بشأن الزبير بن العوام الروايةالتالية:

«وقال الزبير بن العوام غشينا النعاس فما منا رجل إلا ونقنه في صدره من النوم فاسمع معتبـبن مقشر يقول - وإني لكالحالم - لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا فأنزل الله تعالى فيه: لو كانلنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا».

كلما قلناه في طلحة بن عبيدالله عن ادعائه الأمن والنعاس نقوله بوجه أشد في الزبير بنالعوام؛لأنَّ طلحة زعم أنَّه سمع تناطح الجحف وهو نائم ولكن الزبير ذهب شوطاً أبعد حين زعمأنه كان يسمع قول معتب بن قشير وهو يغط بالنوم«لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا».

ومن المعلوم أن سماع كلام ما وتعقله ومعرفة قائله له دلالة أكثر على يقظة السامع (وهو هنا الزبير بن العوام) ولذا لما أدرك الزبير أن كلامه هذا يشكك النلس في مصداقيته ألحقه بجملة

معترضة،وهي قوله: «وإني لكالحالم»حتى يستر كذبه كما يزعم.

ولكننا ألمعنا(١) قبلاً أن مجيء لفظ «يغشى» في الآية الكريمة المبحوث فيها (آية ١٥٤ سورةآل عمران) يذري هذه الكذبات في الرياح العاتية.

بناءً على هذا يكون الزبير بن العوام نفسه من غير رعيل «المؤمنين التائبين»ويلتحق بتلك الطائفة التي قال الله عنها: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾فليس بدعاً أن يقول قائل:

أولاً: مانسب إلى الزبير من الشجاعة في الغزوات كلها إما أن تكون موضوعة من أساسها لأغراض سياسية أو عنصرية أو قبلية وليس لها واقع إيماني، نظير بطولات قزمان المحيرة للعقول في غزوة أحد في سبيل الإسلام والمسلمين المروية عنهم في حين يعترف الرجل على وجه صريح بأنه لم يقاتل في سبيل الله ولا إيماناً به ولا دفاعاً عن الإسلام.

وأما الشاهد على ما قلناه من أن بطولات الزبير المنسوبة إليه موضوعة لأغراض سياسية ففي قول الزبير نفسه الذي تطالعه بعد هذا الكلام: فقد روى ابن هشام في السيرة النبوية (ج ٣ ص ٨٢) والطبري في «تاريخ الأمم والملوك» (ج ٢ ص ١٩٦) عن الزبير أنه قال: «والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم(٢) هند بنت عتبة

---

(١) ألمع: أشار. راجع المحيط في اللغة.

(٢) جمع خدمة وهو الخلخال سمي بسير يشد في رسغ البعير، راجع صحاح اللغة للجوهري.

وصواحبها مشمّرات هوارب، مادون أخذهنّ قليل ولا كثير إذ مالت الرماةإلى العسكر حين كشفنا القوم عنه وخلّوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا وصرخ صارخ: ألا إنّمحمداً قد قتل فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم» (١).

والملاحظ هنا أنه على رغم الروايات العامية التي أثبتت الشجاعة الخارقة إلى الزبير بن العوام في غزوة أحد وأنه لم يفرّ عن رسول الله وبقي يذب عنه حتى انجلت المعركة ففي هذه الروايةيعترف هو نفسه بهربه ويقر به غير هيّاب ولا وجل.

ثانياً: ثبت عن الزبير انحيازه إلى الإمام أمير المؤمنين أحياناً والظاهر أن مردّه إلى منزع العرقوالأسرة وليس الإيمان والإسلام أو إلى أغراض خاصة شخصية أو تعود إلى السياسة.

وأما ما كان من انحيازه إليه بناءاً على تحزبات الأسرة والعرق فإنه أمر متعقل جداً لأن أمالزبير «صفية» بنت عبدالمطلب وهو ابن عمة رسول الله وعلي بن أبي طالب صلى الله عليهما وآلهما،كما أشار إلى ذلك علي(ع) بقوله: «كنا نعدك من بني عبد المطلب، حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرقبيننا وبينك» (٢).

وأما ما كان من انحيازه على أساس الأغراض الشخصية والمصلحة فبيعته للإمام بعد هلاكعثمان ومعه طلحة بن عبيدالله من

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٧٧، نسخة المحقق والطبري، ج١، ص٤٧٣، نسخة.
(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص٥١٩.

ذلك، لأننا شاهدناه وقد نقضها بعد مدة قصيرة وخرج مع عائشةوطلحة إلى البصرة للطلب بدم عثمان وهم قتلته الأصليّون، فأثاروا حرب الجمل على الإمام عليبن أبي طالب(ع).

وعلى أية حال: فقد تجلى لنا واضحاً من خلال البحوث القرآنية والمستندات التاريخيةالمذكورة قبلاً أن رجلين من المنافقينِ المحترفين الذين حضروا حرب أحد هما طلحة بن عبيدالله،والزبير بن العوام، وقد ثبت لنا أنهما وإن حضرا في الحرب لم يغنيا أي غناء يذكر ولم يمنعا حوزةالإسلام ولا دافعا عن حريمه دفاعاً شاهداً ملموساً لكننا نشاهد على الوجه الآخر «جهاز الوضعالخليفي» يسعى سعياً جاداً ليختلق لهما البطولات في كسب أحد لصيانة ماء وجههما ولأجل أنيطلع القراء على موضوعات الجهاز عليكم بالنظر في الرواية التالية:

روى محمد بن واقد في كتاب المغازي ج ١ ص ٢٤٠ الرواية أدناه: وبايعه يومئذٍ ثمانية علىالموت ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار، علي(ع) والزبير وطلحة وأبو دجانةوالحارث بن الصمة وخباب بن المنذر وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف فلم يقتل منهم أحد.

وهنا نلاحظ حشر الرجلين المعروفين بموقفهما طلحة والزبير فيموقف علي(ع) وأقاموا الرجال الخمسة المعروفين من الأنصار في غزوة أحد، وما أعظم المرتبة التي أسبغوها على طلحةوالزبير في تلك الحرب.

نحن على وفاق من أن أبا دجانة الأنصاري والحارث بن الصمة والحباب بن المنذر وعاصمبن ثابت وسهل بن حنيف بعد الإمام علي بن أبي طالب دافعوا عن رسول الله(ص) إلى أقصى حديقدرون عليه، وفدوه بأنفسهم لأن روايات الفريقين اجتمعت على تصديق ذلك ولكنا نقف فيمايخص طلحة والزبير حيث جعلهم جهاز الوضع من أبطال غزوة أحد بحيث بايعا رسول الله علىالموت، وقد أثبتنا بالمستندات التاريخية فرارهما من الزحف في غزوة أحد وأنهما من «المنافقينالمحترفين»، فكيف تم ذلك لهذا الجهاز الخبيث.

والآن نتعرف على الوجه الثالث من المنافقين المحترفين في غزوة أحد:

يروي الواقدي في كتاب المغازي (ج ١ ص ٢٩٥) عن عمر بن الخطاب هذه الرواية:

«فكان عمر يقول: لما صاح الشيطان: قتل محمد، أقبلت أرقى الجبل كأني أرويّة فانتهيت إلىالنبي وهو يقول: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل... الآية».

وبالطبع وقع تحريف في النص بالتقديم والتأخير حيث ينبغي أن يكون مكان قوله: فانتهيتإلى النبي فانتهى إليّ النبي، لكن يد التحريف تصرفت بالنص هذا التصرف لأن مقتضى الصيغةالمحرفة أن يكون النبي(ص) أن يكون فارّاً قبل أن يفر عمر في حين أن فرار النبي مردود بالضرورةالقرآنية وإجماع رواة الفريقين.

وعلى أية حال فإنه يستفاد من أقوال عمر أن تأنيب الآية وتقريعها يشمله أيضاً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾.

ونحن نتعامل مع هذا الاعتراف، فقد أشرنا قبلاً في بيان صفات المنافقين المحترفين وخصائصهم أن أشدهم خطراً على الإسلام هم أولئك الذين أزمعوا الارتداد بعد سماعهم بمقتل النبي أو هم ارتدّوا فعلاً.

وبناء على هذا فإن اعتراف عمر بكونه من أصحاب الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ هو دليل ناصع على كونه من «أصحاب الصخرة» الذين أطلقوا ألسنتهم بكلمة الارتداد، واعتذر أنس بن النضر إلى الله من كفرهم هذا.

ومن هذا البحث يتجلى لنا أن نفاق عمر تعدّى أطوار نفاق طلحة والزبير وهو يعد حلقة مهمة من هذه الحلقات التي تنظم «المنافقين المحترفين» وقد دعى إخوانه إلى العودة لدين الجاهلية وأراد أن يؤخذ له الأمان من أبي سفيان.

ولكي تعرفوا مدى صلة عمر بن الخطاب برؤوس الشرك وأئمة الكفر الذين يقودون الجيش وعمق علاقته معهم وتعلموا كيف كان والحرب قائمة ضد النبي وقد فرّ أكثر أصحابه عنه يأمل في أخذ الأمان له ولإخوانه ولابدّ هنا من ملاحظة الروايات التاريخية في هذا المضمار:

أ ـ كان خالد بن الوليد وهو من رؤوس القوم وقوّادهم وكان على ميمنة القوات المشتركة فيغزوة أحد وتمت النصرة لهم بتدبيره وفعالياته المؤثرة، يتحدث وهو بالشام عما قدمه لعمر بنالخطاب في غزوة أحد:

كان خالد بن الوليد يحدث وهو بالشام يقول:

«الحمد الله الذي هداني للإسلام، لقد رأيتني ورأيت عمر بن الخطاب رحمه الله!! حين جالواوانهزموا يوم أحد وما معه أحد وإني لفي كتيبة خشناء فما عرفه أحد غيري، فنكبت عنه وخشيت إنْ أغريت به من معي أن يصمدوا له، فنظرت إليه موجهاً إلى الشعب»(١).

لابدَّ أنْ نحتفظ في أذهاننا ما أسداه خالد بن الوليد لحفظ حياة عمر بن الخطاب حين هروبه في حرب أحد، ثم نقف على ما يقابلها من موقف اتجاه النبي(ص) في نفس هذهِ الحرب.

ب ـ محمد بن محمد بن النعمان في كتاب الإرشاد في بيان غزوة أحد عن عبد الله بن مسعودوهو يتحدث عن هجوم خالد بن الوليد وجيشه على رسول الله في هذه الغزوة لاحظوا الروايةالتالية:

«... فحمل عليه خالد بن الوليد فقتله ثم جاء من ظهر رسول الله(ص) يريده فنظر إلى النبي فيخفّ من أصحابه فقال لمن معه دونكم هذا الذي تطلبون! فشأنكم به فحملوا عليه حملة رجل

---

(١) كتاب المغازي، ج١، ص٢٣٧.

واحدضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورمياً بالنبل ورضخاً بالحجارة. وجعل أصحاب النبي يقاتلون عنهحتى قتل منهم سبعون رجلاً» (١).

وهنا نلاحظأنَّ خالد بن الوليد الذي قصر همته في غزوة أحد على تطلب شخص رسول اللهلاجتثاثه ويدلُّ جيشه عليه ويعرفهم عليه ليصفوه فيحملون عليه حملة رجل واحد، وفي نفس الوقت كيف راعى حالعمر في هذه الحرب وأعرض عن قتله ولم يدل كتيبته الخشناء عليه لتقتله وتريح منه.

والآن لنأخذ عيّنة أخرى من هذه الدراما الغريبة ونرى عمل رأس آخر من رؤوس الشرك معمر ومنّته عليه في نفس الغزوة.

ج ـ محمد بن عمر بن واقد في «كتاب المغازي» (ج١ ص٢٨٢) يروي هذه الرواية:

وقد ضرب ضرار بن الخطاب الفهري يومئذٍ عمر بن الخطاب حيث جال المسلمون تلكالجولة بالقناة، قال: يا ابن الخطاب، إنها نعمة مشكورة والله ما كنت لأقتلك (٢).

ويرى ابن أبي الحديد في شرح النهج ج٣ ص٣٨٩: أن الروايات المذكورة التي ذكرتملحمة أحد كانت مورداً للاتفاق من المؤرّخين وكتاب المغازي.

---

(١) المفيد: الإرشاد، ج١، ص٨٢.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٢٤، ص٣٩٧

وهذا ما كان من أمر الصلة المحكمة التي تشد عمر بن الخطاب إلى رؤساء قريش ورؤوسها وصناديدها.

وقد مرَّ عليكم في الفصل الأول من هذا الكتاب في بحث الآيات (٢٨ إلى ٣٢)سورة آل عمران ما كان بين كبار الكفار من قريش و «المنافقين المحترفين» من العلاقات القلبية والود والصميمية بعكس ما كان بينهم وبين المؤمنين الصادقين من العلائق المبتورة والعداء وقطع روابط الود.

ولاحظنا أن هذه العلاقة الحميمة بين المنافقين المحترفين وبين كفار قريش تجلت في الفترة الواقعة بين غزوة بدر وغزوة أحد.

[وكشفنا عن هذه العلاقة في بحث الآيات ١٣٦ إلى ١٤٧ من سورة النساء التي نزلت بعدغزوة أحد وغزوة الأحزاب.

والجالب للنظر وجود صفقات سياسية ومعاهدات عقدت بين المنافقين المحترفين وكفار قريش والمشركين وقد أفصحنا عن ذلك في محله].

وعلى أية حال فإن الشخص الثالث الذي ظهر له وجه متميّز في الفئة الرابعة (المنافقين المحترفين) الذين حضروا في غزوة أحد هو عمر بن الخطاب وهو من الحلقات الخاصة في هذه السلسلة.

والآن في هذا الفصل نعمد إلى بحث النماذج الكاذبة التي وضعها «جهاز الوضع الخليفي» لمصلحة مجموع الرؤوس القائمة في هذه الفئة.

بحث حول الروايات الموضوعة
لصالح المنافقين المحترفين في غزوة أحد
روى الواقدي في كتاب "المغازي" (ج ١ ص ٢٤٠) الرواية التالية:

وثبت رسول الله(ص) كما هو في عصابة صبروا معه، أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار: أبو بكر وعبدالرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبدالله وابو عبيده بن الجراح والزبير بن العوام.

ومن الأنصار: الحباب بن المنذر وأبو دجانة وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمّة وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ ويقال: ثبت سعد ابن «عبادة»... لا نريد هنا أن نبحث موقع علي بن أبي طالب(ع)؛ لأننا أشبعنا الموضوع بحثاً على التفصيل فيما سبق، كما أننا لا نرتاب في تضحيات أمثال الحباب بن المنذر وأبي دجانة الأنصاري وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف وغيرهم كثير.

أما ارتيابنا في الروايات المذكورة وترددنا في قبولها فمن جهتين:

الأولى: حشر أبي بكر وعبدالرحمن بن عوف وابي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام في

الرواية وجعلهم أنداداً لعلي بن أبي طالب(ع) ويقال مثلذلك في سهل بن حنيف وحباب بن المنذر وأبو دجانة الأنصاري وعاصم بن ثابت والحارث بنالصمة الذين اتفق الفريقان وجاءت الرواية عنهما مؤكدة لذلك أنهم بذلوا أنفسهم في ذات الله وحموارسول الله وجاهدوا في الله حق جهاده إلى حياتهم وكانوا يحملون نفوسهم علىراحاتهم في سبيل صيانة النبي(ص).

الثانية: ما يرتبط بصلة مع الترديد الحاصل بين ((أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وسعد بنعبادة ومحمد بن مسلمة)).

أما عن الأولى فإننا نقول: قد بيّنا في الفصل السابق ما كان عليه وضع طلحة بن عبيداللهوالزبير بن العوام مع صفيّه ورئيسه في الوقت نفسه عمر بن الخطاب.

كما أننا بيّنا عدم إيمان أبي بكر الواقعي بصفة عامة في بحث «آية الغار»، وأثبتنا ذلك بما لانزيد عليه وكذلك رأينا انضمام أبي بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص إلى فئةالمنافقين المحترفين الحاضرين في وقعة أحد في معرض البحث التاريخي والقرآني عن غزوة بدر.

وبناءً على هذا يفاجئنا هنا سؤال ملح عن «أبي بكر بن أبي قحافة» و «عبدالرحمن بنعوف» و «عبيدة بن الجراح» و «سعد بن أبي وقاص» ما الذي قدمه هؤلاء في غزوة أحد من الفداءوالتضحية والجهاد المخلص حتى أن الرواية أعلاه جعلتهم أنداداً لأمثال: سهل بن حنيف وأبيدجانة وعاصم بن ثابت وحباب بن

المنذر والحارث بن الصمة؟!

أما أبو بكر فقد انفرد محمد بن عمر بن واقد من بين سائر كتب المغازي والسير في كتابه«المغازي» (ج ١ ص ٢٥٧) بذكر تضحياته في غزوة أحد ونقل شطراً من ذلك فيما يختص بأبيبكر:

«... وطلع يومئذٍ عبد الرحمن بن أبي بكر على فرس مدججاً لا يرى منه إلّا عيناه فقال من يبارز؟ أنا عبد الرحمن ابن عتيق قال: فنهض إليه أبو بكر، فقال: يا رسول الله أبارزه، وقد جرّد أبوبكر سيفه فقال رسول الله(ص) شم سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك».

وهذا هو الموقف الوحيد المزعوم من مواقف التضحية والفداء المنسوبة لأبي بكر.

ولكن يتجلى من متن الحديث أن الواضعين قوم أهل غباء وسذاجة لأنهم نظموا الحديث علىشكل هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح والثناء، لأنّهيدلُّ على أن أبا بكر فاقد للقدرة على القتال حتّى مع رجل واحد وهو مقتول حتماً لو أنَّ المبارزة كانت قد وقعت ومن المعلوم أنَّ من كان بهذا الضعفالمتناهي لا يقدر على الاشتراك في حرب ضارية مثل حرب أحد وليس بمستطاعه الثبات وهوالضعيف الخائر في موقعة لاذ الأبطال والشجعان بالفرار منها، فكيف يستطيع أن يستقبل طوابيرالعدو الثقيلة ويبدي شجاعة وحزماً واستقامة إزاءها.

ولما كان هذا الحديث الموضوع بهذه المثابة من السقوط أعرض ابن إسحاق وابن هشاموالطبري وغيرهما عن ذكره، وهذا

ما كان من شأن شجاعة أبي بكر وبأسه في غزوة أحد.

وأما عبدالرحمن بن عوف فلن ما يعرب عن شجاعته وفدائه وتضحيته في غزوة أحد لميكن إلا الرواية التالية:

قال ابن هشام حدثني بعض أهل العلم: أن عبد الرحمن بن عوف أصيب فوه يومئذٍ فهتموجرح عشرين جراحة أو أكثر إصابة بعضها في رجله فعرج (سيرة ابن هشام ج ٣ ص٨٨)(١).

هذه رواية وحيدة ذكرت لعبد الرحمن بن عوف في غزوة أحد ولابدَّ من ملاحظتها أنَّهاروواية مجهولة ضعيفة السند وعلى سندها ضعف مشهور وعلة لا تخفى. وعلى هذا الأساس أهمل ذكرها كتابالمغازي كابن إسحاق والواقدي والطبري ولم يعتنوا بها.

وأما أبو عبيدة بن الجرّاح فلم نعثر على شأن له مهم في غزوة أحد، يظهر إخلاصه أو فداءه وتضحيته. اللهم إلا رواية واحدة نذكرها وردت هكذا:

محمد بن عمر بن واقد في «كتاب المغازي» (ج١ ص٢٤٦) روى الرواية التالية:

حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة عن عيسى بن طلحة عن عائشة قالت: سمعت أبا بكر ـ رض ـ يقول: لما كان يوم أحد ورمى رسول الله(ص) في وجهه حتى دخلت في وجنتيه حلقتان منالمغفر

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص٦٠١، ط مطبعة المدني ١٣٨٣ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد.

فأقبلت أسعى إلى رسول الله(ص) فإذا أبو عبيدة بن الجراح فبدرني فقال: أسألك بالله يا أبابكر إلّا تركتني فأنزعه من وجه رسول الله(ص) قال أبو بكر فتركته، وقال رسول الله(ص) عليكمصاحبكم يعني طلحة بن عبيدالله فأخذ أبو عبيدة بثنيته حلقة المغفر فنزعها، وسقط على ظهروسقطت ثنية أبي عبيدة ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة في الناس أثرم [١].

وفيما يعود إلى هذا الحديث نقول:

أولاً: من الظاهر أن بيت أبي بكر سعى سعيه لينحت لطلحة بن عبيد الله وهو قريب أبي بكروعائشة اللصيق منقبة من الفراغ ويظهروا النبي بمظهر المحب له، وما ذكرنا توّاً لإبطال هذهِ الموضوعات كافٍ ولا حاجة إلى المزيد.

ثانياً: لم يثبت ما أرادوا إثباته لأبي عبيدة بن الجراح من الفداء والتضحية وبذل الجهد في المعركةوالاجتهاد في قتال العدو فجعلوه جراحاً حتى أخرج حلقتين من الدرع كان على وجه النبي(ص)للمحافظة عليه.

وبناءً على هذه الرواية فقد غاصا في وجنتيه(ص) وأخذ أبو عبيدة بهما بثنيتيه حتى أخرجهما، ومن حسن الحظ أن وضع هذا الحديث على شكل غير معقول بحيث ألحقهبالكذبات الكبار؛لأنَّ مقتضى الحال يستدعي أن يستعمل الجراح يديه وأصابعه عندما

---

(١) مغازي الواقدي، ج١، ص٢٤٧.

يريداستخراج حديدة غائرة في اللحم لا أنه يهمل يديه ويعمد إلى استعمال أسنانه بحيث يؤدي ذلك إلىانتزاعهما.

ثالثاً: أن محمد بن عمر بن واقد نفسه الذي روى الرواية الموضوعة يروي رواية أخرى بعدهاويرجحها عليها فيقول:

ويقال: إن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله(ص) عقبة بن وهب بن كلده ويقال: أبواليسر وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهب بن كلده ـ وبالطبع لم يفعل ذلك بأسنانه ـ .

وهذا هو شأن «أبي عبيدة بن الجراح» في غزوة أحد!

وأما سعد بن أبي وقاص:

فإنَّ من راجع كتب السير والمغازي عند العامة يجد القوم قد بالغوا في رفع شأن ابن أبيوقاص إلى مرتبة عالية تجاوزت الحدّ ومضافاً إلى البطولة الظاهرية التي نسجوها له فقد وضعواعلى لسان رسول الله(ص) مناقب له وفضائل مكذوبة، ونقوم نحن ابتداءً ببحث هذه المناقبوتحقيقها ثم نعمد إلى بيان سر هذا الغلو وسر نحت الفضائل له:

١ ـ روى ابن هشام في «السيرة النبوية» (ج ٣ ص ٨٧) فقال: قال سعد فلقد رأيته يناولنيالنبل وهو يقول: ارم فداك أبي وأمي حتىأنّه ليناولني السهم ما له نصل فيقول: ارم به.

والموضوع نفسه يرويه الطبري في (تاريخ الأمم)الرسل(والملوك) ج ٢ ص ١٩٨ بسنده عنابن إسحاق.

٢ ـ ابن الأثير في أسد الغابة ج ٢ ص ٢٩١ بسنده عن سعد بن أبي وقاص يروي الروايةالتالية:

«إن رسول الله(ص) قال: اللّهُمَّ استجب لسعد إذا دعاك، وكان لا يدعو إلّا استجيب له وكانالناس يعلمون ذلك منه ويخافون دعاءه».

وروى الواقدي موضوع دعاء النبي(ص) لاستجابة دعائه في وقعة أحد وهو يرمي السهامعن سعد نفسه.

(مغازي الواقدي ج١ ص٢٤١).

وروى محمد بن عمر بن واقد عن سعد بن أبي وقاص في «كتاب المغازي» (ج ١ ص ٢٣٤) أنّه قال:

لقد رأيت رجلين عليهما ثياب بيض أحدهما عن يمين رسول الله(ص) والآخر عن يسارميقاتلان أشد القتال ما رأيتهما من قبل وبعد.

والواقدي في نفس الصفحة يروي رواية أخرى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: لقد رأيتنيأرمي بسهم يومئذٍ فيردّه عليّ رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه فظننت أنّه ملك(١).

هذا ما روي في شأن سعد بن أبي وقاص عن طريق العامة في غزوة أحد، والآن علينا التحقيق في ذلك:

---

(١) المغازي، ج١، ص٢٣٥.

أولاً: كل ما روي في حقه إنما جاء عن لسانه وهو وحده راويه ومدح الشخص نفسه لا يدعوإلى الثقة فيما يقول ولا يصح قبوله، كما رأينا عندما كنا نؤرخ للمنافقين في سورة الأنفال القسم الثامن من هذا الكتاب للتعرف على شخصية سعد من بينهم في غزوة بدر وقد رأينا كيف يحرص حرصاً شديداً ويذكر بولع زائد فضائل لنفسه لا أساس لها من الصحة.

ثانياً: بالرجوع إلى المستندات التاريخية عن قيام سعد بين يدي النبي بالرماية، وبما أنّ طوابير العدو الثقيلة أحاطت بالنبي من كل جهة وهجم عليه الجيش كله لغرض تصفيته وبناءً على ماخلفه لنا المؤرخون عن غزوة أحد من تطويق العدو للنبي(ص) بحيث لا يمكن الدفاع عنه إلا بالسيف وحده، من ثم ترانا نشك فيما نسب إلى سعد من الرمي ونتردد في قبوله، لأنّ المسافة التي ينبغي توفرها بين الرامي وبين العدو ينبغي أن تكون إلى حد يمكن معه إطلاق السهم بحيث يشتد بالاندفاع حتى يصيب الهدف.

أما إذا كان العدو قد أخذ بخناق الجيش ودنا من شخص رسول الله(ص) حتى كاد العراك أن يكون بالأيدي فلا يمكن الدفاع عن النبي في هذه الحالة إلا بالسيف أو الخنجر أو ما شابه ذلك.

والعجيب في أنّ الروايات العامية غالت في رماية سعد غلواً لا يكاد يصدق، كما روى ابن الأثير ذلك في أسد الغابة ج ٢ ص ٢٩١ :

«قال الزهري: رمى سعد يوم أحد ألف سهم»(١).

ثالثاً: لو كان النبي(ص) ـ وحاشاه ـ فدى أبويه لسعد فينبغي أن يكون ذلك لكمالاته المعنويه وكنا نشاهد الأعمال التي تصدر من سعد في الخارج تدلُّ على فقدانه هذه الروح، فهو الذي كان والياً على العراق أيام عمر بن الخطاب فنهب بيت ماله حتّى شكاه الناس إلى عمر فألجأوه لعزله وقسّم أمواله ورد ما أخذه من بيت المال واستوفاه منه ثم ولاه عثمان على العراق وعاد لعهده السابق من سرقة بيت المال، بحيث أراد عبدالله بن مسعود وهو خازن بيت المال يومئذٍ أن يحبسه، وهو الذي أعطى رأيه إلى عبدالرحمن بن عوف عندما صيره عمر أحد رجال الشورى الستة ولم يعطه علياً لحقده عليه وحسده له وبغضه إياه، لئلا تصل إليه، وهو الذي أبى أن يبايع علياً(ع) ولم يرَ خلافته صحيحة وبذلك أحدث صدعاً بين الإمام وبين الأمة ... وهكذا لم تنتهِ عليه.

رابعاً: ما يقال من أن سعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة، والناس يخافون دعاءه خوفاً شديداً.

وهذا القول نفسه يدلُّ على كذب هذا المدّعى، لأن الناس أزاء صاحب الدعوة المستجابة آملون لا خائفون أن صاحب الدعوة المستجابة إذا كان يوظف دعوته لإرهاب الناس وتخويفهم ويقلبهم من آملين بجانبه إلى خائفين منه حتّى صار ظالماً غاشماً عن الله سبحانه أقرب منه إلى مؤمن مستجاب الدعوة، وكيف يسوغ له وقد أعطى

(١) أسد الغابة، ج١، ص٤٢٩.

هذا الفضل الربّاني أن يأخذ السيف بيده لينال الهيبة عند الناس من فرض الخوف عليهم كلا فهذا لا تستجاب دعوته بل يستحيل إلى كائن بعيد عن رحمة الله قريب من نقمته ونفيه.

هذا ما كان من شأن سعد بن أبي وقاص والأحاديث الموضوعة الكاذبة التي حيكت له،وبقيت تذكر في نوادي القوم على أثر غزوة أحد.

والواقع أن السبب الأصيل في هذه الادعاءات وحوك المناقب والفضائل له التي هي أساساًمن وضع «جهاز الاختلاق» إنّما كان لحفظ ماء وجه سعد مما جناه أخوه عتبة بن أبي وقاص في غزوة أحد ولسد هذا النقص في حياة سعد لأن عتبة هذا مما اتفق المؤرخون جميعاًوشهدت الوقائع والآثار بذلك واحد من الذين وضعوا خطة القضاء على النبي(ص) وكان أشدَّهم عليه وأضرَّهم به،حتّى أنه جرح النبي جراحات منكرة وعتبة هذا هو شقيق سعد بن أبي وقاص.

راجع مثلاً كتاب المغازي للواقدي (ج١ ص٢٤٥) سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥ و ٩١) تاريخ الطبري (ج ٢ ص ١٩٨ و ٢٠١).

ومن أجل الاطلاع على الأثر السيىء الذي خلفه عتبة في نفس أخيه سعد من غزوة أحد ـ بعد أنْ أضرَّ عمله في سمعة سعد ـ أمعن النظر في الرواية التالية:

ذكر محمد بن عمر بن واقد في كتاب المغازي (ج١ ص٢٤٥) ما وصل إلى سعد من ألم من فعل أخيه عتبة على النحو التالي:

«قال سعد: فقد شفاني من عتبة أخي دعاء رسول الله(ص) ولقد حرصت على قتله حرصاً ماحرصته على شيء قط وإنْ كان ما علمته لعاقاً بالوالد سيىء الخلق».

ولقد تخرقت صفوف المشركين أطلب أخي لأقتله ولكن راغ مني روغان الثعلب فلما كان الثالثة قال لي رسول الله(ص): يا عبدالله ما تريد؟! تريد أن تقتل نفسك؟! فكففت[١]. وذكر ابن هشام في السيرة النبوية (ج٣ ص٩١) والطبري (ج ٢ ص ٢٠١) موجزاً من هذه الرواية.

وبالطبع عند التحقيق في الرواية نفسها من أن سعداً اخترق الصفوف من أجل القضاء على أخيه وهربه منه كأنه الثعلب، فإنها لا تثبت للنقد ونكون ملزمين بالتردد في شأنها، ولكننا نستطيع التحقق من شدة تألم سعد من أخيه عتبة في غزوة أحد.

وعلى أيَّة حال من مجموع ما حققناه من الآثار التي تركها العلماء عن غزوة أحد نستطيع الجزم بأن طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص في غزوة أحد ـ في الوقت الذي فرَّ المسلمون عن نبيّهم وهجمت كراديس العدو على رسول الله وقد اجتمعوا قلباً واحداً يريدون قتله ـ لم يثبتوا أبداً وطاروا كالريح مع الطائرين بناءً على هذا تكون الروايات التي أحصت الثابتين بأربعة عشر شخصاً وقسمتهم قسمة عادلة لا من الأنصار ولا

(١) المغازي، ج١، ص٢٤٤.

من المهاجرين أبو بكربن أبي قحافة، عبدالرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيدالله، أبو عبيدة ابن الجراح،الزبير بن العوام من موضوعات جهاز الاختلاق الروائي.

أجل نحن فيما سبق أجرينا تحقيقاً حول الرواية المذكورة وبحثناها من جهتين الجهة الأولى وقد انتهينا منها فعلاً.

والآن نجري الشوط مجدداً حول بحث الجهة الثانية لكي يستعد القارئ لمجاراة البحث ويكون حاضر الذهن وهو يصطحب هذه السير تمتن الحديث ثانية ليكون فهمه أسهل.

وإليك متن الحديث:

«... وثبت رسول الله(ص) كما هو في عصابة صبروا معه أربعة عشر رجلاً سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار: أبو بكر، وعبدالرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله وأبو عبيدة بن الجراح والزبير بن العوام ومن الأنصار: الحباب بن المنذر ،وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ» (كتاب المغازي ج ١ ص٢٤٠)[(١)].

وما ذكرناه في الجهة الأولى قبلاً هو أن أبا بكر وعبدالرحمن وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيدالله والزبير جعلوا ممن ثبتت

(١) المغازي، ج١، ص٢٤٠، وجاء بعد العبارة أعلاه قوله: ويقال ثبت سعد بن عبادة ومحمد بن [illegible] جعلونهما مكان أسيد بن حضير وسعد بن معاذ.

أقدامهم في هزيمة الناس وذلك من اختلاق «جهاز الوضع والدسوالتزوير ».

وأما بحث الجهة الثانية فيتضمن الترديد بين أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وسعد بن عبادةومحمد بن مسلمة. وإليكه.

المبحث الخامس
التحقيق حول هذهِ الشخصيات في غزوة أحد

عندما يقرأ الباحث كتب التاريخ والسير والمغازي وسائر المجاميع الحديثية الواردة عن طريق أهل العامة بدقة وإمعان يعثر على الحقيقة التالية، وهي: أن جهاز الوضع الروائي في الكتب المذكورة بذل أقصى الجهد لإظهار الشخصيات المناوئة لحكم الخلفاء بمظهر الامتهان والنقص والتقليل من شأنهم، وعلى العكس من ذلك أولئك المؤيدون لحكم الخلفاء والمتبعون لهم يلقون على شخصياتهم ظلال الزهو والعظمة ويظهرونهم بمظهر التكريم وأصحاب المواقف المشرفة.

ومن الطبيعي أن هذه الكتب ليست في مستوىً واحد وتختلف المشاهد فيها من مشهد إلى مشهد.

وأنَّ واحداً من هؤلاء الأفراد الذين جهدوا في الحط من مكانته وانتقاص شخصيته وشخصية أهل بيته إنما هو سعد بن عبادة رئيس الخزرج.

كان سعد بن عبادة مناوئاً لحكم أبي بكر وراداً لخلافته وأبى أن يبايعه حتى آخر نفس من حياته، ولقد تجلى لنا أن جهاز الاختلاق والوضع الخليفي كان مشاركاً في التقليل من شأنه وتنقصه، وإظهاره للناس بمظهر الصغار وعده فيمن لا شأن له في الإسلام ومن لا أهمية له

في المجتمع.وركزت الروايات الموضوعة على تدمير شخصية أسرته ودحر مذهبه.

إذ يعمد هذا الجهاز أحياناً من أجل تدمير شخصيته الاجتماعية ورد نفوذه القومي إلى نسبةالذل والصغار له فيما حكى عن وقوعه بأيدي القرشيين ذات يوم وضربهم له حتى أوشك أن يموت ويهلك وكأنه ليس الرئيس لقبيلة الخزرج والشخص المطاع فيهم، وصاحب النفوذ القومي فيمدينتهم (سيرة ابن هشام ج ٢ ص٩١) (١).

(١)وإليك ما جاء في سيرة ابن هشام ج١، ص٤٤٩.
وأمّا سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى بنسع رحله ثم أقبلوا حتّى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمّته وكان ذا شعر كثير، قال سعد فواللهه إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع حلو من الرجل.
وإليك بعض ما دار بين النبي وبين سعد بن عبادة حول ابن أبي سلول برواية أسامة، قال: وقام رسول الله فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أبي فقال ـ سعد ـ والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً لكأنك سمعت شيئاً تكرهه، قال أجل ثم أخبره بما قال ابن أبي، فقال سعد: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم به الخرز لنتوجّه فوالله إنّه ليرى أنْ قدْ سلبته ملكاً (سيرة ابن هشام، ج١، ص٥٨٧).
وإليك هذا النص الآخر من سيرة ابن هشام وفيه رمي سعد بن عبادة بالنفاق، ج٢، ص٣٠٠: فلما قال رسول الله' تلك المقالة قال أسيد بن خضير: يا رسول الله، إنْ يكونوا من الأوس نكفكهم وإنْ يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنّهم لاهل أنْ تضرب أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة وكان قبل ذلك يُرى رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم أمّا والله ما قلت هذهِ المقالة إلا أنك قدْ عرفت أنّهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد كذبت لعمر الله ولكن منافق تجادل عن المنافقين، قالت وتساور الناس حتّى كاد يكون بين هذين الأوس والخزرج شر ونزل رسول الله' فدخل عليّ.

وأحياناً يقيمون بينه وبين عبدالله بن أبي سلول المنافق المعروف صلات يزعمونها زعماًويدعون وجودها بينهما من أجل تشويه سمعته وبذر الشك حول إيمانه [راجع سيرة ابن هشام ج٢ص٢٣٧ مغازي الواقدي ج٢ ص٤٣١)].

وفي غزوة بني المصطلق جعلوه ممالئاً لعبدالله بن أبي سلول ذلك المنافق المعروف علىرسول الله(ص)[سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ٢٣٧) مغازي الواقدي ج ٢ ص٤٣١)].

وفي موت عبد الله بن أبي وحين إنزاله في قبره يظهرون ولاء سعد له بنزوله في قبره وتسويتهعلى عبد الله[مغازي الواقدي ج ٣ ص ١٠٩٥].

وأحياناً يثبتون تهالكه على غنائم حنين ليطعنوا في دينه ويهينوه، وزعموا أنه عارض رسولالله(ص) في غنائم حنين [سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤١ مغازي الواقدي ج ٣ ص ٩٥٧].

هذهِ الرواية يرويها عروة عن خالته عائشة وهي تؤكّد لنا مما لا يقبل الشك:
أولاً: مجيء الحكاية تحت عنوان: خطبة الرسول في الناس يُنكر إيذاء قوم له في عرضه.
ثانياً: حشر عبدالله بن أبي سلول في المسألة بقولها: وكان كبر ذلك عند عبدالله بن أبي سلول في رجال من الخزرج.
ثالثاً: وصفها سعد بن عبادة بالنفاق وبالدفاع عن المنافقين.
رابعاً: تشكيكها في صالحه من بعد حادثة الإفك بقولها: وكان قبل ذلك يرى من الصالحين الخ.
هذا كُلّهُ يوثق ما قاله المؤلف أيده الله

وأحياناً وأحياناً !!

مع أن المنصف إذا قرأ الروايات ذات الصلة بسعد بن عبادة يتأكد لديه بما لا يقبل الشك أنَّه بايع النبي وهو بمكة قبل الهجرة وهو أحد النقباء الاثني عشر وكان مقرباً من رسول الله، محبوباًعنده أثيراً لديه فدى النبي بحياته وجاهد معه بصدق وإخلاص حتى آخر نفس من حياته، بالنفسوالمال والأهل والولد، وما فتىء يسعى جهده في سبيل تقدم الإسلام واستعلائه وهو الذي وضعجميع إمكاناته وأمواله وقواه المادية والمعنوية تحت تصرف رسول الله في الغزوات وكان النبيصلى الله عليه وآله يدعوه إذا اعترضت سبيله المشاكل هو وسعد بن معاذ لحلها لحسن تصرفهما وطيبمعاشرتهما النبي في أمور تحتاج إلى الرأي السديد وحسن التصرف.

ولو أن إنساناً عمد إلى مجموع روايات الفريقين حول بعث «جيش أسامة» و «حديثالسقيفة» فبحثها بدقة، على ضوء قواعد استجلاء المتون ومعرفة مناحيها بصورة صحيحة وقارنذلك بسوابق سعد الإسلامية وأهل بيته مركزاً عليها دونما تجاهل لها لعلم بأن اجتماع سعد وأتباعهفي سقيفة بني ساعدة لم يحدث إلا بعد اليأس من بلوغ الإمام إلى حقه في الخلافة وعلمه بأن قريشاًمزمعة على الحيلولة بينه وبين الوصول إليها لذلك حكمت الضرورة بذلك الاجتماع لحماية النفسوصيانتها من سلطان الموتور منهم إذا ما حالفه الحظ ونال الحكم.

وعلى أية حال، فإن سعد بن عبادة جهل حقه في الإسلام ومواقفه الخالدة في إقامةدعائمه وإشادة مبانيه لخلافه مع حكومة أبي بكر وعمر في روايات العامة وأسيء إلى وجهتهالإسلامية هو وأهل بيته وتعرضت للإهمال والنكران، كما رأيتم في الروايات التي بحثت من طرفناوقد جعل جهاز الوضع والاختلاق الروائي رواياته في موقعة أحد موضع شك في حين من قرأروايات الفريقين بإمعان وتدبرها لعلم أنه واحد من المسلمين المضحينالثابتين الصابرين فيالظرف الذي لا يصبر فيه إلا أعظم الرجال المدافعينعن رسول الله بصبر وجلد والمضحين منأجله(ص) ذلك هو سعد بن عبادة لأنه:

أولاً: كان من المجدّين على الخروج من المدينة في غزوة أحد ومقابلة العدو وجهاً لوجهحيث تتمركز قوّاته [مغازي الواقدي ج ١ ص ٢١٠] وبما أن النبي(ص) كان يومئذٍ تحت لواء سعدبن عبادة قد اتخذ له موقعاً هناك [مغازي الواقدي ج ١ ص ٢٣٩] وتعهد سعد بناءً على رسوخإيمانه وقوة إسلامه والعرف القبائلي الذي يملي مثل هذه المواقف فكان من الطبيعي أن يثبت معالنبي هو وأهل بيته وقد أوكل إليهم حماية النبي وحراسته، وأن يبقوا حتى آخر نفس من حياتهم يذبون عن النبي مستميتين دونه.

ثانياً: من خلال الروايات المتصلة بالموضوع أن النبي(ص) كان دائماً في معركة أحديصطحب سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (المعبر عنهما في الروايات الإسلامية بالسعدين) ان في حالةهرب أصحابه وهو يتجه نحو الشعب إلى أعلى الجبل [مغازي الواقدي

ج١ص٢٩٤] وإن في زمن عودته إلى المدينة بعد نهاية الحرب [مغازي الواقدي ج١ ص٢٤٨] كان يتنقل في هذه الظروف بين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ.

وبهذا يثبت لدينا أن سعد بن عبادة من ذوي القدم الثابتة يوم أحد وهو من حماة المصطفى(ص).

ثالثاً: وحين نتجاوز هذه الأمور إلى الروايات التي تناولت غزوة أحد ونجري لها تقييماً حاسماً لا نجد فيما يقابل الروايات الكثيرة التي تثبت هرب المنافقين المحترفين واحداً واحداً رواية واحدة تنص على أن السعدين من الفارّين يوم أحد.

يظهر مما تقدم جيداً أن سعد بن عبادة وسعد بن معاذ مع الحباب بن المنذر وأبي دجانة والحارث بن الصمة وعاصم بن ثابت وسهل بن حنيف وغيرهم كانوا من الذين ثبتوا في غزوة أحد حين فرّ الناس وثبتت أقدامهم في مستنقع الموت.

غير أن جهاز الاختلاق الخليفي حين أبى ذكر هذه المكرمة لسعد بن عبادة ومنع شيوعها تذبذب في رواية الثابتين الأربعة عشر بين السعدين وفي كل مرّة يجعل التردد دائراً بينهما وبين واحد من اثنين ممن كانا يواليان الحاكم وللحاكم فيهما هوىً وهما عبارة عن أسيد بن حضير ومحمد بن مسلمة.

أجل: إن «محمد بن مسلمة» و «أسيد بن حضير» وكلاهما من الأوس، كانا من أنصار أبي بكر وعمر والمؤيدين لخلافتهما وانحازا إلى أبي بكر وعمر في سقيفة بني ساعدة على رغم سعد بن عبادة ثم

كانا بعد السقيفة هما وعمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عوف وخالد بن الوليد ممن هاجم بيت الزهراء وكشفاه للقبض على أمير المؤمنين، ولم يراع هؤلاء النفر رسول الله في صيانة بيت بضعته واحترامه.

من أجل هذه المواقف المشكورة للرجلين صيّرهما جهاز الوضع الخليفي من المسلمين الواقعيين وأصحاب القدم الثابتة.

وأسيد بن حضير هذا ومعه بشير بن سعد الخزرجي وكلا الرجلين قد سيّرهما النبي مع جيش أسامة كما ذكر ابن أبي الحديد وكانا من رؤساء «الخزرج» [شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١]ولكنهما عصيا أمر رسول الله واصطحبا أبا بكر وعمر وعادا إلى المدينة وأعاناهما في السقيفة على النزو على الحكم وكانا لهما رِدءاً وعوناً.

يقول ابن الأثير في أسد الغابة ج١ ص٩٢ و٩٣ عن أسيد بن حضير:

وكان أبو بكر الصديق يكرمه ولا يقدّم عليه أحداً وكان أحد العقلاء أهل الرأي، وله في بيعة أبي بكر أثر عظيم توفي أسيد بن حضير في شعبان سنة عشرين وحمل عمر بن الخطاب - رض - السرير حتى وضعه بالبقيع وصلى عليه ...

وكان «محمد بن مسلمة أيضاً» من الموالين المخلصين غاية الإخلاص لأبي بكر وعمر وأبدى من النذالة في عدائه لأهل البيت حدّاً حمل معه الحطب لإضرام بيت الزهراء بالنار، وكان ممن كشف بيتها(ع).

وأنتم ارجعوا إلى الواقدي في ص٢٤٩ و٢٥٠ من كتاب المغازي لتعرفوا ما الذي رواه عن هذا الرجل في غزوة أحد لتعرفوا جهاز الوضع الخليفي هذا إلى أية درجة رفع محمد بن مسلمة إلى جانب تنقصه من شخصية أمير المؤمنين(ع).

أجل: وحين نشاهد محمد بن مسلمة واحداً من النفر الذين أبوا البيعة لأمير المؤمنين(ع) نلم بمدى الاحتيال الذي استعمله جهاز الوضع والاختلاق الخليفي في تدبير مثل هذه الأحاديث وترتيبها بصورة أبلغ.

وعلى أية حال هذا ما كان من فعاليات الجهاز المذكور ولقد رأينا بأم أعيننا كيف بذل جهداً جباراً لطرح الوجهة الإسلامية والاجتماعية عن مخالفيه وفي مقابلها بذل الجهد نفسه لإضفائهما على مؤيدي الخلافة ورجال الحكم وإعطائهما الحيثيّة اللازمة.

وتبيّن لنا إذن في بحث «الجهة الثانية» الرواية التي سلطنا عليها الضوء وبحثناها بحثاً شاملاً وهي رواية «الأربعة عشر رجلاً» أن الترديد بين «أسيد بن حضير» و «سعد بن عبادة» و «سعد بن معاذ» و «محمد بن مسلمة» من افتعال الجهاز المذكور، والحقيقة الناصعة التي يرشد إليها البحث بمعونة القرائن والعقل أن ثبات قدم الرجلين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ بينة واضحة ولكن ثبات الرجلين الآخرين «أسيد بن حضير» و «محمد بن مسلمة» مورد لسوء ظن المحقق الفطن.

وخلاصة الحديث: أن ما أجريناه من تحقيق قرآني وتاريخي حول «الفئة الرابعة» (من المنافقين المحترفين) الذين حضروا غزوة أحد وما حصلنا عليه من نتائج قطعية يضاف إليها التحقيقات السالفة من الكتاب

التي دلت دلالة كاملة مضبوطة على أن الوجوه التي سنذكر بالتسلسلفي الصفحة التالية هم من فئة «المنافقين المحترفين» الحاضرين في غزوة أحد وهم:

١ ـ عمر بن الخطاب.

٢ ـ طلحة بن عبيد الله.

٣ ـ الزبير بن العوام.

٤ ـ سعد بن أبي وقاص.

٥ ـ ابوعبيدة بن الجراح.

٦ ـ أبو بكر بن أبي قحافة.

٧ ـ عبد الرحمن بن عوف.

٨ ـ عثمان بن عفان.

وهؤلاء هم الفريق الذي يزعم له أنه العشرة المبشرة والذين يذكرون معاً في كل رواية يضعهاجهاز الوضع والاختلاق، ولهم في الكتب العامية المدونة فضائل ومناقب موضوعة.

هؤلاء هم الحلقات الأصليّة لفئة «المنافقين المحترفين» الذين عبّر عنهم القرآن بقوله: «الذينفي قلوبهم مرض و...» وهم الذين أسلموا في مطلع الإسلام بمكة بتسويل من أبي بكر بن أبيقحافة، وكانوا جميعاً ينتهجون نهجاً واحداً ويعتمدون خطة بعينها وبين أفرادهم جميعاً أسرار مخبأةيحرصون على كتمانها.

وسوف تطلعون في مستقبل البحث أن هذا العدد الثمانية تزعم كل الحركات المناهضة لرسول الله(ص) وأهل بيته المعصومين وكان هذا النفر المؤلف من ثمانية أفراد بعد وفاة النبي(ص) هم الذين أداروا عجلة جهاز الخلافة وبالطبع هم أنفسهم الحلقات الأصلية لفئة «المنافقين المحترفين» وأما المتعاونون معهم فيما جرى من أحداث فأكثر من أن يحصيهم عد نعم وما زال عددهم في اطراد مع تقدم الإسلام الظاهري يوماً بعد يوم، وما فتىء الكفار المتمرسون بالكفر إذا ما أظهروا الإسلام سارعوا في الانتساب إليهم كخالد بن الوليد وضرار بن الخطاب الفهري وقد تعرفتم على محبتهما لعمر بن الخطاب في غزوة أحد(١).

ولما أسلما التحقا بتلكم الحلقات الأصلية أي «المنافقين المحترفين» وكانا عضوين فاعلين في ذلك الجهاز.

ولابدَّ أنْ نمعن النظر في السور القرآنية على حسب النزول لندرك أنَّ الإسلام كلما ازدادت جماعته وأتباعه وقويت شوكته ازداد تقريعه وتأنيبه للمنافقين المحترفين وشن عليهم حرباً كلامية، وفي الوقت

---

(١) والواقع أنَّ خلافاً مفتعلاً ذكره المؤرخون بين خالد وعمر وزعموا أنّه نشب بينهما منذ الصغر، ولذلك عزله عمر عن فتح العراق وضايقه أشد المضايقة والواقع أنَّ أصل الخلاف هو في المكانة التي نالها خالد عند أبي بكر في قتل مانعي الزكاة المسماة «بحروب الردة» مما أثار شحناء عمر عليه وراح يلتمس له الكبوات والعثرات، لأنّه خاف أنْ يحل محله عند أبي بكر فيستغني عن عمر وتذهب جهوده في نيل الحكم بعده أدراج الرياح؛ ولذلك أنزل بخالد نقمته لا سيّما في حياة عبد الكعبة أبي بكر.

الذي راح ينضم إلى الإسلام من الناس الزرافات والوحدان كان الوحي يحذر النبي منهم أكثر من ذي قبل وينذره بالخطر: بسم الله الرحمن الرحيم﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾(١) .

وهنا نلاحظ دقّة أنّ الوحي والنبي يُحذّر كلما ارتفع صيت الإسلام في الظاهر ودخل فيه أفواج من الناس فإنّه يُحذّر من المصائب والبلاءات التي تنصب على الإسلام من انتساب هؤلاء النفر إليه،ويأمره باتخاذ التسبيح المتواصل والاستغفار من الكبائر التي تلحق بالمجتمع جراء انتمائهم إليه:فسبّح ... واستغفره ...!

أجل، في الوقت الذي دخل في الإسلام أفواج أفواج اختار الإسلام رجال مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان والوليد بن عقبة وعكرمة ابن أبي جهل وصفوان بن أمية والحكم بن أبي العاص وغيرهم وصاروا من أولئك النفر المنافق في الصميم وأصبحوا من أعوانهم وهم الرجال الثمانية الذين زعم من هم على شاكلتهم من الرواة أنهم العشرة المبشرة.

القسم العاشر

نظرة في سورة الأحزاب

للآيات من ٩ ـ ٢٧

متن الآيات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ
أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ (١٠)
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ
مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ
يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا
بِهَا إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ
مَسْئُولاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً
(١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ
لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ
أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً
(٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ

الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَقَذَفَ فِي قُلوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧) ﴾.

أثر الآيات من سورة الأحزاب في البحوث المرتبطة بهذا الكتاب:

«سورة الأحزاب» وهي رابع سورة نزلت في المدينة طبقاً لترتيب النزول ، وكان نزولها بعد سورة البقرة والأنفال وآل عمران وآياتها ثلاث وسبعون آية وكانت آياتها تنحو في الأصل إلى إلغاءآداب الجاهلية وتقاليدها تجاه «المتبنى» أو الدعي، ولما تم إلغاء أعراف الجاهلية كلها بزواج النبي(ص) من زينب بنت جحش وهي ابنة عمة النبي وكانت من قبل تحت زيد بن حارثةﷺ متبنىالنبي(ص) فقد انطلقت ألسن المنافقين بإيذاء النبي(ص) وراحوا يتكلمون بوقاحة حول زواجه هذاوغيره من زواج النبي ونزول سورة الأحزاب خمدت أنفاسهم وخفقت وطأتهم ، وبما أن قسماً من هذهالآيات في سورة الأحزاب وضع الله تعالى تكاليف لنساء النبي(ص) والتزامات تؤثر على مكانةإحداهن من أمهات المؤمنين مضافاً إلى تصريح الآيات من هذه السورةبغزوة الأحزاب وغزوةبني قريظة وجرى التصريح بموضع

المؤمنين والمنافقين فيها من هذه الجهة قسمنا الآيات من سورةالأحزاب المرتبطة بالبحث في هذا الكتاب حول تاريخ المنافقين في القرآن المجيد إلى ثلاثة أقسام:

الأول: تحقيق الآيات من ٩ إلى ٢٧ من سورة الأحزاب وهي تخص موضوع الأحزاب وبنيقريضة.

الثاني: تحقيق الآيات ذات الصلة بأمهات المؤمنين من ٢٨ إلى ٣٥ من السورة نفسها وبيانالتكاليف واجبة الرعاية المنوطة بهن.

الثالث: تحقيق الآيات من ٥٣ إلى ٦٣ من سورة الأحزاب وفيها بيان الآداب الخاصة بسلوكالمؤمنين تجاه أزواج النبي والحرمات التي تجب مراعاتهابالنسبة إليهن بعدما ارتكبه المنافقون منالأقوال الموذية للنبي ولكل مسلم بحقهن، وينصب البحث على الآيات الخاصة بهذا الموضوع.

والآن نجري البحث في الآيات ٩ إلى ٢٧ من سورة الأحزاب وهي تخص موضوع غزوةالأحزاب وبني قريظة.

وفي مطلع البحث لابدّ من المرور في أصل الموقعة من غزوة الأحزاب وبني قريظة والإلمامبأحداثها ووقائعها على سبيل الإجمال من روايات الفريقين لكي نوجد الأرضية التي يقوم عليهاالبحث والتحقيق في الآيات المبيّنة والمطروحة للبحث من ٩ إلى ٢٧ من سورة الأحزاب حتّى يمكننا التعرف على سمات المنافقين المحترفين والمنافقين العاديين بيسر وسهولة.

قصة غزوة الأحزاب كما وقعت:

بعد أن رحّل رسول الله(ص) يهود بني النضير لنقضهم العهد من المدينة قصد زعماؤهم وذوو الكلمة النافذة فيهم أمثال سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم من شركائهم في الأحداث ونقض العهود قصدوا مكة وعاهدوا أبا سفيان وغيره من صناديد قريش على أن يعلنوا الحرب على رسول الله ماداموا أحياءً ولا ينفضوا أيديهم منها أبداً.

ثم ذهب هؤلاء اليهود إلى قبائل غطفان فأثاروهم على النبي وحملوهم على حربه وطلبوا منهم الانضمام إلى معاهدتهم على أنّ لهم حمل عام من تمر خيبر.

من ثم احتشد لحرب النبي من قريش واليهود والأحابيش والمتعاهدين مع قريش كبني كنانة وغطفان وغيرهم الجموع الغفيرة فكانوا جيوشاً جرارة زحفت باتجاه المدينة فكان على أثر ذلك أنَّ نشبت بينهم وبين المسلمين حرب الأحزاب في شهر شوال السنة الخامسة من هجرة النبي(ص) .

واستشار النبي أصحابه قبل وصول العدو في الوسيلة الممكنة لمقابلتهم ودفعهم ورأى من المصلحة العمل برأي سلمان ومشورته في حفر الخندق في الجهة الغربية من المدينة حيث يمكن مهاجمتها بيسر ولا تشكل عائقاً في وجه العدو ويتضح حينئذٍ للنبي والمسلمين مسار الحرب وكيفيّة إدارتها.

أما جهات المدينة الأخرى فهي محصنة بالأبنية المحكمة وليس من السهل اختراقها هذا ماعدا الجهة الشرقية ففيها بنو قريظة، وليس من المستبعد أن يهاجموا المدينة منها، ولكن عقد النبي(ص) بينهم وبين المسلمين معاهدة سلام ومحبة لذلك أمن المسلمون جانبهم، وكان رسول الله(ص)شارك بنفسه الشريفة في حفر الخندق.

وبالطبع كان مستقر العدو ما وراء الخندق حيث يتسع الموضع لتمركزه واستقر النبي وأصحابه في الجهة المقابلة للعدو وأمر النبي بوضع النساء والأطفال والعجزة في الأرض المحصنة والقلاع المحكمة والبيوت الآمنة من وصول العدو إليها، ويستقبل المقاتلون العدو في مواضعه.

وكان جيش العدو يفوق المسلمين عدةً وعدداً، وبذلك أدخل الرعب والهلع في قلوب بعض المسلمين، حتى بلغ الخوف في ذلك الوقت أوجه وشدته، وعلم المسلمون يومئذ أن يهود بني قريظة نقضوا العهد والتحقوا بالعدو وصاروا في عداد قوّاته، ولما كان الخندق حائلاً بين العدو وبين الهجوم على المدينة كانت البلية منه أقل والمصيبة أخف ولكن البلية في بني قريظة أعظم والخوف أشد حيث لا حائل يحول بينهم وبين الهجوم على المدينة حيث يتواجدون فيأسرون النساء والولدان وينهبون الأموال ويعينون العدو على استئصال المسلمين.

وروى الواقدي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كان خوفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشدّ من خوفنا من قريش

(وغطفان) حتى فرّج الله ذلك... الخ[١].

كان الوضع غاية في الشدة فقد فرض على المسلمين أن يحرسوا الخندق من أوله إلى آخرطئلا يقتحمه العدو وتعبره قواته، هذا من جانب ومن جانب آخر عليهم حراسة المدينة من مطلعالليل إلى مطلع الشمس لئلا يهاجمهم بنو قريظة من جهتها الشرقية، وفي وضع صعب كهذا ما يزالالمنافقون المحترفون والعاديون يلومون النبي لوماً شديداً ويتذرعون بالذرائعالمختلفة للخروج منالقتال ويبذرون الإشاعات المسمومة للتأثير على معنويات المسلمين (وسوف نذكر ذلك في بحثالآيات قريباً إن شاء الله).

وطال حصار المدينة من قبل العدو وأخذت الوطأة تشتد على المسلمين يوماً بعد يوم وكانالنبي(ص) يأمرهم بالصبر والتحمل والتوكل على الله وبطاعته وطاعة رسوله(ص) ويعدهم بالنصرالمبين إذا ما صبروا واتكلوا واتقوا، وكان العدو في كل يوم يرسل قائداً من قواده ومعه كوكبة منالفرسان فيحملون على المسلمين من وراء الخندق، ويرمونهم بالسهام والحجارة وأمثالهما حتىأقلقوهم إلى أن اتخذ أبو سفيان وأعوانه من رؤوس الجيش قراراً بالهجوم الكاسح بالجيش كُلّهُ ليضيقوا الخناق على المسلمين، وتقدموا على الجيش بعد أن أقاموا في منطقة من مناطق الخندقليلتمسوا مضيقاً فيه ينفذون منه ويعبر منه جيشهم ويراقبون الخندق من الرأس إلى الرأس، حتىأصابوا موضعاً في الخندق غفل المسلمون عن

---

(١) مغازي الواقدي، ج١، ص٤٦٩.

تعميقه فكان أضيق من المواضع الأخرى، فهمزواخيولهم واقتحمه عدد منهم كعمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبدالله المخزومي وضرار بن الخطاب واستقروا على الجانب الآخر، فسبق علي(ع) ومعه جماعةمن المجاهدين وأخذ هذا الجانب من الخندق وحال بين القوم وبين عبوره مخافة أن يجتازه سواهم فتقهقر القوم وراء الخندق وحبسوا هناك ولم يتمكن من عبوره إلا هؤلاء الخمسة، فدار بينهم وبين المسلمين القتال ولم يستطع أصحابهم أن يمدوهم، وكانوا أصحاب النجدة في جيش العدو من بينهمعمرو بن عبد ود وكان أشهرهم بالشجاعة، وأعرفهم بالقتال وفنونه، حتى لقب بفارس «يليل»، فركض عمرو بفرسه في ميدان القتال وطلب البراز وخافه المسلمون، لا سيما المهاجرون منهم لمعرفتهم بسوابقه في ميادين القتال واستولى على كبارهم الفزع والهلع، ولم يجرؤ أحد منهم علىمقابلته خصوصاً وقد راح يرتجز فيهم معدداً مواقفه وبطولاته مما ضاعف هلعهم منه وكان يغيربفرسه ذات اليمين وذات اليسار ويرفع عقيرته بطلب المبارزة فلم يخرج إليه من بين المسلمين كلهمإلا علي بن أبي طالب فقد استعد لمجاولته ومصاولته، وأذن له النبي فأسرع إلى لقاء عدوه وتلاقىالرجلان وجهاً لوجه وبعد قليل من الكر والفر سمع تكبير علي(ع) وعلت غبرة في الميدان سترتموقع الحدث، فعلم الناس كلهم أن علياً(ع) قتل عمراً بن عبد ود وما إن علم بقتله أصحابه الذينعبروا معه وهم عكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب ونوفل بن عبداللهالمخزومي حتى لاذوا بالفرار وعادوا من حيث عبروا إلى الجهة الثانية فأقحموا

خيولهم الخندق مرة أخرى ففرَّت منه إلى حيث يتمركز إخوانهم، ولكن أحدهم وهو نوفل بن عبدالله المخزومي كبا بهجواده ووقع في الخندق فنزل إليه علي(ع) وقتله بسيفه وكان قتل عمرو بن عبد ود وفرار أصحابهباعثاً على عزة المسلمين، وهوان الكفار وذلهم، ولقد قال رسول الله لعلي(ع): «أبشر يا علي، فلووزن اليوم عِملك بعمل أمة محمد لرجح عملك بعملهم وذلك أنه لم يبق بيت من بيوت المشركين إلاوقد دخله وهن بقتل عمرو ولم يبق بيت من بيوت المسلمين إلا وقد دخله عز بقتل عمرو»[(١)] وأطيح بدولة الكفر بعد قتل ابن عبد ود على يد أمير المؤمنين(ع) وساءت العلاقة بين بني قريظةوالمشركين ولم تتم الحملة العامة على المسلمين من قبل المشركين لسلب الثقة ببعضهما البعض منجهة أخرى فإنَّ محاصرة المدينة طالت ولم تثمر الثمرة المرجوة للمشركين، واشتد عصف الريحالباردة وأوشكت علوفة ماشيتهم على النفاد، وكثرت المشاكل فيما بينهم مما أوجد ذلك وهناً فينفوسهم وملأً من استمرار الحصار مضافاً إلى هذا كله فقد اجتاحتهم عاصفة هوجاء قلبت المعادلةرأساً على عقب، واشتد الوضع على المشركين على أثر الريح العاصفة وتحيّر الجيش في وضعه،فأمر أبو سفيان في نفس الليلة بتقويض معسكرهم والرحيل إلى مكة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٠٥ و ج٣٩ ص٣ وج١٠٨؛ والبيان ج٨ ص١٣٣؛ شواهد التنزيل للحسكاني، ج٢، ص١٣.

وسرعان ما استجابت غطفان لنداء أبي سفيان وفعلت فعل كفار قريش، وأتبعهم بترك الحصار، والرضا من الغنيمة بالإياب، وما كانت الليلة الثانية لجلاء الجيش المشرك إلا والمدينة تتنفس الصعداء من رحيل آخر جندي عن صدرها، وعاد الأحزاب إلى بلادهم ولم يبق إلا بنوقريظة في قلاعهم القريبة من المدينة.

وانتهت غزوة الأحزاب بهذه الصورة المخزية وكانت غزوة بني قريظة عقيبها.

ولما كانت غزوة بني قريظة لا مدخلية لها في بحثنا (من تاريخ المنافقين المختصر) لذلك تخطيناه، ولم نعرض لروايته.

هذا ما كان من حديث غزوة الأحزاب، نذكرناه مستفاداً من روايات الفريقين أما ما كان لهصلة بهوامش الغزوة وأكثره يعود إلى معرفة المسلمين فيها فسوف نذكره مذيلاً على بيان الآيات ٩إلى ٢٧ من سورة الأحزاب.

التحقيق في وضع " المؤمنين العاديين "

في الآيات من آية ٩ إلى آية ٢٧ من سورة الأحزاب

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

لتكن هاتان الآيتان الشريفتان ماثلتين أمامنا فإنهما سوف يكونان حلقة في مسار البحث لنزولهما قبل غزوة الأحزاب وبني قريظة، ولهما صلة وثيقة فيما يأتي من التحقيق.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

ولما ختم الله سبحانه الآية بقوله: «وكان الله بما تعملون بصيراً» دل بذلك على عدم رضاه عما فعله المؤمنون الحاضرون في الغزوة، ومن ثم لم يكونوا جديرين بالنعمة التي أنعمها عليهم بعد ذلك البلاء والمحنة، وقد أيدت الآيتان التاليتان هذا المطلب:

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ .

من هذه الآيات الثلاث يتجلى لنا بوضوح أن المؤمنين أصيبت معنوياتهم بالخيبة والإخفاق حين لقائهم مع العدو واضطربوا اضطراباً شديداً واستولى عليهم الخوف والهلع، وظنوا بالله ورسوله الظنون، ويمكن

لنا إجمال حالهم أنهم لم ينجحوا بالامتحان كما ينبغي لهم أن ينجحوا.

وبإمكاننا الاستدلال على ما قلناه من الخطاب الموجه للمؤمنين فإن الآيات الثلاث اختصت بمخاطبة المؤمنين ومن البيّن أن الخطاب إذا تمحض لهم واختص بهم كان ما فيه من لوم وتقريع شامل لهم أيضاً.

روى ابن هشام في «السيرة النبوية» الرواية التالية وهي تعكس ما كان عليه وضع المؤمنين ساعتئذٍ:

«وعظم عند ذلك البلاء واشتدّ الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن...» (١).

ونقل الطبرسي في «مجمع البيان» القول نفسه عن محمد بن كعب القرظي، وسائر أصحاب السير والمغازي (٢).

وعلى أية حال لا شبهة في أن الآيات الثلاث توجه الخطاب للمؤمنين الحاضرين في غزوة الأحزاب وتكشف لهم عوراتهم في قبال هجوم العدو عليهم بصورة مكثفة، لكن ينبغي الالتفات إلى أن التوبيخ واللوم لم يكن شاملاً للمؤمنين جميعاً وكما سوف يأتي في تفسير الآيات ٩ إلى ٢٤ أنَّ من المؤمنين رجالاً في غزوة الأحزاب صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلا تنطبق عليهم الآيات المذكورة بل كانوا بمنأى عن اللوم والتقريع ليس هذا فحسب بل ارتقوا بإيمانهم إلى أعلى مدارج الكمال واليقين، وهم يستقبلون الأعداد الهائلة من

---

(١) سيرة ابن هشام، ج٣، ص٢٣٢.

(٢) ج٨، ص١٣٠.

أحزاب العدو تشهد لهم بذلك آيات القرآن الكريم المذكورة ولذلك أثنى عليهم ربهم أحسن الثناء، ورفع لهم ذكرهم إلى أشرف موضع.

وبناءً على هذا فإنَّ اللوم والتوبيخ إنَّما وُجّه إلى لون خاص من المؤمنين وليس إليهم كلهم وهذا هو ماضي المؤمنين الذي صورته الآيات مورد البحث.

وأما وضع المنافقين بكلا قسميهم المحترفين والعاديين في هذه الآيات فسوف نوضحه في البحث القادم إنْ شاء الله.

تركيز البحث حول وضع " المنافقين المحترفين "

في الآيات ٩ إلى ٢٧ من الأحزاب

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا* وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

ينص على هؤلاء القوم وحدهم، ولما كانت الأكثرية من المنافقين العاديين ليس لهم وحدةمشتركة تتميّز بفكر معلوم وهدف معيّن لكي يضعوا لأنفسهم خطة مرسومة يسيرون على هديهاويسعون لإنجاحها لذلك لم يكن هؤلاء أي المنافقون المحترفون إلا الفئة «الذين في قلوبهممرض».

أجل، بعد أن أوضحت الآية الثانية عشرة - وهي أولى الآيات الست التي تناولها البحث الجرائم المشتركة بين المنافقين العاديين والمحترفين، آن الأوان أن توجه الآية الثالثة عشرة اللومإلى من هم أشد خطراً منهم وأعظم أثراً فتبين ذنوبهم الخاصة بهم وهم «المنافقون المحترفون».

ثالثاً:يظهر مما قلناه أن خطاب «يا أهل يثرب لا مقام لكم» صادر من المنافقين المحترفينإلى المنافقين العاديين، لأن الغالب على المنافقين المحترفين أنهم من المهاجرين الذين تمكنوا منإيجاد مركزية لهم بأحابيلهم المختلفة واستطاعوا أن يوجدوا لهم موطىء قدم في المكانة

المرموقةبين المسلمين ذلك أنهم جزموا بهزيمة المسلمين ونهايتهم بعد إحاطة العدو بهم ورأوا المدينةمحاصرة من جميع جهاتها ولم يخالجهم الشك في أنها النهاية المحتومة للإسلام والمسلمين، راحوايعدون العدة للهرب من ميدان الحرب، فنادوا في المنافقين العاديين وهم في الأعم الأغلب من أهلالمدينة أن «لا مقام لكم فارجعوا» يا أهل يثرب، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل دونما سبب معقول، فإنالنصر دونما شك حليف لأعداء محمد، ولكن كيف يستطيعون إغواء المؤمنين من الأنصار بخبثهموشيطنتهم المعهودة والخزرج بغض النظر عن الوازع الديني هم قبيلة سعد بن عبادة وأتباعه كما أنالأوس مثلهم أتباع سعد بن معاذ وكلا السعدين آليا على نفسيهما أن لا يتركا القتال على أية حالكان الوضع، وقررا أن يعالجا الحرب حتى آخر نفس من حياتهم ولم يبديا أي تخاذل أو ضعف تجاهقوات العدو الضاربة.

ومن أجل أن نلمَ بموقف هذين الرأسين ونعرف القرار الذي اتخذاه بمواصلة الحرب حتىالنصر أو الشهادة تقرأ هذه الرواية:

روى ابن هشام في السيرة النبوية الرواية التالية:

«... فلما اشتدّ على الناس البلاء، بعث رسول الله(ص) كما حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة ومن لا أتّهم عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بنبدر وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينةعلى أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقعالشهادة

ولا عزيمة الصلح، إلا المراوضة في ذلك، فلما أراد رسول الله(ص) أن يفعل بعث إلى سعدبن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه.. فقالا له يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه أمشيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرىً أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله(ص): فأنت وذلك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا»(١).

وهذه الرواية نص عليها محمد بن جرير الطبري في كتابه (تاريخ الأمم (الرسل) والملوك)، كما أن محمد بن عمر بن واقد ذكر أصل الرواية في كتابه المغازي(٢)، لكن الواقدي نسب القول الأخير إلى كلا السعدين وليس سعد بن معاذ وحده.

ونرى الآن أن السعدين لم يستسلما مع أن النبي(ص) أعطى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٣، ص٧٠٨، ط القاهرة مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ١٣٨٣؛ الطبري، ج٢، ص٢٣٩.

(٢) ج٢، ص٤٧٨.

ثلث ثمار المدينة لزعماء غطفانليتكفئوا بقواتهم عن المدينة ويفكوا الحصار عنها رعاية للأنصار وحماية لهم ودفعاً عنهم وأصراعلى خوض المعركة مع أنصارهم جميعاً وهذا معناه أن المؤمنين من القبيلتين على استعداد تامًلخوض الحرب مع العدو وبذل النفس والنفيس.

رابعاً: يظهر من الجزء التالي من الآية: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أن هذا العدد من الرجال من أصحاب النفوذ ومنفئة المنافقين المحترفين يسكنون عادة بعيداً عن ضوضاءالبلد فيختارون أطرافه حيث الهواءالطلق والفضاء الرحب والمصيف المرغوب فيه لأنّها لو لم تكن كذلك وهي محصنة أيضاً لكان جملةوما هي بعورة لا موضع لها.

أجل، ينبغي أن يكون هؤلاء من علية القوم ومن أعلام الفئة المذكورة الذين سعوا سعياً حثيثاًسنين عدداً حتى أقاموا لهم بين المسلمين بالمكر والاحتيال مكانة مرموقة وعرفوا بينهم بضحالة الاعتقاد ورقته، وإن كانوا يبدون لهم خلاف ذلك من هذه الجهة وقفوا بين محذورين فهم غير قادرينعلى ترك الحرب واستدبارها بدون إذن من رسول الله(ص) خوفاً على ماء وجوههم المكتسب أنّ يراق، كما لا يقدرون على الصمود لعلمهم أن الهزيمة لاحقة بالمسلمين حتماً وأن العدو لاشك فيغلبته لذلك تذرعوابهذه الذريعة وهي الخوف على بيوتهم غير المحصّنة أن يقتحمها العدو، لكي يأذنلهم رسول الله(ص) بالعودة إليها.

ونحن استطعنا على أن نحصل على أسماء عدد منهم بل من رؤوسهم المعروفين في فصول الكتاب السالفة ومن غرائب الصدف أن تكون بيوت هؤلاء في أطراف المدينة في الأمكنة الراقية منها، ولا ينبغي أن ننسى أبا بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب منهم، ولم نتمكن من العثور على الدليل الذي يوضح لنا هل أذن لهم النبي أو لم يأذن فرجعوا إلى بيوتهم أو أن الوحي فضحهم فحرموا من الإذن، إلا أن الآيات البينات تحكي عن وجودهم بين ظهراني المسلمين إلى آخر الملحمة.

ومن الملاحظ هنا أن بداية الآيات المعروضة للبحث أعلنت أولاً ثم المنافقين كليهما المحترفين والعاديين فجاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ ثم وجهت المذمة واللوم إلى من هم أشد خطراً وأقوى أثراً وهم المنافقون المحترفون فعرضت أولاً خطيئتهم ومعصيتهم العامة: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وفي الدرجة الثالثة خص اللوم والمذمة بالوجوه البارزة منهم فقال سبحانه:

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾.

أجل، تدرجت المذمة واللوم أعلاه تدرجاً طبيعياً وبناءً على هذا توجه اللوم والمذمة والتوبيخ إلى هذا العدو البارز من المنافقين المحترفين.

وأما في خصوص المذمة والتقريع الواردين في الآية: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ فمن الواضح أنها ترتبط بتلك الجماعة المعلومة من المنافقين المحترفين الذين تقع بيوتهم في أطراف المدينة، لأن الله سبحانه ذكر تلكم البيوت المرفهة وأشار سبحانه: إلى أن العدو لو دخل بيوتهم أو هجم عليهم ثم أرادهم على الكفر فإنهم يكفرون بربهم ويرتدون عن الدين لضعف ثبات أقدامهم في الدين.

نعم إن هذه الآية التي تخبر عن ارتداد رؤوس المنافقين المحترفين الذين اشتهرت صفاتهم بالنفاق بين الجماعة الإسلامية فإنها تعيد إلى الأذهان موضوع ارتدادهم في غزوة أحد. ففي تلك الغزوة اتخذ عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وسائر المعروفين بالنفاق قرار الارتداد بعد أنَّ شاع خبر مقتل النبي(ص).

وهذا ما كان من مفاد الآيات الست التي عرضناها للبحث وقد رأينا أنها باستثناء الآية الأولى تتضمن ذم المنافقين المحترفين.

والآن نعطف الأنظار إلى بقية الآيات المختصة بلوم المنافقين المحترفين وتأنيبهم وذمهم وتقريعهم:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ

أَبْنَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) ﴾.

وقد استفدنا من الآيات الكريمة:

أولاً: إن هؤلاء الذين تعرضت الآيات لذمهم وتقريعهم هم أخبث المنافقين وأخطرهم، لأنَّ الله وصفهم بالبخل مرتين وفي جزء الآية: «فأحبط أعمالهم» أخبر سبحانه عن سقوط أعمالهموتهافت إيمانهم بصفة عامة.

نعم ينبغي أن يكون «المعوقين» هم أولئك النفر المعروفون بالنفاق ذوو الشخصيات المتمرسةبه الذين مر ذكرهم في تفسير الآيات الست المبدوءة بجملة: ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ مع هذا الفارق وهو دلالة الآيات الأربع علىٰ كونهم من ذوي النفوذ والسطوة فيتلك الفئة وممن ألقت إليهم عصى الانقياد والطاعة.

ثانياً: يفهم من كلمة «منكم» الواردة في الآية: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ومن كلمة «لكم» المذكورة في الآية: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» وهاتان الآيتانمختصتان بمخاطبة المؤمنين.

أقول: يفهم منهما ما لهؤلاء النفر البارزين في النفاق من الطاعة على المنافقين والسيادةوالهيمنة عليهم تحت ظل نفاق سري مرموز بحيث خفي على المؤمنين حتى حسبوهم منهموخدعوا بإيمانهم فظنوه صحيحاً لا غبار عليه.

نعم، إن خطرهم يكمن في هذا الموضع من وجودهم بين المؤمنين منبثين في جماعتهم يحسبونهم منهم وهم ليسوا منهم.

ثالثاً: يستفاد من الآيات المعروضة للبحث الخاصة بهؤلاء المنافقين الآمرين المطاعين في فئة المنافقين المحترفين أنهم كانوا وحتى آخر يوم من غزوة الأحزاب وقد قيل: إنها دامت بضعاً وعشرين يوماً يظهرون بين الفينة والفينة في ساحات القتال، ليظهروا للناس أنهم في الحرب مع المجاهدين، لأنَّ الجزء من الآية: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعرب عن وجودهم أحياناً في ميدان الحرب ويعرب الجزء ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ المذكور في الآية ١٩ أنَّهم إذا حل خوف معين بساحتهم انضموا إلى المسلمين وحضروا عند رسول الله(ص).

وأما الجزء: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ المذكورة في الآية ٢٠ فإنه يفيد أن القوم عندما يخبر رسول الله المسلمين بنزول النصر وهزيمة العدو وعودته من حيث أتى، وتفكك الأحزاب وانحلال جموعهم فإنَّ الهلع يحملهم وهم في معسكر المسلمين على عدم تصديق النبي في ذلك.

رابعاً: لما كان الهدف الأعظم للمسلمين في أيام الحرب التي دامت بضعاً وعشرين يوماً الدفاع عن الخندق حيث يحاصر المشركون المدينة خشية اقتحامه من قبل العدو فيفتكون بالناس وينهبون المدينة، ولم يشهد الجيشان قتالاً طول هذه المدة إلّا في الموضع الذي تقحّمه «عمر بن عبدود» وأصحابه من الخندق في

جهة المسلمين، ولم يكن قتال في أيّ يوم آخر من أيام الحصار تتضحلنا من مجموع هذه النكات الأمور التالية:

أولاً: الغرض من كلمة «البأس» الواردة في الجملة «ولا يأتون البأس إلّا قليلاً» هو التأهبللحرب بأقصى ما يمكن من القوة للدفاع عن الخندق والحفاظ عليه طول مدة المحاصرة وقد تحملالمسلمون العبء الثقيل ليلاً ونهاراً في قيامهم على الحراسة والدفاع وكان مشقة لا تطاق، حتىكانت تدور بين الجانبين معارك بالحجارة والنبل وما شاكل ذلك، وبناءً على هذا فإن المذكورين فيالآيات الأربع ومن بالغت الآيات في ذمهم ولومهم وهم يعدون من عمداء فئة المنافقين المحترفينوأهل السن فيهم ومن له الطاعة عليهم هؤلاء وإن حضروا القتال في الجانب المسلم واعتبروا ضمنالجيش الإسلامي إلّا أنهم نادراً ما يشتركون في الدفاع عن الخندق مع المسلمين الذين تكفلوابحمايته وحفظه من اختراق العدو له، ويمنعون إخوانهم المنافقين ومن كان على شاكلتهم منالمشاركة في الدفاع.

٢ ـ وحينئذ يكون معنى الخوف الوارد في الآية﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾تلكم المواجهةالتي تدور بين الطرفين حول الخندق من حيث اقتحمه عمرو بن عبد ود وأصحابه ورفع عقيرتهبينهم بطلب المبارزة، ولم يخرج إلى «فارس يليل» احد إلّا علي بن أبي طالب(ع) .

ذكر الطبرسي في «مجمع البيان» عن أصحاب السير والمغازي المشهورةالخبر التالي:

«وكان عمرو بن عبد ود فارس قريش وكان قد قاتل يوم بدر حتى ارتث واتته الجراح ولم يشهد أحداً فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مشهده ... وكان يسمى فارس يليل»(١) لأنه أقبل في ركب من قريش حتى إذا كانوا بيليل(٢) وهو واد قريب من بدر عرضت له بنو بكر في عدد فقال لأصحابه: امضوا فقام في

---

(١) ضبطه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة «مليل» بالميم وذكر الأبيات التالية:

عمرو بن عبد كان أول   عمرو بن عبد كان أول   جزع المذاد وكان فارس

جزع المذاد: أي قطع الخندق:

سمح الخلائق ماجد ذو مرة   سمح الخلائق ماجد ذو مرة   يبغي القتال بشكة لم ينكل

ولقد علمتم حين ولوا عنكم   عنكم   أنّ ابن عبد منهم لم يعجل

حتى تكنفه الكماة وكلهم   تكنفه الكماة وكلهم   يبغي القتال له وليس بمؤتل

ولقد تكنفت الفوارس فارساً   لقد تكنفت الفوارس فارساً   بجنوب سلع غير نكس

سأل النزال هناك فارس   سأل النزال هناك فارس   بجنوب سلع ليته لم ينزل

فاذهب علي ما ظفرت   فاذهب علي ما ظفرت   فخراً ولو لاقيت مثل

نفسي الفداء لفارس من   نفسي الفداء لفارس من   لاقى حمام الموت لم

أعني الذي جزع المذاد ولم   عني الذي جزع المذاد ولم   فشلاً وليس لدى الحروب

شرح ابن أبي الحديد، ج١٣، ص٢٨٨.

(٢) قال في معجم البلدان: اليل بالفتح ثم السكون وياء مفتوحة ولام أخرى، ويقال: يليل أوله ياء موضع بين وادي ينبع وبين العذيبه والعذيبه قرية بين الجار وينبع، وثم كثيب يقال له: كثيب يليل إلى آخره، معجم البلدان، مادة يليل.

وجوه بني بكر حتى منعهم من أن يصلوا إليه فعرف بذلك «وكان اسم الموضع الذي حفر فيه الخندق «المذاد» وكان أول من طفره عمرو وأصحابه فقيل في ذلك:

عمرو بن عبد كان أوّل فارس   بد كان أول فارس   جزع المذاد وكان فارس يليل

«وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود كان ينادي: من يبارز؟ فقال علي(ع) وهو مقنع في الحديد فقال: أنا له يا نبيّ الله فقال: إنه عمرو اجلس ونادى عمرو ألا رجل! وهو يؤنّبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟! فقام علي(ع) فقال: أنا له يا رسول الله، ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء
ولقد بححت من النداء   بجمعكم هل من مبارز؟!
ووقفت إذ جبن المشجع
ووقفت إذ جبن المشجع   موقف البطل المناجز
إن السماحة والشجاعة
إن السماحة والشجاعة   في الفتى خير الغرائز

«فقام علي(ع) فقال: يا رسول الله، أنا فقال إنه عمرو فقال: وإن كان عمراً، فاستأذن رسول الله فأذن له رسول الله(ص):

«قال ابن إسحاق فمشى إليه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك
ـن فقد أتاك   مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة
ذو نية وبصيرة   والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيم عليك
إني لأرجو أن أقيم عليك   نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء
من ضربة نجلاء   يبقى ذكرها عند الهزاهز

«قال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي قال: ابن عبد مناف؟

فقال: أنا علي بن أبي طالب بن‌عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ منك، فإني‌أكره أن أهريق دمك فقال علي: لكن والله ما أكره أن أهريق دمك فغضب ونزل فسلّ سيفه كأنه شعلة‌نار ثم أقبل نحو علي مغضباً فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو بالدرقة فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه وضربه علي على حبل العاتق فسقط»[١].

خامساً: يستفاد من الآيات الأربعة المعروضة للبحث الأمور التالية:

أ ـ ظهر لنا من العلامات المميّزة لهذه الفئة المنافقة ولأصحاب الأمر والنفوذ فيها أنهم مع‌مجيء الخوف المعلوم يفرقون من لقاء العدو وجهاً لوجه، فرقاً شديداً ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

روى محمد بن عمر بن واقد في كتاب المغازي الرواية التالية:

قال علي(ع) أنا أبارزه يا رسول الله ثلاث مرات وأن المسلمين يومئذٍ كأن على رؤوسهم‌الطير لمكان عمرو وشجاعته»[٢] ومن الضروري أن المنافقين المحترفين وآمريهم وأهل السن فيهم‌أولى بالفزع والخوف من عمرو بن عبد ود إذا كان فرسان المسلمين في فرق من لقائه وأشد دفعاًلمواجهته وأصحابه.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص١٣١، ط مؤسسة الأعلمي، لبنان تقديم السيد محسن الأمين، ١٤١٥ هجرية/ نسخة المترجم.

(٢) مغازي الواقدي، ج١، ص٤٧١ نسخة.

ب ـ ومن العلامات الفارقة لهم أنهم بعد القضاء على عمرو وذهاب «الخوف المعين» عنهموهرب أصحاب عمرو من المواجهة استهان عمداء فئة المنافقين المحترفين بالخير الذي أصابالمسلمين ببركة علي(ع) وذهبوا يسلقونه بألسنتهم الحادة حتى آذوه، وآلموا قلب النبي والمؤمنين﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ومن حسن الاتفاق أن روايات جمةوردت في كتب الفريقين ذكرت عن عمر بن الخطاب أنه تناول علياً بلسانه بعد قتله عمر بن عبد ودوعبّر عنه بتعابير مختلفة وأطلق لسانه فيه، أحياناً يقول: لماذا لم تسلبه درعه وأحياناً يقول للنبي: إنَّ علياً لم يترك زهوه بعد مقتل عمرو، فآلم بذلك قلب رسول الله وقلب المؤمنين مع أن النبي طبقاً لمارواه الفريقان قيّم العمل الذي قام به علي(ع) بقول: ابشر يا علي فلو وزن اليوم عملك بعمل أمةمحمد لرجح عملك به»[(١)] .

ج ـ ومن العلامات الفارقة لفئة المنافقين المحترفين وكبارهم وأهل السن فيهم أنهم ارتابوافي صدق قول النبي عندما أخبر عن هزيمة الأحزاب وتقهقرهم إلى مكة وتلاشي فلولهم وبشرالمسلمين بالنصر عليهم، وأنهم غادروا المكان وقد أخذ منهم الرعب كل مأخذ وزعموا أن النبيأخطأ ـ وحاشاه من ذلك ـ بما أخبر به «يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ...».

---

(١) ونقتصر هنا على كتب السنة التي أخرجت هذا الحديث: شواهد التنزيل للحسكاني، ج٢، ص١٣؛ ينابيع المودة، ج١، ص٢٨٣ و ٢٨٥، وهناك كتب كثيرة للشيعة والسنة لا موضع لذكرها هنا.

أجل، لو لم يكن النبي قد أخبر المسلمين بنزول النصر عليهم وخروجالأحزاب مهزومين لماكان محل لقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾.

روى جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور» (ج ٥ ص ١٨٥) الرواية التالية:

«أخرج الفريابي وابن عساكر عن إبراهيم التيمي عن أبيه: قال: قال رجل إن أدركت رسولالله(ص) لحملته ولفعلت فقال حذيفة: لقد رأيتني ليلة الأحزاب ونحن مع رسول الله(ص) فكانرسول الله يصلي من الليل في ليلة باردة ما قبله ولا بعده برد كان أشدّ منه، فحانت مني التفاته (ينبغيأن تكون فحانت منا التفاتة بقرينة ما بعدها) فقال: ألا رجل يذهب إلى هؤلاء فيأتينا بخبرهم جعلهالله معي يوم القيامة؟ قال: فما قام منا إنسان فسكتوا ثم عاد فسكتوا، ثم قال: يا أبابكر، ثم قال: استغفر الله ورسوله، ثم قال: يا حذيفة، فقلت لبيك فقمت حتى أتيت وإن جنبيّ ليضربانمن البرد فمسح رأسي ووجهي ثم قال: أئت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم ولا تحدث حدثاً حتىترجع...»(١).

والنبي(ص) وقد نادى أبا بكر باسمه وثنّى بعده بعمر باسمه أيضاً إلّا أنهما لم يعبئا بندائه وكان أرادهما على استطلاع أمر العدو واستعلام حاله حتى نادى حذيفة بن اليمانفاستجاب له وذهب حيث أمره.

ومن المعقول أن هذا العصيان والالتواء عن أمر النبي لم يكن

(١) الدر المنثور، ج٥، ص١٨٥.

جزافاً منهما ولا محض صدفةواتفاق وإنما هو بناءً على ما حصل لهما من الترديد والشك في جلاء الأحزاب عن المدينة والشاهدعلى ذلك حذيفة حين استجاب للنبي بمجرد أن دعاه، وذهب في نفس الليلة للاستطلاع عما أمر به النبي(ص) .

هذا ما كان من حال المنافقين المحترفين والعاديين في غزوة الأحزاب طبقاً لما قصتهالآيات عنها ففي الآية الثانية عشرة من سورة الأحزاب تذكير بالذنب المشترك بين الفريقينالمذكورين المحترفين والعاديين.

وخص صدر الآية الثالثة عشرة بمن هم أشد خطراً أي المنافقين المحترفين، فذكر سبحانه المعصية العامة لهم﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ويبدأ تقريعالمتنفذين منهم وذوي السيطرة والأمرة من جزء الآية الثالثة عشرة بقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾حتى آخر الآية السابعة عشرة مع التركيز على الوجوه البارزةفي المنافقين المحترفين بين المسلمين.

وفي الآيات الأربع الأخيرة (من آية ١٨ إلى ٢١) تعطف الأذهان إلى الخصائص المستبشعةللوجوه البارزة فيهم وطبايع ذوي السن منهم.

وبناءً على هذه الحقائق الثابتة تكون الروايات المنبعثة هنا وهناك بين السنن الصحيحةالمستبدة لهم والمادحة لهم ما هي إلا الافتراء البين والكذب الصريح لمخالفتها للآيات المذكورةوتعتبر من وضع جهاز الاختلاق الروائي لتكون غزوة الأحزاب كالغزوتين بدر وأحد

محلاًلاختلاق القصص والبطولات والمناقب التي لا أساس لها على الإطلاق ولكنها وضعت لحساب الحاكم المتنفذ.

والآن في الفصل القادم نعمد إلى بحث بقية الآيات وتحقيقها كما عرضناها للبحث من قبل وهي في الإشادة بالمؤمنين الحقيقيين الحاضرين في غزوة الأحزاب وتمجيدهم ورفع شأنهم وإعلاء أمرهم بالمدح والثناء.

تحقيق ما كان عليه وضع المؤمنين الحقيقيين الصادقين في الآيات (٩ إلى ٢٧) من سورة الأحزاب

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾.

يظهر من هذه الآية الشريفة:

أولاً: أن هؤلاء المؤمنين ليس كالمؤمنين الذين ورد نعتهم في الآيتين التاليتين: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾فقد استولى عليهم الهلع من مشاهدة جموع العدو، وبلغت القلوب الحناجر، كما عبّرت الآية الشريفة عن مبلغ خوفهم بل وصفتهم بأعظم من ذلك وهو إساءة الظن بالخالق سبحانه.

إن المؤمنين المذكورين في الآية (٢٢) نصّت على الإشادة بهم وأطرت مواقفهم في سبيل الله تعالى حيث لم ينلهم فزع ولا هلع من رؤية جموع العدو المدججة بالسلاح ولا طرأ عليهم خوف ولم تتزلزل أقدامهم أو يستوحشوا مما استوحش منه غيرهم فضلاً عن أن يسيئوا الظن بمواعدهم ربهم أو يعتريهم شك بفضله وحسن تدبيره أو تبلغ قلوبهم الحناجر مما اعتراهم وألمّ بهم.

إنّ هؤلاء هم أوداء النبي وأحبابه الواقعيون الذين رهنوا عنده ألبابهم واستولى على عقولهم فهامت بحبه وجداً.

من ثم: فوضوا أمرهم إلى الله وأطاعوا أمره وأمر رسوله ولم يخطو خطوة واحدة إلا بمايرضي رسول الله ويستجلب حبه ولطفه، وهاهم يلقون زمام التسليم في سبيل دين الله ويرضون بغبطة متناهية في قبال المحن والمصاعب والأتعاب التي اعترضت طريقهم وهم يتوجهون صوب دين الله سبحانه﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾(١).

هؤلاء المؤمنون هم الذين نزلت صفاتهم في سورة البقرة قبل نزول سورة الأحزاب، ومن تلك الصفات الإيثار والتضحية، قال تعالى:

﴿لَيسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾(٢).

ولابدَّ من الرجوع إلى مصادر الفريقين للتعرف على أسماء هؤلاء القوم من أجل اكتشاف النمط المؤمن الحاضر في غزوة الأحزاب، الذي تسالم على صدق إيمانه الفريقان، وأيّدته مرويّاتهم لكي يضاف إلى الفئة المؤمنة التي نعتتها الآية السالفة.

أجل، إن كان بمستطاعنا استعمال هذه الروية في التحقيق فسوف نعثر من هؤلاء على أمثال المقداد بن الأسود، حذيفة بن اليمان،

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

خزيمة بن ثابت، عمار بن ياسر، سلمان الفارسي، سعد بنمعاذ، سهل بن حنيف، أبو الهيثم بن التيّهان، بريدة الأسلمي وغيرهم، الذين كانت لهم قدم صدق فيغزوة الأحزاب، وتسالمت روايات الفريقين على صدق إيمانهم، هؤلاء من المؤمنين ينتظمهم سياقالآية مارة الذكر المرقمة برقم (٢٢) ومن أجل العثور على باقي أسمائهم ينبغي تحكيم الرويةالسالفة في البحث.

ثانياً: وبمقارنة الجملة الشريفة التي تؤلف الآية السالفة مع جمل غيرها: ﴿**قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَااللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ**﴾المعزوّ قولها إلى المؤمنين الواقعيين مع قوله تعالى:﴿**مَا وَعَدَنَااللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً**﴾الوارد في الآية ١٢ وهو قول المنافقين عند مواجهة جيش الأحزابالمعادين، يظهر لنا جلياً أن هذا الوعد هو «وعد الله ورسوله» بلقاء العدو والنهاية الحميدة للمسلمينحيث انقسم المسلمون على أثر هجوم الأحزاب عليهم إلى ثلاث فرق:

١ ـ فرقة المنافقين المحترفين والعاديين الذين اعتبروا النهاية الحميدة القاضية بانحسارموجة الأحزاب عن المدينة وفوز المسلمين عليهم من المحالات التي لا تتحقق أبداً.

٢ ـ فرقة المؤمنين العاديين الذين استولى عليهم الفزع من هجوم الأحزاب وجموع العدوالمقاتلة حتى بلغت القلوب الحناجر فقد أيسوا من النصر وشكوا في الوعد المذكور من ظهورالمسلمين على الأحزاب، ورأوا تحقق ذلك لا يتم قطعاً، وتناهبتهم الوساوس والشكوك ولكنهم لميقطعوا باستحالة ذلك ولم يرهقهم الظن السيىء

كماجرى عليه المنافقون.

٣ ـ ولكن المؤمنين الحقيقيين والمخلصين حين شاهدوا هجوم الأعداء وهو شطر من الوعدالمذكور أيقنوا بالنصر حيث النهاية الحاسمة على العدو وهو الشطر الأخير من الوعد السالف،وصارت رؤية الأحزاب سبباً لترسيخ الإيمان في قلوبهم وزيادته، من ثم سلموا أمرهم الله مع الرضابكل ما يصيبهم في سبيله من الضيق والعنت ووطّنوا أنفسهم على التضحياتوإنْ كانت جسيمةومهما تنوعت أو تعددت.

ثم شرع الوحي على أثر وضوح غرّة المؤمنين الحقيقيين في مشاهد الجهاد هذه في توصيفالمؤمن الحقيقي الحاضر في وقعة الأحزاب الأكثر تميّزاً وظهوراً حيث نركز على كشفه في الفصلالآتي.

معرفة المؤمن الحقيقي المتميز

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً* لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

من أجل بلوغ المعنى في هاتين الآيتين نحتاج إلى أمرين رقة متناهية مصحوبة بدقة نظر ولكي ندرك كهذا المعنى يلزمنا استحضار نكات عدة:

أولاً: المعنى المراد من لفظ «المؤمنين» المذكور في الجملة الشريفة﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ينبغي أن يكون المعنى ذاته المراد من المؤمنين الحقيقيين الواقعيين،الذين كرمتهم الآية السابقة (٢٢) وأثنت عليهم، وأشادت بفعالهم وخصالهم، وأخبرت عنهم من أنلقاء الأحزاب وجموع العدو صار باعثاً على ازدياد إيمانهم وتنمّرهم في ذات الله واستبسالهموتوطينهم أنفسهم على الكريهة.

لأنَّ رجال الصدق والوفاء التام الذين ذكرتهم الآيتان (٢٣ - ٢٤) بكثير من الإشادة والتكريممن الله جل جلاله هم من المؤمنين الحقيقيين الواقعيين الذين امتازوا بالصفات الفاضلة في الجهادو التضحية وموقعهم في أرفع درجات الإيمان، لذلك يعتبر حرف من التبعيضية في «من المؤمنين»أنها تستثنيهم من المؤمنين الحقيقيين

الواقعيين لا من مطلق المؤمنين الذين لقوا الأحزاب فلستولىالخوف والفزع على بعضهم وأوشك على التزلزل والاستسلام،ولا من طرق قلوبهم الشك والتردد بصدقوعد الله ووعد رسوله وانصاعوا لمثل هذه الخطرات والوساوس.

وحينئذ كما كانت الألف واللام في كلمة «المؤمنون» الواردة في الآية﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾للعهدفهي أيضاً للعهد في كلمة المؤمنون المذكورة في الآية:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾وقد جاءت بعدها من حيث السياق.

ثانياً: لما كان متعلق قوله تعالى: «صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ» مطلعاً في صدق عهدهم معالله، ولم يتعلق بمتعلق خاص من ثم خلت الجملة من ذكره، فإن الآية «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْقَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً» تعلقت بمتعلق خاص وهو استدبار العدو أو توليةالعدو الإدبار ساعة القتال، علمنا أن هؤلاء الرجال المنصوص عليهم في الآية هم البالغون رتبةالعصمة بحيث لم يتصوّر منهم صدور ذنب أو ارتكاب معصية، ولو لم يكونوا في هذه المرتبة لكانقوله تعالى:﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾بإطلاقه جزافاً عليهم، وهو مجرد ادعاء.

أجل عندما ندرك أن جملة صدقوا ما عاهدوا الله عليه بحدودها ومميّزاتها الخاصة لم ترد فيالقرآن كله إلا في هذا المورد خاصة،

الذي يثني به الله على المؤمنين الحقيقيين الواقعيين الذين حضروا غزوة الأحزاب وكان لهم وجود مميّز فيها، وأنها لم تستعمل قط في أي فريق آخر ممن مدحهم الله وأثنى عليهم، ندرك بوعي أن الآية الشريفة﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾أن مصاديقها رجال في أعلى مراتبَ السمو والعصمة وأنهم من الندرة بمكان.

والأمر الذي يضفي تأييداً على المطلب السالف قبل ذلك هو التأكيد بالجملة «وما بدلوا تبديلاً» مما يدل على أنهم ما غيرهم في عهدهم ولا ميثاقهم مثقال ذرة وظلوا متمسكين بالعهد الذي عاهدوا الله عليه حتى نهاية حياتهم.

على أن المفسرين أو عامتهم على أقلّ تقدير يرون أن قوله تعالى: ﴿مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ المذكور في هذه الآية ناظر إلى ميثاق لا يولون الأدبار، فهو تعبير عنه وتجد ذلك مذكوراً في الآية(١٥) ولكن إمعان النظر في الآية التالية: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾وهي الآية التي سبقت الآية المتكلم (بفتح اللام) عنها، يتجلى للعيان أن جماعة المؤمنين الحقيقيين كلهم ألزموا أنفسهم بميثاق قوله تعالى: «لا يولون الأدبار» وإلّا فلا معنى للقول بأنهم لما رأوا جموع الأحزاب ازداد إيمانهم وسلموا أمرهم الله تعالى ولكنهم لما التقت حلقتا البطان والتفت الساق بالساق وقامت الحرب على ساق ولوا العدو أدبارهم وفروا من ساحة الوغى.

وبناءً على ما تقدّم فإن «الرجال» المنكورين في الآية﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾هم من النخبة الممتازة ومن المؤمنينَ الواقعيين الذين ارتبطوا بميثاقٍ أجلٍ وأعظم من ميثاق لا يولون الأدبار، وعهد إليهم به بحيث استحقوا نلك الثناء العاطر من الله والتكريم الخاص والتمجيد منه سبحانه لما أظهروا من الصدق والوفاء عند مراعاته.

وحينئذٍ يمكن القول على ضوء ما تقدم أن ميثاقهم بالضرورة هو الميثاق المطلق الذي حازه المعصومون وهم المؤمنون الحقيقيون الممتازون عند الله تعالى.

والعجيب في الأمر نجد الوحي يؤنب المنافقين المحترفين على نقضهم ميثاقٍ «لا يولون الأدبار» في الآية التالية: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً﴾ (١) بل لم يعزو نلك حتى للمؤمنين العاديين الذين زلزلوا برؤية الأحزاب وأصيبت معنوياتهم بالهزيمة، فكيف والحال هذه يصح نسبته إلى كمالات المؤمنين الحقيقيين الواقعيين وجعله من صفاتهم.

ثالثاً: أن ما يستفاد من الجملة «ومنهم من ينتظر» أن ساعة نزول الآيات (وكان نزولها في السنة الخامسة من الهجرة) كان عدد من هؤلاء الرجال على قيد الحياة ينتظرون حلول ساعة الموت ليبرزوا بصدقهم ووفائهم بين يدي الله تعالى، لأنَّ المعلوم لغة من كلمة «انتظار» توقع حصول شيء في مستقبل قريب، ومن هنا نعلم أن هؤلاء الرجال

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٥.

الأحياء المذكورين يعيشون دائماً في حالةانتظار استجابة لعهدهم ووفاءً لوعدهم وبذلك يصلون إلى منزل البلغة الذي واثقوا الله على بلوغه،أجل يتجلى لنا من حضور هذا المعنى في عقولهم ومثوله لهم أن فكرة المعصية او ارتكاب الذنب لاتخطر في أذهانهم مطلقاً، بل لا يتصور في حقهم تمثل الخروج على مقتضى الميثاق الذي واثقوا اللهعليه ناهيك بإجراء فعل الذنب على ساحة الوجود أو نقض ذلك العهد المعهود.

وهنا لابدَّ أنْ نتدبر فيما ورد سالفاً.

ولابدَّ أنْ نستحضر الآن ما تقدم من بيان معنى الآيات مورد البحث (آيات ٩ إلى ٢٧سورة الأحزاب)حيث استثنينا آيتين هما السابعة والثامنة من سورة الأحزاب وألمعنا بالإشارة إليها ولابدَّ أنْ نستحضرها في مستقبل البحث.

أصل المقارنة:

الأولى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا* لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(١).

(١) سورة الأحزاب.

الثانية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا* لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(١).

فحينما تضع هاتين الآيتين نصب أعيننا مع استحضار النكات الدقيقة التي نوهنا عنها، وسوف نرى أنَّها تبين نفس المعنى الذي تعرضت له الآيتان الأوليان مع فارق واحد هو أنهماتعرضتا لبيان مرحلة أخذ الميثاق وعقد العهد المطلقين ولكن الآيتين الأخريين تعرضتا لمرحلةالعمل بهذا العهد المطلق لذا كانت غاية مرحلة أخذ الميثاق وعقد العهد هو سؤال الصادقين عنصدقهم «ليسئل الصادقين عن صدقهم» بينما كانت غاية مرحلة العمل بهذا الميثاق هو جزاءالصادقين قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.

خلا أن كلمة واحدة تخللت الآيتين الأوليين وهي قوله تعالى النبيين واستبدال كلمة المؤمنينبها في الآيتين التاليتين ربما دقتا في الفهم على بعض الأذهان وعسر عليها تميّز المعنى الواقعي منهاولكن الإنسان عندما يدرك أن الأنبياء أنفسهم هم معدودون من المؤمنين الحقيقيين كما تنص الآيةالشريفة﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾(٢) يرتفع الإشكال من الذهن ويتميز وجه الحق فياتحاد المعنى في النبيين والمؤمنين من الآيات السالفة.

(١) سورة الأحزاب.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

مضافاً إلى ما سبق سوف ندرك مع استعمال الدقة أنه لم يحدث تقابل بين الكلمتين «النبيين والمؤمنين» بل التقابل حادث بين كلمتي النبيين والرجال وفي هذه الصورة يثبت لنا أن الأنبياء هم أنفسهم من الرجال الذين تصدق عليهم جملة «صدقوا ما عاهدوا الله عليه صدقاً تاماً».

خلا أنه من الوضوح بمكان أن منطوق الآيتين الأخيرين أكثر شمولاً حين ينسحب بالقطع على ما عدا فئة الأنبياء ليشمل قوماً من أمة خاتم النبيين، وهم ليسوا بأنبياء قطعاً لأن شمولها لو لم ينتظم هؤلاء القوم مع الأنبياء بنسق لكان مجيؤها ضمن الآيات الخاصة بالمؤمنين الواقعيين الحاضرين في وقعة الأحزاب لا وجه له.

ولما توصلنا في هذه المقارنة إلى نتيجة واحدة وهي إفادة الآيتين معنىً واحداً علمنا أنَّ الجملة «ومنهم من قضى نحبه» تشمل جميع الأنبياء والمعصومين الماضين وأن الجملة «ومنهم من ينتظر» تشمل المعصومين الذين كانوا على قيد الحياة عند نزول الآية.

والآن علينا النظر في حال المؤمنين الواقعيين الحاضرين في وقعة الأحزاب الذين هم المصداق الأتم لقوله تعالى: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ بعد النبي(ص)؟ أن الآية الشريفة التي تلي هذا الكلام نزلت في التنويه بحضرة المصطفى(ص) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ رأينا في الفصل الثالث من القسم التاسع من الكتاب الذي اختص بتعريف «الشاكرين وشهداء الأعمال» في غزوة أحد وبعد التحقيق ظهر لنا أن النصوص الدينية الإسلامية من (القرآن والحديث) ميّزت الإمام علياً(ع) فلم

يكن أحدمن الأمة حائزاً لمقام العصمة سواه وكان في غزوة أحد حاضراً أيضاً، وبنفس الاستدلال هناك نقول هنا: لم تكن الآية أشد انطباقاً﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾على أحد بعد رسول الله من الإمام علي بن أبي طالب(ع) وكان حاضراً في غزوة الأحزاب أيضاً وبناءً على هذا يظهر لنا جلياً أن ذلك المؤمن الممتاز الذي كان مصداقاً بارزاً لقوله: «شاكرين وشهداء أعمال» وكان حاضراً في تلك الغزوة وكان محلاً للإشادة والتبجيل ينبغي أن يكون هو الفرد الممتاز نفسه الذي وقع مصداقاً لجملة﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾الذي أشيد به في غزوة الأحزاب أيضاً.

يقول الطبرسي في مجمع البيان عن الحسكاني: «روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن علي(ع) قال: فينا نزلت: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فأنا والله المنتظر وما بدلت تبديلاً».

فقد لاحظتم تصريح أمير المؤمنين(ع) أن جزء الآية﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ نزلت فيهم ثم يقسم فيقول إنه هو الذي اختصت به الجملة «ومنهم من ينتظر».

وخلاصة المطلب:

أن الآية الشريفة: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾تشمل جميع الأنبياء والأوصياء ولما كان علي بن أبي طالب(ع) حين نزول الآيات هو الرجل الثاني الحائز لملكة العصمة والمشارك في غزوة الأحزاب

فكان أبرز فرد تشمله الجملة الشريفة: «ومنهم من ينتظر» بعد النبي(ص) .

لكن ينبغي أن يُعلم أن ما تقدم من القول هو لإثبات المصداق الحقيقي والأتم للآية الشريفة وإلا فإن كل مؤمن حقيقي له نصيبه من الصدق وعند فراق الدنيا يحسب في زمرة «فمنهم من قضى نحبه» وإذا كان على قيد الحياة فمعدود من زمرة «ومنهم من ينتظر»، من ثم نجد في روايات الفريقين أن جملة من قضى نحبه تتناول حمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب(ص) وفي بعضها إدخال أنس بن النضير ومصعب بن عمير رضي الله عنهما فيها.

ومن المفيد الإشارة إلى أن الوارد في روايات أهل البيت(ع) أنّ كل مؤمن يموت على ولائهم ومحبتهم يعد من هذه الزمرة «فمنهم من قضى نحبه» ومن كان من أهل الولاء على قيد الحياة فهو داخل في زمرة «ومنهم من ينتظر».

[توجد الروايات المشار إليها في «الدر المنثور»(١) و «تفسير البرهان»(٢).

وفي الختام لا مناص من استحضار هذه النكتة:

روى السيوطي في «الدر المنثور»(٣) ما يقرب من ٩

---

(١) ج٥، ص١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) ج٣، ص٣٠١ ـ ٣٠٣.
(٣) ج٥، ص١٩١ ـ ١٩٢.

روايات، وفيمضامينها أحاديث تنص على أن «طلحة ممن قضى نحبه».

وقد كشفنا عن هويّة طلحة في الأقسام الماضية من الكتاب كشفاً جيّداً، وقد تكرر القول فيإثبات كونه من المنافقين المحترفين، وفي الأقسام التالية من الكتاب سوف يتمُّ الاستدلال بصورةأجلى على حيازته هذه الرتبة السافلة إلا أننا في هذا المورد نواصل البحث عن الروايات منناحيتيها اللفظية والنطقية فيقول:

«كل إنسان عاقل يوازن بين الجملتين «منهم من قضى نحبه» «ومنهم من ينتظر» يجد التقابلبينهما ظاهراً، فيدرك من خلال ذلك أن قوله تعالى: «من قضى نحبه» إشعار إلى من خرج من هذهِ الدنيا بموت أو قتل أو نحوهما، وكذلك يدرك من قوله تعالى: ﴿ومنهم من ينتظر﴾أنه أشار إلى منلا يزال على قيد الحياة، وحينئذ لو أنّ جهاز الوضع الرواني عمد إلى جملة «ومنهم من ينتظر»فجعلها في طلحة لهان الخطب ولكن طلحة بقي حيّاً بعد وفاة النبي(ص) حتى سنة ٣٦ هجرية، حيثأوقد نار حرب الجمل بمعيّة عائشة والزبير على علي بن أبي طالب(ع)، ورجل كهذا كيف يقال عنهأنّه كان ممن قضى نحبه في عهد النبي(ص)، وهذه الملاحظة مختصة بالروايات التسعة.

ونختم هذا البحث ببيان الآيات التي نزلت في الإشادة والتبجيل والتكريم للمؤمنين الواقعيينالذين حضروا وقعة الأحزاب، ونعمد إلى ترجمة الآيات الثلاث الباقية وبيانها (الآيات ٢٥ إلى ٢٧سورة

الأحزاب).

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾.

هذا وإن أظهرت الآية ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أن قتالاً لم يقع على عاتق المؤمنين ولكن من المسلم به أن عمر بن عبد ود وأصحابه لمّا عبروا الخندق واستعدوا لقتال المسلمين وتقدم عمرو بن عبد ود على أصحابه وطلب البراز ولم يجرؤ أحد على الخروج إليه إلا علي بن أبي طالب فقتله وقضى عليه وهرب باقي أصحابه وولوا الدبر.

وحدوث هذا القتال وجديته يلقي الضوء على معنى الجملة المذكورة فيكون معناها على النحو التالي: «وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب(ع)».

ومما يؤيد هذا المعنى اتصال الآية مورد البحث بالآية الشريفة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾.

روى جلال الدين السيوطي في الدر المنثور (١) الرواية التالية:

«أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن مسعود ـ رض ـ أنه كان يقرأ هذا الحرف: وكفى الله المؤمنين القتال بعلي بن أبي طالب».

ومن الواضح أن ابن مسعود أراد بيان مصداق الآية ولم يرد بيان سبب نزول الآية على المعنى المذكور.

---

(١) ج٥، ص١٩٢.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

في الآيتين السالفتين إشارة إلى «غزوة بني قريظة» التي حدثت بعد انحسار موجة الأحزاب وعودتهم منهزمين، وبما أنها لا تشكل حدثاً معتداً به في تاريخ «المنافقين في القرآن الكريم» لذلك نعرض عن بيانها هنا.

إنما غرضنا هنا من البحث والتحقيق هو غلق موضوع تاريخ المنافقين في الآيات ٩ إلى ٢٧ «سورة الأحزاب».

وعلى هذا نأخذ الآن نبذة مختصرة لاستعادة ما مر من ذلك إلى الذهن فنقول:

أولاً: بدأت في الآية التاسعة وهي الأولى من تسعة عشر آية تخص «غزوة الأحزاب» نعمة الله ونصره وإعانته للمسلمين تتقرر من قبله سبحانه في هذه الغزوة وصدرت الدعوة من الله بالشكر في قبال هذه النعمة.

ثانياً: في الآية العاشرة والحادية عشرة أخبر سبحانه عن هجوم الأحزاب وجموع العدو على المدينة من فوقها ومن أسفل منها، وما صاحب ذلك من الخوف والهلع الذين غمرا المسلمين بل أكثر المؤمنين على أثر ذلك الابتلاء فكان أكثر المؤمنين حين حوصرت المدينة من

قبل قوات العدو قدْ أيس من الحياة وساء ظنه بالله تعالى!

ثالثاً: في الآيات ١٢ إلى ٢١ شرعت في بيان عدم إيمان المنافقين المحترفين ثم عطفت علىذلك إعاقتهم الأعمال التي قوبل بها الجيش المغير لا سيما ما أبداه أفراد معروفون منهم من اللؤموالخسة وأخيراً رفعت الستار عن جماعة منهم شيوخ مطاعون بذلوا جهدهم في تثبيط جهودالمؤمنين وإعاقتهم وإعانة العدو.

رابعاً: الآيات ٢٢ إلى ٢٤ بدأت بتعريف المؤمنين الحقيقيين الحاضرين في غزوة الأحزاب،في مقابل أكثرية المؤمنين الذين نفضوا أيديهم من الحياة عندما شاهدوا جموع الأحزاب الجرارةوساء ظنهم بربهم سبحانه وأشارت الآية إلى أن المؤمنين الحقيقيين ثبتوا على إيمانهم ولم يلامسقلوبهم الخوف وإن رأوا تكاثر العدو عليهم واستفحال أمره بل على العكس من ذلك زادهم إيماناًوتسليماً، ثم أشارت الآيات إلى أفضل فرد في تلك الأقلية المؤمنة الذي كان حاضراً في غزوةالأحزاب وأخبرت عن صدقه ووفائه بالنسبة إلى الميثاق الكلي مع الله والعهد المطلق.

خامساً: وفي الآيات ٢٥ إلى ٢٧ عرضت بدءاً هزيمة الأحزاب وجموع العدو وهروبهم إلىديارهم وخسرانهم الجولة التي كانت مطمح أبصارهم ثم عطفت على ذلك حكاية يهود بني قريظةوأشارت إلى نكبتهم واستئصالهم وإلى الأبد !

القسم الحادي عشر

نساء النبي (ص)
والتكاليف عليهن

بحث في الآيات ٢٨ ـ ٣٥ من سورة الأحزاب

في هذا القسم الحادي عشر نعمد إلى بحث الآيات ٢٨ إلى ٣٥ «سورة الأحزاب» وهي مختصة ببيان الأحكام واجبة الإجراء المنوطة بنساء النبي(ص) لكي نتميز النساء اللواتي أهملن واجباتهن ولم يرعينها الرعاية اللازمة فكنّ في رعيل العصاة الذين نبذوا الأحكام وراءهم ظهرياً.

متن الآيات ٢٨ إلى ٣٥ "سورة الأحزاب":

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾.

تحقيق في التخيير الوارد في الآيتين ٢٨ و ٢٩ من سورة الأحزاب

وحكاية نساء النبي في تمردهن عليه

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً* وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.

يظهر من الآيتين أن خلافاً نشب بين النبي(ص) وبين نسائه حيث اعتزل النبي وحده فيجانب وأقام نساؤه في الجانب الآخر وبما أنَّ هذا الخلاف أدّى إلى نزول الوحي وأعان الله نبيهفأمره بتخييرهن بين البقاء في عصمته أو إطلاقهن، نعلم علماً يقيناً أن مدة الخلاف كانت قد طالتبحيث عاود النساء القرء ثم طهرن طهراً لم يُلامَسن فيه من النبي(ص) وصرن مهيآت للطلاق والفراق.

وبناءً على هذا فإنَّ الاختلاف المزبور ربّما امتد إلى شهر وكان رسول الله(ص) قد اعتزلنساءه هذه المدة كلها ولم يلامس وأحدة منهن قط.

من جهة أخرى يتضح من جزء الآية التالي: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾أن موضوع الخلاف بين رسول الله(ص) ونسائه هو من أجل المال ومتاع الدنيا وزينتها حيث أجمعة النساء

على طلبه من النبي ولكن النبي(ص) أبى عليهن ذلك، فأدّى ذلك إلى تماديالنساء في الطلب وإصرارهن على حصول مبتغاهنّ.

وليس من المعقول تصور أن ذلك كان من أجل النفقة الواجبة فإن النبي يجل عن التفريط بهذاالواجب الشرعي، أو النكول في أدائه، حتى هجن عليه وتحزبن ضدّه.

والآن مع الرواية التالية ولننظر الى «علي بن إبراهيم» ما الذي يقوله:

وأما قوله عَزَّ وَجَلَّ: يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا إلى قوله أجراً عظيماً فإنّه كان سبب نزولها أنّه لما رجع رسول الله(ص) من غزوة خيبر وأصاب كنز آل أبي الحقيق قالت أزواجه أعطنا ما أصبت فقال لهن رسول الله(ص) قسمته بين المسلمين على ما أمر اللهعَزَّ وَجَلَّ،فغضبن من ذلك وقلن لعلك ترى أنّك إنْ طلقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجوننا.

فأنف الله عَزَّ وَجَلَّ لرسوله فأمره أن يعتزلهن فاعتزلهن رسول الله(ص) في مشربة أم إبراهيمتسعة عشر يوماً حتى حضن وطهرن ثم أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذهِ الآية وهي آية التخيير فقال: يا أيُّها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن - إلى قوله - أجراً عظيماً.

فقامت أم سلمة وهي أوّل من قامت وقالت قد اخترت الله ورسوله فقمن كلّهن فعانقنه وقلن مثل ذلك[(١)].

ولابدَّ من أننا نلاحظ أن جميع ما مر في التحقيق صدقته الرواية:

أولاً: وجود النبي وحده في طرف وتجمع نسائه في الطرف الآخر.

ثانياً: امتد هذا الخلاف إلى ما يقرب من شهر ولم يكن النبي على صلة بأية واحدة من أزواجه وبالطبع أن هذه المدة كافية للطمث والنقاء الذي لم تتخلله مواقعة، وحينئذٍ يصح طلاقهن بعد توفّر هذا الشرط الأساسي في الطلاق.

ثالثاً: ظهر جلياً أن الخلاف لم يكن على النفقة الواجبة بل كان من أجل الحصول على الثروة التي حصلت بأيدي المجاهدين في إحدى الغزوات وبناءً على هذا تكون الروايات الواردة عن طرق أهل العامة وتحصر الخلاف في النفقة وأن شجارهن مع النبي(ص) كان من أجل ذلك لا أصل لها إطلاقاً وأنها روايات موضوعة فهي مردودة لا تقبل.

[تجد قسماً من هذه الروايات في «الدر المنثور» (ج٥ ص١٩٤) فارجع إلى هناك].

---

(١) راجع الكتب التالية ففيها زيادة تفصيل: نور الثقلين ج٧، ص٢٨٧ نفسه ج٤؛ تفسير الصافي، ج٤؛ تفسير الأصفى ج٢، تفسير الميزان، ج١٦، ص١٦٦؛ تفسير القمي، سورة الأحزاب.

والذي يؤاخذ به علي بن إبراهيم أن الآيات المبحوثة هنا لما كانت بعد الآيات المرتبطة بغزوةالأحزاب وبني قريظة فإنّها من أجل الأموال التي نقلها الله نبيّه من بني قريظة وأفاءها على رسولهكما يدلُ اتصال الآيتين ٢٨ و ٢٩ من سورة الأحزاب بحكاية بني قريظة وليس من أجل كنوز آلأبي الحقيق التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر.

وعلى أية حال سواءً كان خلاف نساء النبي وتحزبهن ضده من أجل كنز أبي الحقيق أو منأجل غنائم بني قريظة وغيرها فإنّ ذلك غير مهم بالنسبة لنا ولكن المهم الوقف على السبب الأصيلوالعلة الحقيقية لكي نعرف مدى ارتباط هذا الاختلاف والشجار بغنائم الغزوات التي غزاها النبي(ص)، فهل أن النبي وحاشاه من ذلك يترك حريمه بحاجة إلى الكساء والطعام والمأوى بحيث لايوجده لهنّ فيبدي التهاون واللامبالاة إزاء ما يحتاجه نواميسه حتى يضطرهن ذلك إلى الظهور عليهوالتمرد ليصبن بعضاً من كنوز آل الحقيق ليسددن به خلتهن المادية وهذا الاعتقاد مرفوض طبعاًفلننظر أصل القضية ما هو؟ ولماذا ثرن على النبي وجرى بينه وبينهن ذلك الشجار حتى أدّى إلىنزول آية التخيير من أجل الوقوف على الحقيقة دونما موار به لابدَّ لنا من مرور بماضي غنائمالحرب وتحقيق كيفية تقسيمها بين المجاهدين.

تحقيق الآيات التي لها صلة وثيقة بالغنائم

نقول على شكل مختصر في توضيح المطلب:

إذا نشبت الحرب بين المسلمين والعدو وتقابل الجيشان والتفت الساق بالساق واقتتل الطرفان فإن الغنائم التي يحوزها المسلمون من العدو تذهب بعد إخراج خمسها كما نصّت الآية ٤١ من سورة الأنفال إلى المسلمين لاقتسامها طبقاً للنسبة التي عيّنها رسول الله(ص) بين المقاتلين والحاضرين في ساحة الوغى والجهاد ويتم ذلك كله بمسمع ومشهد من رسول الله(ص) .

ولكن الغنائم الحاصلة من الصلح بحيث لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب بل يتم ذلك بالمهادنة والصلح مع العدو فإنّها تكتسب جميعها صفة الخمس ولا حق للمقاتلين فيها طبقاً لمفهوم الآية السابقة من سورة الحشر.

والآن لنرى ما هو حكم الله في هذه الأموال المعبر عنها بالخمس «وما أفاء الله على رسوله».

١ ـ في الآيتين السادسة والسابعة من سورة الحشر يقول الله تعالى عن الأموال التي يحوزها النبي من الكفار صلحاً: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٢ ـ وفي الآية الواحدة والأربعين من سورة الأنفال يقول عن الخمس أيضاً ويأمر بالحكم التالي:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

نلاحظ أن الوحي السماوي جعل موارد صرف «ما أفاء الله على رسوله» مع مواردصرفه في الخمس واحده ويأمر النبي أن ينفق سهماً منها في سبيل الله ويجعل السهم الثاني له والسهم الثالث لذوي القربى والسهام الثلاثة المتبقية ينفقها على الأيتام والمساكين وأبناء السبيل وهم الغرباءالذين قعد بهم الدهر وبناء على هذا فإنَّ أموال: ما أفاء الله على رسوله وكذلك جميع أموال الخمس تنفق في الطرق التي ذكرت توآ، أما سهم اللهفإنَّ النبي(ص) ينفقه فيما يرضي الله من سبيله مطلقاًوأما سهم رسول اللهفإنَّ إنفاقه معلوم وأما السهام الأخرى فإنَّها لم تكن في وضوح هذا السهم لذلك علينا بيانها في الخطوط التالية:

من الواضح أنَّ المقصود بذي القربى في الآيات السالفة هم آل الرسول(ص)لأنَّ كلمة الرسول سبقتها فيكون مرجع ذي القربى إلى هذه الكلمة.

وفي الحقيقة أن شأن ذي القربى في الآيات المذكورة كشأن قوله «ذا قربى» في الآيات التالية: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ومثل ذلك يقال في قولهتعالى: «أولي قربى» في الآية الشريفة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ففي جميع هذه الجمل يكون المقصود منهاَ: أرحام من نسبت إليه في هذهالعبارات.

وبناءً على هذا يكون المقصود من ذي القربى في الآيات المبحوث عنها هم قربى رسول الله(ص).

والآن نقول ما يلي لتعيين مصداق الكلمة حيث نشاهد أن الفقر لم يشترط في ذي القربىهؤلاء نظير سهم الله وسهم الرسول كما اشترط في اليتامى والمساكين وابن السبيل فنعلم يقيناً أن ذاالقربى هؤلاء قوم لا نخشى عليهم الانحراف من حصول المال بأيديهم كما يحصل ذلك للآخرين إذاوجدوا ثروة أو مالاً يحملانهم على ذلك، فإن خطر الاعوجاج ماثل فيهم حتماً عند وجود الغنىلديهم ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى* أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(١).

وبناءً على هذا فإنَّ ذا القربى هؤلاء فرد أو أفراد يساوون رسول الله(ص) في ملكة العصمةوإن خطر الانحراف غير وارد بحق حضرتهم، وأن طهرهم ذاتي في أنفسهم، وعلى هذا التقديريكون سهم ذوي القربى مختصاً بمن هم مصداق آية التطهير

---

(١) سورة العلق: الآية ٦ ـ ٧.

من آل رسول الله.

ولما كانت آية التطهير تشمل رسول الله وعلي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسنين لاغير، فإن سهم ذوي القربى مختص بهم في عهد رسول(ص)، ويعبر عنهم أحياناً في الصيغ الدينيةباسم «أهل البيت» وأحياناً باسم «أصحاب الكساء» وأحياناً باسم «أصحاب المباهلة» وهكذ.

وعلى أساس ذلك كانت الأموال التي تؤخذ باسم الخمس في زمن النبي أو باسم «ما أفاء اللهعلى رسوله من أهل القرى» نظير ما أُخذ من يهود بني النظير وخيبر وفدك ووادي القرى فقد أعطيخمس ذلك كله لأهل بيت العصمة والطهارة وملكوا إياه سواءً وضعوا أيديهم عليه وملكوه نظيرفدك أو أنه بقي تحت رعاية النبي(ص) وعلى كل حال فإن الجميع يدركون أن سهم ذوي القربى هوملك لأهل البيت لورود الآيات في ذلك، وأن المالك الحقيقي له هم أهل بيت العصمة والطهارة، كما يدلُّ على ذلك آثار الفريقين، وإليكم هذه الرواية الدالة على ذلك، فقد روت أم هاني وقالت:

«إنَّ فاطمة أتت أبا بكر تسأله سهم ذوي القربى فقال لها أبو بكر: سمعت رسول الله(ص)يقول: سهم ذوي القربى لهم في حياتي وليس لهم بعد موتي...» (١)، حيث اعتراف أبي بكربسهم ذوي القربى حين طالبته الزهراء به بأنه كان لهم في حياة رسول الله(ص)، ولكنه من أجلحرمانهم من حقهم الثابت المقطوع به عمد

(١) كنز العمال، ج٥، ص٣٦٧.

إلى جملة مكذوبة على رسول الله وهو الذي كذبهاوأعني بها «وليس لهم بعد موتي» فألحقها بالكلام ليتم له ما أراد ويصل هو وحزبه إلى هدفهمالأصيل.

وفي مثل هذا الوضع لما رأى أزواج النبي(ص)أنَّ النبي أعطى صهره وابنته مالاً ومتاعاًدنيوياً أكثر من غيرهما ورفع الله درجتيهما بين المسلمين يوماً بعد يوم، وفضلهما على المسلمينقاطبة تحركت روح الحسد فيهم واتجهن نحو «سهم ذوي القربى المختص بأهل البيتعلىالنبي بإصرار شديد أن يعطيهن كنز آل أبي الحقيق أو غيره من الأموال مما يشبهه ويختصهن به،ويجري تقسيمه بينهن.

ولكن يظهر أنه لا حقّ لهن على النبي بغير النفقة الواجبة من الطعام واللباس والمأوى و...«وكان النبي ينفق عليهن بدون تأخير ولا تقصير وحاشاه ويزيدهن سعة كلما اتسع الظرف لذلك، كماأسهم لكل واحدة منهن من الأموال التي جاءته من خيبر(١) وبهذايظهر جلياً أن رسول الله لم يول رغباتهن اهتماماً ولا اعتبر حسدهن امراً هاماً فلم يجبهن لأية رغبةداعبت أنفسهنّ من الحصول على الحلي والحلل أكثر من استحقاقهن باعتبارهن زوجات للنبي.

مما حدا ببعضهن أن يتجاوزن حدود الأدب واللياقة ويتكلمن بكلام خشن لا أدب فيه كماجاء ذلك في الروايات وقد حفظت الكلام الصعب والقاسي والموقف غير اللائق لزينب بنت جحشوحفصة

(١) مغازي الواقدي، ج٢: ٦٩٣.

بنت عمر وعائشة بنت أبي بكر[١].

هذا ما كان من طلب النساء غير المعقول وجرأتهن على مقام النبوّة، وحدوث الاضطراب فيبيت النبوة مما أوجب نصرة الله نبيه وردّه أزواجه على أعقابهن بخاصة أولئك اللواتي أهنّ النبي(ص)، من ثم أمر الله نبيّه أن يعتزلهنّ جميعاً ويجتنبهن كلهن، وامتد الوضع قرابة الشهر حتى طهرنمن حيضهن وصرن مهيّآت للطلاق، وحينئذ نزلت آية التخيير على رسول الله فخيرهن بين البقاء فيعصمته أو الطلاق:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً* وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.

فلما نزلت الآيتان أسرعت إحدى نساء النبي(ص) فاختارت الله ورسوله، لأنها محبة لأهلبيت العصمة والطهارد وغير مبغضة لهم من ثم اتفقت روايات الشيعة على أن المرأة هي أم سلمة(ع) ولكن بُذل جهد في الروايات السنية أن تكون تلك المرأة هي عائشة إلا أنه من الواضح أنحقدها على أهل البيت لا يأذن لها بمثل هذه المبادرة الطيبة.

وإلى هنا بيّنا ما يختص بالآيتين النازلتين في نساء النبي على الوجه الذي تجلت لنا فيهالصحة.

---

(١) راجع: تفسير البرهان، ج٣، ص٣٠٧؛ مجمع البيان، ج٤، ص٣٥٣؛ الدر المنثور، ج٥، ص١٩٥.

تحقيق ما يجب على نساء النبي من التكاليف واجبة الرعاية من الآيات ٢٨ إلى ٣٥ سورة الأحزاب

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا* وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

من هاتين الآيتين ندرك أن إمكان وقوع الذنب من نساء النبي متصور ووارد لذلك ضاعف اللهالعذاب عليه للحيلولة بينهن وبينه وفي مقابل ذلك ضاعف لهن الجزاء بالحسنى إذا تواضعن لله ورسولهوعملن عملاً صالحاً، وبعد هذا هلم نعرف من منهن اختارت طريق الفحشاء والمنكر ومن منهنتواضعت الله ورسوله(ص):

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِمَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

يتجلى لنا من هذه الآية أمور:

أولاً: أن بعض نساء النبي يتكلمن مع الأجانب بكلام ليّن كالذي تنحو به المرأة لإبداء أنوثتهامما يحمل السامع على الانفعال بما تبديه من كلام رقيق ناعم، يبدو ذلك منهن أكثر مع الأقرباءالذين ليسوا بحل عليهن، فأعلنت الآية النكير على من فعلت ذلك منهن وحذّت من هذاالتصرف.

ثانياً: يتجلى لنا من جملة: فيطمع الذي في قلبه مرض أن هذا الشخص الذي تكلمه النساء منفئة الذين في قلوبهم مرض أي من فريق المنافقين المحترفين وسوف نطلع على المرأة المعنيّة بهذاالخطاب من هي كما نعرف الشخص من يكون من فئة المنافقين المحترفين.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا* وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

ولكي ندرك المفهوم الواقعي للجملة الشريفة «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولى» يستحسن الاستعانة بفهم نساء النبي أنفسهن لهذا المفهوم وفهم سائر الصحابة لمعاصرتهمنزول الآية الشريفة.

روى السيوطي في تفسير الجملة المذكورة الرواية التالية:

«أخرج ابن أبي شيبة وابن سعد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر عن مسروققال: كانت عائشة ـ رض ـ إذا قرأت: وقرن في بيوتكن بكت حتى تبل خمارها» (١).

نلاحظأنّ عائشةترى مشاركتها في أمر الحكومة والسياسة وقيادة الجيش وإدارة أمورالمسلمين يضاد ذلك صريح الجملة﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾وهذاالمعنى لا يختص دركه

(١) الدر المنثور، ج٥، ص١٩٦، واقرأ الروايات السابقة واللاحقة.

بعائشة بل يشاركها في ذلك أم سلمة، وعثمان، وابن عباس، وزيد بنصوحان وأبو الأسود الدئلي وعمار بن ياسر وجميع أولئك الذين وصلتنا آثارهم مروية على لسانالرواة وحوتها بطون المجاميع، وهنا نكتة أخرى ينبغي أن لا تفوت الباحث وهي أن إسقاط الآية«التطهير» من سياق الآيات الخاصة بنساء النبي(ص) لا يفقد السياق معناه المترابط من ثم يكونالاحتمال القائل أن لا ارتباط بين نساء النبي والآية المذكورة احتمالاً مقبولاً ووقوعها في سياقآيات نساء النبي ليس فيه دلالة على اختصاصها بهن أو اشتمال معناها عليهن أبداً.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَوَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِوَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

وما يمكن تصيّده من الآيات الثمانية عبارة عن أن الله تعالى حذر نساء النبي من عدة أمورتنافي نسبتهن للنبي بهذا الرباط المقدس فنهاهن عن ارتكابها نهياً باتاً وفي مقابل ذلك طلب إليهنمراعاة شؤون أخرى هي أليق بهن وأدعى لاحترامهن.

أولاً: لا ينبغي لنساء النبي أن تشتغل قلوبهن بالذهب والزينات ولا يجعلن الحطام الدنيويهدفهن الأسمى.

﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾والأليق بهنأن تكون قلوبهن مرتبطة بذكر الله وطاعة رسوله

ومشغولة بالحياة الأخرى﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.

ثانياً: لا ينبغي لنساء النبي ارتكاب الفواحش والمنكرات فمن فعلت ذلك منهن كان العذاب عليها مضاعفاً﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾كما أن من تواضعت منهن لله ورسوله وعملت عملاً صالحاً يضاعف لها الأجر في الآخرة﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾وفي مقام معرفة الفاحشة ماهي؟ فإنَّ القرآن المجيد جعل زنا المحصَنة واللواط والزواج من زوجة الأب وغير ذلك من أقسامها فتبين من ذلك أنَّ الفاحشة المبيّنة هي كل عمل قبيح.

حيث يكون قبحه وشناعته عقلية ومسلم بذلك عامة الناس وربما كانت الذنوب الكبيرة هي الفواحش المقصودة، وبناءً على هذا يدخل تحت مفهوم الفاحشة المبيّنة بالقطع واليقين إيذاء رسول الله(ص) «والافتراء عليه» و «الكذب على الله ورسوله» «وإيذاء كل واحد من الخمسة أهل العباء»وأمثالها فقد حرم ذلك على نساء النبي خاصة، وضوعف العذاب لمن ارتكبت شيئاً من ذلك منهن ناهيك بمن أرادت قتل النبي منهن.

ثالثاً: لا يحق لنساء النبي الخضوع بالقول مع الأجانب حتى الأقارب غير المحارم منهم ولايكلمن أحداً بالكلام الليّن الذي يطمع من في قلبه مرض:﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾بل من اللازم تقدير كلامهن مع الأجانب على النحو المقبول عند

ذوي الإيمان والعفة﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾.

رابعاً: على نساء النبي القرار في بيوتهن وعدم الاشتراك بالشؤون المختصة بالحكم أو بإدارةالدولة أو السياسة ولا يتدخلن في تعبئة الجيوش والمسير معهم ولا يشتركن في إعلام الحرب ولاالسلم وأمثال ذلك﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾وفي مقابل هذاالاستعراض يلزمهن السكون في بيوتهن لإقامة الصلاة وأداء الزكاة وإطاعة الله ورسوله وليتذكرنما يتلى في بيوتهن من آيات القرآن والحكمة﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ . . .وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾.

خامساً: وأخيراً طبقاً لآخر آية في مجموعة الآيات الثمان أن تكون نساء النبي نموذجاًبارزاً للنساء سليمات النفس، صاحبات الإيمان، المتواضعات الصادقات، الصابرات، الطيبات المتصدقات، الصائمات العفيفات.

وبناءً على هذا فإنَّ كل واحدة من نساء النبي(ص) مرتبطة ارتباطاً كاملاً بميزان الكمالات المذكورة واجتناب نقاط الضعف التي حذرهن الله منها، وحين نزن بهذا المعيار واحدة واحدة مننساء النبي(ص) نجد المصداق الكامل للنقاط المثبتة من هذا المعيار خديجة بنت خويلد والمصداق البارز للنقاط السلبية منه عائشة بنت أبي بكر.

والآن إلى خديجة وهي المصداق الكامل للنقاط الموجبة من هذا المعيار:

يكفي الإنسان أن يضع نصب عينيه فترة الزواج منها التي سبقت هجرة النبي إلى المدينة وهيامرأة ثرية ومن ذوات البيوت، وصاحبة الاقتدار المادي وتعتبر من علية القوم وقد وضعت كل ماتملك من مادة ضخمة تحت تصرف النبي(ص) كما أنّها نصرته بما حازته من شرف البيت والأسرةوقامت على رعايته والذب عنه في ذلك المجتمع المتحلل، وكانت تطيع أوامره كلها لأنّها تحبّهوأفهمته على أن كل ما يعود إليها من مال ومن شرف هو له وملك بيده، كما أنها أول امرأةآمنت به بعد البعثة والمسألة اتفاقيّة بين جميع المسلمين وشاطرته بمآسي مكة وأعانته على تحملهابصبر وجلد وقضى النبي(ص) فترة الشباب والكهولة معها لم يحاول الاقتران بغيرها في حياتها،وبعد وفاتها لم ينسها ولم تقع من ذاكرته مع أنه أصبح ذا زوجات كثيرات.

وعلى أية حال كانت سيدتنا خديجة(ع) المثل الأعلى للصفات الطيبة والمعنوياتالمختارة، التي تليق بعقيلة النبوة، وهذا الأمر مورد اتفاق المسلمين جميعاً، ولكن الاختلاف وقع فيعائشة بنت أبي بكر حيث اعتبرها فريق من أهل السنة والجماعة هي المثل الأعلى في القضية ولكنأتباع أهل البيت تصوروها بعكس هذا الرأي تماماً، واعتقدوا بحقيقتها خلاف ذلك.

والآن نخصص الفصل القادم لتمييز الحق من الباطل في هذا الاختلاف.

معرفة عائشة بنت أبي بكر

إزاء التكاليف المنوطة بنساء النبي مارة الذكر

إنَّ أقرب طريق يعرفنا بعائشة وفي نفس الوقت أصحه أيضاً ويكشف لنا صفاتها ونفسيّاتهابمنأى عن التعصب الجاهل والتحيّز العامي، ويثبت لنا بنحو اليقين عن وجودها في أي طرف منطرفي القضيّة فهل هي في الجانب الموجب منها أو أنها حقاً في الجانب المضاد له، هو الأحاديثالمأثورة عنها والمثبتة في المجامع السنية والمسانيد العامية والبحث فيها موصل إلى نتيجة صحيحةحتماً لا ريب فيها نشاهد النقايض للآيات ٢٨ إلى ٣٥ من سورة الأحزاب وهي الآيات التي نحنبصدد بحثها وتحقيقها، ماثلة في الأحاديث الألفين المروية عن عائشة وأكثرها منقولة عنها نفسها.

أولاً: أولى النقائص المذكورة في الآيات والتي تعني تعلق القلب بالذهب والحلي والحُطامالدنيوي، وجعل ذلك سبباً لنيل العيش المنخفض والحياة الهنيّة مأثورة في الأحاديث المروية عنعائشة والتي كانت تطلبها لنفسها تظهر عائشة في تلكم الأحاديث أنها امرأة ذات علاقة دائمةبارتداء الملابس الفاخرة، والثياب الغالية ذات الألوان الزاهية وتود أن تملك قطع الحلي والذهبوالجواهر وأن تحوز الثروات وتنال الأشياء الثمينة جداً في هذه الأحاديث يظهر ولع عائشة بهذهِ النقائص من عبادة الحلي وتعشق بلهنية العيش والمال ومتاع الدنيا إلى الحد الذي حمل الخلفاءعلى رعاية حالها

واختصاصها بالمال الوفير والذهب الكثير قياساً إلى سائر نساء النبي(ص)،وجرى الخلفاء على هذا المنوال واحداً إثر الآخر.

ولكن عثمان في النصف الثاني من خلافته لما ساواها ببقية النساء شرعت في ثلبه وذمهوأعلنت الخلاف عليه، ونهضت ضدّه.

وهذه النقيصة وإن كانت علنية في عائشة منظورة للجميع إلّا أن من أفاد منها فائدة تامة بتدفق الذهب عليها وإرْجاء الصّلاة تلو الصّلاة وبعث الهدايا القيمة وعقود الجواهر وإعطائها المالالكثير، واتخذوا منها صاحباً لحكمهم ومعيناً لهم على ظلمهم هما عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبيسفيان.

ثانياً: النقيصة الثانية في عائشة والتي رآها الجميع هي ممارستها والمنكرات(١) (بناءعلى ما ذكر الفاحشة المبيّنة من المعنى) وهي وإنْ شملت جميع المعاصي الكبيرة وقد مارستهاعائشة إبان صيرورتها أم المؤمنين علناً إلّا أنّ من أراد الإلمام بنوع هذه المعاصي الكبيرة التي مارستها عائشة في حياة النبي(ص) علناً وعلى رؤوس الأشهاد فلابدَّ من التماسها في أحداثهاالتوتر في حياة النبي العائلية وإيذاء النبي وأمثال ذلك كانت عائشة في هذه الفترة امرأة عنودةحقودة معجبة بنفسها تحدث التوترات دائماً في بيت النبي(ص) وكانت في شجار دائم مع سائرالنساء واستطاعت عائشة أن

---

(١) أرجو أنْ لا يتبادر للذهن إلى ما يعرف من المنكرات بين الناس من المعاني الخبيثة المذمومة والتي ينفر الأدب منها فعائشة مبرئة من ذلك ولا تأتيها أبداً؛ لأنَّ الله حجب عنها ذلك كرامة لنبيه.

تضم إلى صفها زوجة أخرى من أزواج النبي بشيطنتها وإرعابهاوصيرت منهما هي وصاحبتها الجديدة جبهة متحدة فأحدثت بذلك شرخاً في حياة النبي الزوجيّةوكان واحدة من أركان حزبها هي حفصة بنت عمر بن الخطاب.

ثالثاً: إن تحقيق النقيصة التالية الخاضعة للبحث التي أشارت إليها الجملة القرآنية: **﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾** يحتاج إلى مقدمة قصيرة نوردها فيما يلي من القول:

من المعقول والمتيقن أن نوع النساء اللواتي يذهبن إلى استعمال القبح والإغواء في منطقهن ينبغي ان تتوفر فيهن الشروط التالية:

١ ـ كونهن في عهد الصبا والشباب ولم يتجاوزن هذه المرحلة من العمر.

٢ ـ كونهن ميّالات لسماع الغناء ومشاهدة الرقص وألعاب اللهو وسريعات الاستجابة لهذاالنحو من السلوك.

٣ ـ كونهن من النساء المولعات بالذهب والحلي وأسباب التجمل.

٤ ـ كونهن لا يستحين من إظهار الحديث عن الجنس أمام الآخرين ولا يسيطر عليهن الخوف من ذلك كما فارقهن الحياء والخجل.

٥ ـ كونهن نساء فصيحات يعرفن كيف تستعمل الألفاظ المغرية ومن أين تبدأ الإشارات حول الموضوع ومتى تدرج الكنايات في

عبارات نطقهن حتى يستحوذن على ألباب السامعينويملكن أفئدة المتحدثين.

وبعد هذا التوضيح المجمل نقول:

عندما يرجع الإنسان إلى الأحاديث المختصة بعائشة (المثبتة في الصحاحوسائر الجوامعالحديثية العامّية) يدرك جيّداً أنَّ كل واحدة من هذه الصفات الخمسة ظاهرة في عائشة ظهوراً بيّنابحيث يجد الإنسان الحيي حرجاً في ذلك تصفحاً وإثباتاً.

ولقد أعددنا ثبتاً بهذه النقائص والخصوصيّات المذكورة لعائشة في رسالة مستقلة وسقناطرفاً من كل حديث له صلة بالنقائص المذكورة مصحوباً بالإشارة إلى الكتاب العامي جزءاً وصفحةولكننا انصرفنا عن إدراجها في هذا الكتاب نظراً للعلة التي ذكرناها، ومن كان من أهل التحقيقيستطيع تطلب ذلك من خلال هذه المجاميع الحديثية ليلم بهذه الخصوصيّات واحدة واحدة.

ولما كانت الخصوصيات هذه يتجمع أكثرها في شخص عائشة فيكون اعتبار الخطاب فيالآية: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾موجهاً إليها اعتباراً معقولاً وحدساً مُوجهامقبولاً، أولاً وبالذات ثم ينتقل إلى سائر النساء، كما يظهر ذلك من الأحاديث المختصة بها ويعلمنها أنَّ الشخص الذي في قلبه مرض وهو مقصود كلام الوحي الذي كلم عائشة بشيطنة وخبث هوطلحة بن عبيدالله(المنافق المحترف وقريب عائشة) فالخطاب موجه إليه أولاً ثم يتعداه إلى سائرالناس.

رابعاً: فيما يخص النقيصة الرابعة المذكورة في الآيات المبحوث فيها وهي مشاركتها فيشؤون الدولة وتجييشها الجيوش وإحداث الجلاد والجدال وأمثال ذلك، فينبغي أن يقال إن عائشةهي المرأة الوحيدة التي تميّزت من بين النساء بفعل ذلك وقضت حياتها كلها متورطة بهذه الشؤونالمنهي عنها.

إلا أن هنا نكتة لا مناص من تذكرها:

عندما يصل المحقق والباحث إلى غور الأحاديث المذكورة ويعرف أن عائشة امرأة عنودةمحبة لذاتها وحقودة أيضاً وأنّ النقائص الثلاث المذكورة تمثلت في شخصها إلى حدّ الإفراط يعلمعلماً يقيناً أنّ كل ما سجّله التاريخ لها من مداخلات سياسية في أمر الدولة وإيجاد التحزب والتفرقفي المجتمع المسلم مصحوباً بالحرب والاقتتال والخلاف إنّما كان يعبر عن خلق ذاتي في المرأة، ولميكن على أساس ابتغاء الخير أو الإصلاح أو السلام للجماعات الإسلامية.

والذي يدقق في تاريخها السياسي ويلاحظ الإثارات التي صدرت عنها وتحزباتها وكلامهاودعاياتها يدرك تماماً تأييدها للمذهب الذي مرّ تواً ولن يجد في حياة عائشة السياسية سوى الفتنة والحقد والفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل شيئاً آخر.

إنّ عائشة انضمت من يومها الأوّل وفي حياة النبي(ص) إلى فئة المنافقين المحترفين وعلىرأسهم أبو بكر وعمر واستمرت على ذلك عمرها كله البالغ بضعاً وستين سنة وكانت تعمل على إفادةتلك الفتنة

والإضرار بأهل بيت العصمة والطهارة.

أجل، كلام الوحي عبّر بشكل قاطع عن الرذائل الذاتية المستكنة في عائشة بنت أبي بكروكانت ماثلة أمامه ولذلك منع نساء النبي من المداخلة في الحياة السياسيّة للمسلمين، فلم نعثر علىامرأة منهن فعلت ذلك إلّا عائشة بنت أبي بكر تزعمت هذه الحركة المخالفة لأوامر الله والرادةلوحيه.

خامساً:إنَّ الذي تلوناه على أسماع القراء من الأحاديث المختصة بعائشة إنما هو متصلمستقيماً بالنقائص المذكورة في الآيات (٢٨ إلى ٣٥ سورة الأحزاب) وإلّا فإنَّ الإنسان لو تطلبنقائص عائشة في غير هذا المورد فسيعثر على الكثير الكثير من ذلك وسنعرض لنماذج منها علىشكل فهرسة.

أ ـ سعت عائشة في ما نقل عنها من أحاديث أن تتحدث عن نفسها وآلها وأعضاء حزب أبيها- أي المنافقين المنحرفين ـ بإكبار وإعجاب.

ب ـ سعت عائشة وبذلت جهدها في أنْ تكون حبيبة لرسول الله وحدها دون غيرها ومن أجل إثباتذلك نسبت لرسول الله(ص) وهو الذي تخطى دور الشباب والكهولة وقد بلغ أشق سني عمرهوأكثرها تعباً ونصباً أموراً لا تناسب مقام نبوته من عبادة الشهوة بحيث يمجها ذوق كل إنسانشريف ويأسى لما سطرته عن النبي أسىً شديداً.

ج ـ أظهرت عائشة أن إدراك النبي(ص) العرفي والعقلي والأخلاقي بمظهر منحط لكي تهيّأالمجال لأية مخالفة للسنة النبوية تظهر من الحزب الحاكم، ولكي تحمل الأمة ذلك منهم علىالاجتهاد

مقابل اجتهاد رسول الله(ص) في المجتمع المسلم.

د ـ لا تتخفى عائشة بحقدها على أهل البيت واحداً واحداً أمام الناس، وتعلن ذلك على الملأالعام.

هـ ـ هذا ما ظهر لنا من أمر عائشة بنتأبي بكر وأدركناه من حقيقتها وقد تصيّدناه من الأحاديث التي أمكننا الحصول عليها وتجلى لنابوضوح أنَّ عائشة حقاً هي المصداق البارز من بين أزواج النبي(ص) للنقاط السلبيّة للقضية التينحن بصدد بيانها وكشفنا عن جانب من وجهها.

وإلى هنا انتهى بنا البحث حول الآيات ٢٨ إلى ٣٥ من سورة الأحزاب ولما كانت آية«التطهير» قد حشرت في هذه المجموعة من الآيات رأينا لزاماً علينا البحث عن مفادها في الفصلالقادم لكي يتم لنا كشف مصداقها الحقيقي من بين المصاديق المتعددة.

تحقيق مفاد آية "التطهير" وأخذ النتيجة من ذلك

كما سبق وأشرنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب القسم الحادي عشر أننا متى رفعنا آيةالتطهير الداخلة في عدد آيات «يا نساء النبي» (الايات ٣٠ إلى ٣٥ سورة الأحزاب) وهي ملحقةبالآية ٣٣ منها من وسط السياق ليس فقط لا يتأثر الارتباط المفهومي المتحصل من معنى العباراتقبلاً وبعداً مع بعضه البعض بل يزداد ارتباط العبارات السابقة باللاحقة أكثر وأكثر وتفيد أحكامالمعنى في رفعه أكثر من بقائه مما يدل على أن آية التطهير أجنبيّة عن سياق آيات النساء ونحن هنانضع السياق بعباراته وحمله مصحوباً بذكر الآية وأحياناً بعدم ذكرها لكي يتميّز القارىء ما ذكرناهعلى الحقيقة:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً* وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ* وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾.

هذه صورة طائفة الآيات مع رفع آية التطهير منها وقد ذكرنا الآيات السابقة واللاحقة، والآن نقدم هذهِ الآيات مع الآية المذكورة:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً* وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً* وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾.

ولابدَّ من الملاحظة أن رفع الآية يعين على ارتباط مفهوم السياق ما قبلها بما بعدها،وبناءً على هذا فإنَّ احتمال كون آية التطهير لا ربط لها بنساء النبي احتمال معقول وارد. وكون الآيةوردت في أثناء السياق لا يدل على الارتباط.

والآن نبحث الآية بحثاً مستقلاً مجرداً عن صلتها بما قبلها وما بعدها من السياق لكي نعرفـانطباق مفادها الأصلي على المصاديق وهل ينطبق مفادها على نساء النبي أو أن ذلك ممتنعقطعاً (١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٢).

هذا وإنْ فسر بعض اللغويين الرجس «بالشيء القذر» مطلقاً أعم من كونه ظاهرياً أو باطنياًإلا أنَّ المرء متى رجع إلى موارد استعمال الرجس في القرآن المجيد سوف يجد أنَّ معنى «الرجس»في لغة الوحي لا يطلق إلا على القذارة الباطنية ومن المعلوم أنَّ لغة القرآن متقدمة على كتب اللغةبالزمان وبالرتبة.

---

(١) لو ذهبنا مذهب الانطباق أي انطباق الآية على نساء النبي للزم من ذلك التضاد في كلام الله؛ لأنّه يقول: إنّما يريد الله ... الآية وإرادته ماضية حتماً و ﴿إِنَّمَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكيف يريد تطهيرهن ثم يحذرهن من إتيان الفاحشة، فأين ذهبت إرادته ومعها لا ينبغي أنْ يأتين الفاحشة فلا موجب لتحذيرهن وبدونها يأتينها فلذلك صحَّ تحذيرهن ولم يكن لغواً وعبثاً فهل يا ترى أنَّ الله سبحانه ناقض نفسه؟ أجل إذا أشرك نساء النبي بالآية يلزم هذا المحذور منه أمّا إذا قلنا إنَّ الآية لا تعنيهن أبداً وإنّما هي خطاب مع غيرهن ولذلك لم يجر تحذير هذا الغير ولا لومه مطلقاً لأنَّ إرادة الله قضت بتطهيره صح ما ذهبنا إليه ولا اعتراض عليه أبداً، المحقق.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

والآن نضع استعمال القرآن لهذه الكلمة أمام الأنظار لكي تتجلى حقيقة ما قلناه:

١ -﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وهنا عرّف ضلال غير المؤمنين بالرجس.

٢ -﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(٢).

أخبر هنا سبحانه عن كفر الفئة الذين في قلوبهم مرض وسمّاه رجساً زائداً على رجسهم الذاتي الذي هو مرض قلوبهم نفسه.

٣ -﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

وهنا سمّى المنافقين العاديين نظراً لنفاقهم رجساً.

٤ -﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٢) سورة التوبة.

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٥.

المُنتَظِرِينَ﴾ (١).

عدّ الله هنا كفر قوم عاد وعنادهم وعبادتهم للأصنام رجساً وغضباً إلهياً.

٥ - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

وهنا جعل الباري سبحانه عدم إيمانهم إنما كان بسبب الرجس الذي وقع عليهم.

٦ - ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣).

وهنا جعل التقرب إلى الأوثان والتضحية لهن رجساً.

٧ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤).

ونشاهد هنا أن الله سمّى القمار والأصنام والأزلام رجساً ومن المعلوم أن النجاسة الظاهرية غير مقصودة في هذا التعبير، لأنّ هذه الأشياء لا نجاسة لها تعدل نجاسة الرجيع والميتة والدم المسفوح ...

(١) سورة الأعراف: الآية ٧١.
(٢) سورة يونس.
(٣) سورة الحج: الآية ٣٠.
(٤) سورة المائدة: الآية ٩٠.

وغير ذلك ولو كان ذلك كذلك لتنفر الإنسان من شربها كما يتنفر من أكل الرجيع والميتة وأمثالهما.

أجل إن نجاستها نجاسة معنوية ولذا أرجعت الآية وجوب اجتنابها إلى الجملة الشريفة﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ومن المعلوم لدى الجميع أن عمل الشيطان مَردّه إلى القذارَة الباطنَيةوهذه الأشياء كذلك ألاترى أن الخمر تحدث في العقل حالة الركود وتسلب شاربها الإدراك فيفقدبذلك قواه العاملة.

٨ -﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

ولعله ما يراه بعضهم أن كلمة الرجس في القرآن معناها «الشيء القذر» مطلقاً ناظر إلى هذهِ الآية وتطلق أيضاً على النجاسة الظاهرية.

لذلك حمل إطلاق كلمة «الرجس» على لحم الخنزير على النجاسة الظاهرية ولكن التدقيقفي نفس الآية أعلاه ترد هذا الاحتمال لأننا نرى لفظ الرجس أطلق على لحم الخنزير وحده ولوكان المقصود به الظاهر لحمل على الأعيان التي سبقته من قبيل الميتة والدم المسفوح وكذلك لحمالخنزير فقيل: «إلّا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنها رجس» لكي يصدق الضميرالمؤنث «فإنها» عليها

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

بأجمعها ويدلُّ على نجاستها كلها من ثم عرفنا أن المراد بالتعبير إفادة القذارةالباطنية للحم الخنزير، لأنَّ آكله تظهر عليه صفات الخنزير وآثاره الخاصة وإلّا فإنه من الواضح أنلحم الخنزير ليس فيه قذارة ظاهرة وليس في الطعام المصنوع منه بغض النظر عن أوامر الشرع يحمل على النفور منه.

وهذا ما كان من استعمال الرجس في آيات القرآن الكريم جميعاً ولعلّنا نلاحظ أن لفظالرجس لم يطلق في أية آية على القذارة الظاهرية وبناءً على هذا فإن الأمر يظهر جليّاً:

أولاً: أن الغرض من كلمة الرجس المذكور في الآية الشريفة﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ هو ذلك القذر الباطني الذي يبعث المرء على ارتكابالمَعاصيَ ويحثه على ذلك، وإلّا فلا معنى لأن يعمد الله تعالى إلى دفع القذارات الظاهرية والتلوثوالأوساخ العالقة في أهل النبي ويجعل ذلك منحصراً فيهم ويترك باقي الخلايق يتلبسون بها، أليسالبشر العارفون المنزهون في العالم ينفرون بطباعهم عن القذارات والأوساخ الظاهرية.

إذنْ لما كان المقصود من كلمة الرجس المذكور في آية التطهير هو الرجس الباطني الذي هومصدر لجميع المعاصي والموبقات فإن من الواضح أيضاً أن تكون الطهارة في الجانب المقابل التيأرادها الله بالإرادة الحصرية لأهل البيت هي الطهارة الباطنية أيضاً التي هي مصدر لجميع الأعمالالصالحة.

ثانياً: بما أننا نشاهد كلمة الرجس المذكورة في آية التطهير محلاة بالألف واللام الجنسية،وإرادة الله انحصرت بدفع جميع القذارات الباطنية والأوساخ المعنوية والتلوث الشيطاني عن أهلالبيت، فلا يبقى في وجودهم مقدار حبّة خردل من ذلك، فإن ذلك يستتبع بالطبع أن الطهارةالموجودة في الجهة المقابلة للرجس والتي أراد الله انحصارها في أهل البيت هي الطهارة المعنويةبجميع مراتبها وأهل البيت هؤلاء هم المزيّنون بالعصمة الإلهية.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

أجل: إن كلمة أهل البيت المذكورة في الآية سواء أقيمت هنا لمجرد الاختصاص أو للمدحوالنداء تدل على انحصار الإرادة في إزالة جميع أنواع القذارات وجميع دركاتها ونيل أنواعالطهارات ومراتبها جميعاً لأهل بيت رسول الله(ص)، كما أن تأكيد ذلك بالمفعول المطلق «تطهيراً»دليل على تثبيت هذه الطهارة بالإرادة الانحصارية لأهل بيت النبي.

ثالثاً: لما كان التعبير بالجملة الحصرية إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيتويطهركم تطهيراً كان وقوع متعلقها حتمياً، كما أن القالب الحصري «إنما يريد» في القرآن كله منأوله إلى آخره لا يستعمل إلا في الإرادة الخارجيّة، حتمية الوقوع ويمكن بيان مواضع استعمالهابالتقرير التالي:

﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (١).

﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ (٢).

﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ (٣).

﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ (٤).

وبناءً على هذا لما كان متعلق الجملة الحصرية حتميّ الوقوع وأنبأنا الوحي أن رسول الله قبلنزول آية التطهير مؤيد بالعصمة الإلهية وجب أن يكون من أهل بيته شخص أو أشخاص آخرونيتحلون بمثل هذه العصمة والطهارة التي يتحلى بها رسول الله(ص) حيث نزلت فيهم آية التطهيروأخبرت عن جريان ذلك فيهم.

من جهة أخرىفإنَّ زوجات الإنسان مهما أطلق عليهن في عرف اللغة لفظ «أهل البيت»ولكن ضرورة الدين قاضية بأنه ليس واحدة من نساء النبي لا سيما أولئك اللواتي كن في حبالتهعند نزول الآية تتحلى بملكة العصمة بل الأمر بعكس ذلك نشاهد الآيات ٢٨ إلى ٣٥ من سورةالأحزابومثلها آيات سورة التحريم [وهي السورة

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٨٥.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٩.

(٤) سورة المائدة: الآية ٩١.

السابعة عشرةبعد سورة الأحزاب وقد بحثناها في القسم الثالث عشر من هذا الكتاب] فيها دلالات واضحة علىمقارفتهن الذنوب فلابدَّ من كون أهل البيت الذين عنتهم الآية أناساً غيرهن فرد أو أفراد من أهلبيت النبي(ص).

نعم كيف تكون الآية شاملة لنساء النبي مع أن أشهرهن وهي عائشة تعرفنا عليها في هذاالكتاب وعلمنا أنها لم تكن فاقدة لكل فضيلة وكمال فحسب بل هي أكثر نساء النبي حوباً وذنباً.

رابعاً: لما ذهبنا نلتمس معنىً لأهل البيت في القرآن وفي آية التطهير وجدنا الفريقين رددوا روايات كثيرة حول آية التطهير عن رسول الله(ص) وأثبتت في مجاميع الحديثية للعامة والخاصةوقد أجمعت هذه الروايات كلها على أن أهل البيت هم فاطمة الزهراء والحسنان وعلي بن أبيطالب(ع) وجميع الروايات الخاصة بآية التطهير والمروية عن الفريقين لم نجد رواية واحدةذكرت نزولها ضمن آيات «يا نساء النبي» وأيضاً لم نعثر على رواية واحدة ذكرت أن آية التطهيرنزلت ضمن «وقرن في بيوتكن» وهي ملحقة بها.

وكذلك لم يؤثر عن النبي في هذه الروايات كلها أنه قال: إن الآية تشمل نساء النبي أيضاً.

ومثل ذلك يقال في آل العباس وآل عقيل وآل جعفر أو غيرهم من أقرباء النبي من كون الآية شاملة لهم في هذه الروايات المضبوطة.

بل الأمر بعكس ذلك فإن جميع الروايات تنص على أن نزول

الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ في هؤلاء الخمسة الطيبين على الاستقلال.

وملخص تلك الروايات (التي أوردت المطلب على نحو سهل وميسور كسائر الروايات التي لها صلة ببيان المعارف على وجه بسيط وأولي) على النحو التالي:

رأى رسول الله(ص) أن رحمة الله أوشكت على النزول فاستدعى أهل بيته علي وفاطمة والحسن والحسين ولما حضروا عنده بسط عليهم برداً ثم رفع يديه وقال: اللّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فنزلت عليه آية التطهير وهو يدعو واستجاب الله دعاءه فيهم.

إنَّ حكاية اجتماع تلك الذوات المقدسة حول رسول الله(ص) وتعيينهم من سائر أهل بيته ببسط البرد على رؤوسهم واختصاصهم بالدعاء وحدهم تكرر مرات في بيت أم سلمة وأماكن أخرى بمرأىً ومشهد من نسائه وأقربائه وغيرهم من المسلمين.

ولكي يفهم رسول الله(ص) جماعة المسلمين أنَّ الآية نزلت في هؤلاء الأربعة فحسب وليست شاملة لغيرهم من أقربائه وساكني بيته كان إذا اجتاز على باب أمير المؤمنين(ع) وهو ذاهب إلى مسجده وقف على الباب ورفع صوته بمسمع ومرأىً من المسلمين وخاطب أولئك الذوات المقدسة بتلاوة الآية:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً».

ولقد كان اختصاص آية التطهير بهؤلاء الخمسة الطيبين بلغ حداً أن علي بن أبي طالب والحسن بن علي وأم سلمة وابن عباس(ع) وسعد بن أبي وقاص ووائلة بن الأسفع استدلوا بها فيمواضع مختلفة على مقام أهل الكساء الشامخ واحتجوا بها على منكري فضلهم.

وهذا مختصر من الروايات التي سوف نشير إلى فهرسة تامة للمصادر التي أخرجتها في آخر هذا الفصل.

وفي النتيجة نقول:

لما كانت العصمة والطهارة الثابتة لأهل البيت في آية التطهير ليس لها مشابة في جميع الأنبياءوالمرسلين وسائر أصحاب الصراط المستقيم في القرآن كُلّهُ إلّا لرسول الله(ص) دلَّ على انحصارها فيهم الجملة «إنّما يريد الله» والألف واللام الجنسيةالداخلة على كلمة«الرجس» والاختصاص المستفاد من كلمة «أهل البيت»والتأكيد المستفاد من المفعول المطلق«تطهيراً» المذكور في جملة «ويطهركم تطهيراً» يعلم من هذا كُلّهُ مدى ارتباط أهل البيت«بالكتاب المكنون» الذي هو الباطن والمحيط على «الكتاب المبين والإمام المبين» طبقاً للآيةالشريفة: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

---

(١) سورة الواقعة.

فيكون أهل البيت أجل وأعلى من جميع الأنبياء والمرسلين الذين سبقوا بالوجود.

وكذلك يتضح لنا بصورة جليّة أن الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء(ع) صارت سيدة نساءالعالمين لحيازتها مقام العصمة والطهارة الخاصة بأهل البيت والمقررة من قبل الوحي بحيث زادت رتبتها حتى على رتبة مريم أم عيسى.

لأننا عندما نبحث الآيات الشريفة النازلة في مريم والمعربة عن فضائلها وكمالاتها نجد من الوضوح بمكان أن أعلى رتبة حازتها مريم(ع)هي رتبة العصمة والطهارة ولما كانت هذه المرتبةالمنصوصة «بآية التطهير» أعلى درجات العصمة والطهارة الممكنة من ثم يتجلى لنا أن مقام عصمة الصديقة وطهارتها تفوق مقام مريم البتول بمراتب، وأكسير فضيلة للزهراء(ع) قياساً إلى نساءالعالم كافة هو حيازة التطهير المختص بأهل البيت(ع).

نعم، مهما كان مقام مريم في الاصطفاء عظيماً﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾(١) فهي مصطفاة من بين النساء جميعاً ولكن لما عدّي الاصطفاء بالحرف «على» دلّ على أن الاصطفاء والتقدم هذا خاصان لمريم من بين نساء العالم هو حملها بالمسيح عيسى بن مريم بواسطة «الملك» الذي تمثّل لها بشراً سويّاً ومن المعلوم أن هذهِ الخصيصة لم تكن لأيّة امرأة في العالم.

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٢.

كما أن تكرار الاصطفاء مرة بغير تعدي وأخرى تكراره متعدياً بعلى دال على ما ذهبنا إليه،ويحكي لنا عن أن الاصطفاء الثاني مختص بمريم من بين نساء العالم وهو يختلف عن مقام عصمتها وطهارتها، ولا يمكن تطبيقه إلا على كيفية حملها بالمسيح من دون أن يمسسها بشر وعلى أية حالسواءً كانت دقة النظر هذه مقبولة أو يعجز الإنسان عن دركها، فإنَّ أصل المطلق هو هذا الذي تم بحثه في آية التطهير وثبت من خلال هذا البحث أن آية التطهير مع النكات الملحوظة في فحواها دليلعلى عصمة علي أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء والحسنين(ع) وطهارتهم وصار مصطلح أهلالبيت بلغة الوحي المذكورين في آية التطهير خاصاً بالمعصومين من أهل بيت النبي(ص) وبناءً علىهذا يظهر جلياً للباحث أن وقوع «آية التطهير» في عداد آيات «يا نساء النبي» ووضعها في ختامالآية ٣٣ من سورة الأحزاب لم يكن تلقائياً بل كان متعمداً لأغراض خاصة بالحزب الحاكم.

فهرس المصادر العامية للروايات المختصة بآية التطهير

١ - «مسند أحمد» ج ١ ص ٣٣١ ج ٣ ص ٢٨٥ ج ٤ ص ١٠٧ ج ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٨ و ٣٠٤ .

٢ - «صحيح مسلم» كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أهل بيت النبي ج٤ ص ١٨٨٣ .

٣ - «سنن الترمذي» أبواب المناقب باب مناقب أهل بيت النبي حديث ٢ (ج ٥ ص ٣٢٨ ح٣٨٧٥) باب ما جاء في فضائل فاطمة حديث ٥ (ج ٥ ص ٣٦٠ ح ٣٩٣٦) .

٤ - «أنساب الأشراف» في ترجمة علي بن أبي طالب حديث ٣٨ (ج ٢ ص ١٠٤) حديث١٥٧ (ج ٢ ص ١٥٣) .

٥ - «جامع البيان في تفسير القرآن» ج ٢٢ ص ٥ و ٦ و ٧ .

٦ - مشكل الآثار ج ١ ص ٣٣٢ إلى ٣٣٨ .

٧ - المستدرك على الصحيحين ج ٢ ص ٤١٦ ج ٣ ص ١٤٧ و ١٥٨ و ...

٨ - «السنن الكبرى» باب بيان أهل بيته والذين هم آله ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥٢ .

٩ - «تاريخ بغداد» ج ٩ ص ١٢٦ .

١٠ - الاستيعاب ج ٢ ص ٥٩٨ ج ٣ ص ٣٧ .

١١ ـ «أسد الغابة» في ترجمة الحسنين ج ٢ ص ١٢ و ٢٠ في ترجمة أبي الحمراء ج ٥ ص١٧٤ في ترجمة فاطمة بنت محمد ج ٥ ص ٥٢١ .

١٢ ـ «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى» ص ٢١ إلى ٢٤ .

١٣ ـ «الرياض النضرة» ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٦٩ .

١٤ ـ «تفسير القرآن العظيم» ج ٣ ص ٤٨٣ إلى ٤٨٦ .

١٥ ـ «مجمع الزوائد» باب فضائل أهل البيت ج ٩ ص ١١٩ و ١٢١ و ١٦٧ و ١٦٩ و ١٧٢ .

١٦ ـ «تهذيب التهذيب» في ترجمة الحسين بن علي ج ٢ ص ٢٩٧

١٧ ـ «الدر المنثور» ذيل تفسير آية التطهير ج ٥ ص ١٩٨ و ١٩٩

القسم الثاني عشر

بحث في الايات من ٥٣-٦٢

من سورة الاحزاب

بحث في الآيات ٥٣ ـ ٦٢ من سورة الأحزاب

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾.

تحقيق تفاوت اللهجة في آيات "سورة الأحزاب" عن سائر الآيات في القرآن الكريم

قبل الشروع في تحقيق الآيات ٥٣ إلى ٦٢ من سورة الأحزاب يلزمنا النظر في تفاوت لهجةالخطاب في آيات سورة الأحزاب قياساً إلى سائر لهجات الخطاب في سورة القرآن الكريم كينوجد الأرضية للبحث والمداولة في الآيات التي تخيّرناها للتحقيق.

تبدأ سورة الأحزاب بالآيات التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً* وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً* وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

لم تبدأ آيات القرآن في أية سورة منه بهذا الخطاب الشديد وفيه تهديد للنبي، ويأمره باتباعالوحي الذي ينزل عليه وبالتوكل على الله وأن لا يخشى أحداً من الناس، أو يطيع الكافرينوالمنافقين في الوحي الذي يوحى إليه.

ومن المعلوم أن الوحي له صلة بنقض موضوع حاصل في المجتمع تضرب جذوره في الحياةالسابقة على الإسلام وهو من ضمن التقاليد الجنسية والاجتماعية للعرب ومخالفته لا تتم بيسروسهولة على النبي(ص).

والآيتان التاليتان نزلتا لبيان هذا الموضوع القومي والتقليد الذي نزل الوحي لنقضه، بالصورةالتالية:

﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

نلاحظ أن هذين الأمرين المتصلين بالسنن القومية والرسوم الاجتماعية ويريد النبياطراحهما بأمر الله وبحكم الوحي هما: «موضوع الظهار» والآخر موضوع «التبني» فهما منالتقاليد المرعية عند العرب ولهما جذور ضاربة في عمق حياتهم الاجتماعية.

ولكن لما كان في الآيتين السابقتين التوجه إلى التبني أكثر وتأكيد الوحي عليه أشد وأعظمعلم من ذلك أن التهديد الذي ابتدأت به السورة مرتبط به والنبي يخشى العرب من نقضه وإبطالهلأنهم درجوا عليه حياتهم كلها حيث إنه له متبنىً أولاً وهو زيد بن حارثة، وهو ثانياً مأمور لإبطالهذا النوع من التقاليد بنكاح مطلقة زيد بعد خروجها من العدة.

وهذا الأمر صعب على النبي إجراؤه لوقوعه تحت طائلة لوم الكافرين والمنافقين وذمهم،فكان متخوفاً من تطبيقه ومفاجأة الناس به حتى نزل الوحي بذلك وصارت زينب بنت جحش زوجزيد بن حارثة طبقاً للآية ٣٧ من نفس السورة زوجاً لرسول الله(ص) :

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ

وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾.

يظهر من هذه الآية جلياً أن رسول الله(ص) كان يحذر حذراً شديداً من إجراء هذا العمل وهوالزواج من زينب بنت جحش زوج متبنّاه إلى حد لا يتصوّر ، وأكثر من يحذر من الناس هم القومأصحاب الطباع اللئيمة إذ ليس من المستحيل أن يسيؤا إلى النبي بأقوالهم فيتأثر بها من لا يدركواقع الحال ويصاب إيمانه بالله بالضرر والفتور.

ولكن النبي أطاع الوحي النازل عليه، فناهض هذه القيمة الاجتماعية الجاهلية المردودةوتزوج زوج متبنّاه، إلا أن ألسنة السوء انطلقت منذ ذلك الحين وشرعوا بإيذائه، ووجهوا إليه بذاءةوطعناً فيه، كما كان رسول الله(ص) يتوقع، وطالت قالة السوء وامتدت.

لذلك نرى في الآية ٤٨ من السورة نفسها تعود لهجة الخطاب التي بدأت في الآيات الثلاثالأولى بالتهديد إليه كرّة أخرى، مستعيداً الإساءة للنبي وإيذائه من قبل الكفار والمنافقين في إلغاءالتقليد المعهود من عدم الزواج بمطلقة المتبنّى فيقول مسلّياً النبي عما لاقاه منهم:

﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾.

وبعد ذلك استمر الحديث عن الإيذاء والإساءة للنبي في بقيّة الآيات وهي الثلث الأخير منسورة الأحزاب حيث تتبع المخالفون

النبي في هذا الزواج وبالغوا في إيصال الإيذاء إليه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ وقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ وقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ وقال: ...

لن تجدوا في أية سورة من القرآن كثر الحديث عن إيذاء النبي والإساءة إليه فيها كهذه السورة، ولقد أدخلوا من الإيذاء والألم على رسول الله(ص) في هذا الزواج وتوابعه، وأساءوا إليه إساءات عظيمة بحيث نزل الوحي بشجبهم بخطاب شديد اللحن فقال سبحانه:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾.

بعد اتضاح الموضوع المذكور نعمد في الفصول القادمة إلى ترجمة الآيات وتحقيقها (٥٣ إلى ٦٢) من سورة الأحزاب لكي تتجلى لنا في تحقيقها النكات الملفتة للنظر من تاريخ المنافقين.

قصة نزول الحجاب وإضفاء الستور على نساء النبي(ص)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥) ﴾.

من الآيات الثلاث أعلاه التي نزلت بعد الآيات المتصلة بإلغاء التبني وزواج النبي بزينب بنتجحش، يظهر لنا: أن النبي أولم بعد زواجه بزينب بنت جحش ودعا المؤمنين لهذه الوليمة، فجاءعدد منهم قبل حلول موعد الطعام وبعد الفراغ رابطوا في المكان ولم ينتشروا كما جرت العادةبذلك، وشرعوا في تناول الحديث، وأطالوا ولم يفطنوا لما عليه الحال.

وقد جرت العادة بخروجهم من المكان وإخلائه بعد تناول الطعام ولكنّ تلك الجماعة شغلتالمكان بسماجة وراحوا يتحدثون بأنواع الأحاديث وشاقهم ذلك، فنزل الأمر بالحجاب على أثرذلك وأبعد عن المكان من هم أجانب وليسوا بمحارم وأجيز لكل واحد من محارم

السيّدات أن يجالسهن ومنع سائر الناس من البقاء مع نساء النبي(ص) .

فصعب نزول الحجاب على أصحاب السماجة أو الذين كانوا يدخلون بيوت النبي بحرية وبأسباب مختلفة فعمد المخالفون إلى مضايقة النبي(ص) وقالوا: ما الذي ينفعه حجابهن وسيموت ونتزوجهن.

فآلم النبي هذا القول الساقط بحيث نزل القرآن بتأنيب صاحبه ونزل أيضاً الحكم بحرمة الزواج منهن أبداً.

وهلم ننظر بعد التحقيق في الآيات التالية كيفيّة الإيذاء والإساءة من المخالفين المذكورين ومن على شاكلتهم بعد التحريم الأبدي من الزواج بنساء النبي(ص).

يظهر مما تقدم قوله أنه:

أولاً: أن الإطعام المذكور كان وليمة أولمها النبي بمناسبة زواجه من زينب بنت جحش وبما أنَّ الزواج من زينب حكم نزل من السماء لذلك عمد النبي إلى الوليمة وإلى استدعاء المؤمنين احتفالاً بزواجه لتناول الطعام.

ثانياً: نزل الحجاب يوم زفافه(ص) على زينب وأنّه كان بسبب جلوس القوم في حجرة زينب وإطالتهم المكث فيها.

ثالثاً: يستفاد من هذا الوضع أنَّ الذين كانوا يؤذون النبي بعد نزول حكم الحجاب هم أولئك الذين كانوا يرتادون بيوت النبي قبل نزول آيات الحجاب بعناوين مختلفة، لنرى هل يمكننا بعد ذلك التعرف على بعض هذه الوجوه.

والآن نعمد إلى تحقيق المستندات التاريخيّة للأقسام الثلاثة الماضية:

١ ـ روى السيوطي في «الدر المنثور» ذيل الآية ٢٧ من سورة الأحزاب (ج ٥ ص ٢٠١)الرواية التالية:

«أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن المنذر والحاكم وابن مردويهوالبيهقي في سننه عن أنس ـ رض ـ قال: جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله(ص) فجعلرسول الله يقول: اتق الله وامسك عليك زوجك فنزلت: وتخفي في نفسك ما الله مبديه قال أنس ـ رض ـ فلو كان رسول الله كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية «فتزوجها رسول الله(ص) فما أولم على امرأةمن نسائه ما أولم عليها ذبح شاة فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها فكانت تفخر على أزواج النبي(ص) تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات».

٢ ـ وأيضاً في الكتاب نفسه ذيل الآية ٥٣ سورة الأحزاب[١] جاء الرواية علىالنحو التالي:

«أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبيحاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أنس ـ رض ـ قال: لما تزوج رسول الله(ص)زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام

(١) الدر المنثور، ج٥، ص٢١٣.

فلم يقوموا، فلمارأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ليدخل فإذا القوم جلوس.

«ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي(ص) أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبتأدخل فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي. الآية».

٣ ـ وفي نفس الكتاب أيضاً(١) يروي هذه الرواية: أخرج ابن سعد وابن جريروابن مردويه ـ رض ـ قال: ما بقي أعلم بالحجاب مني، ولقد سألني أبيٌّ بن كعب فقلت: نزل فيزينب».

٤ ـ وفي نفس الكتاب أيضاً(٢) يروي الرواية التالية: أخرج ابن سعد عن أنس ـ رض ـ قال: «نزل الحجاب متبني رسول الله(ص) بزينب بنت جحش وذلك سنة خمس من الهجرةوحجب نسائه من يومئذٍ وأنا ابن خمس عشرة».

وروى محمد بن إسماعيل البخاري في «كتاب النكاح» باب الوليمة حق(٣) الرواية الآتية:

«حدثنا يحيى بن بكير قال حدثني الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني أنس بنمالك ـ رض ـ أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله(ص) من المدينة فكان أمهاتي يواظبن علىخدمة النبي(ص) فخدمته عشر سنين وتوفي النبي(ص) وأنا ابن عشرين

---

(١) نفس المصدر.

(٢) ج٥، ص٢١٤.

(٣) ج٣، ص١٨١ ـ ١٨٢.

سنة.

فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل وكان أول ما أنزل في متبنيرسول الله(ص) بزينب بنت جحش «أصبح النبي بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعامثم خرجوا وبقي رهط منهم عند النبي(ص) فأطالوا المكث فقام النبي فخرج وخرجت معه لكييخرجوا فمشى النبي(ص) ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة ثم ظن أنهم خرجوا، فرجعورجعت معه فإذا هم جلوس لم يقوموا فرجع النبي ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشةوظن أنهم خرجوا، فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي بيني وبينه بالستر وأنزلالحجاب».

الروايات السالفة وإن كانت الحكاية فيها مروية بشكل يتنافى بعض ما ورد فيها مع ساحةالنبي القدسية طبقاً لما عليه أدبنا اليوم فإننا نجد ذلك لا ينسجم مع قدسيّة النبوّة ولكن الملاحظ أن ماجاء في القسم الأول والقسم الثاني من البحث يفيد ما أفادته الآيات الثلاث وندرك التشابه الحاصلبين الآيات والروايات أن أنس بن مالك بواب النبي وخادمه وملازم بيته يصر في هذه الروايات أنَّ «آية الحجاب» نزلت في السنة الخامسة للهجرة إبّان زفاف زينب بنت جحش على النبي، وعلةنزولها ما أظهره فريق من المدعوين من السماجة في المكث والحديث في حجرة زينب وإقامتهمداخلها.

يقول أنس: تأذى النبي بشدة حين شاهد قلّة أدبهم في حجرة عرسه الجديدة وعمد إلىتذكيرهم بما هم عليه من سوء السلوك إلى القيام

والخروج من حجرتها وخرجت معه ولكنهم لميلتفتوا وظلوا حيث هم في الحجرة ماكثين، وأخذ النبي بالسير في صحن الدار حتى بلغ باب حجرةعائشة ثم عاد وإذا هم ما يزالون منشغلين بالحديث لم يغادروا الحجرة فعاد ثانية وابتعد من حجرةزينب لم يغادروا الحجرة فعاد ثانية وابتعد من حجرة زينب وأنا معه حتى قام أولئك وألقى الستاربيني وبينه ونزلت عليه آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾الآية، قال أنس: ما بقيأعلم بالحجاب مني كنت مهجر النَبيُ(ص) إلى المدينة ابن العاشرة فخدمت النبي عشر سنين ولزمتهفأنا أعلم الناس بما يدور داخل بيوته، وسألني أبيٌ بن كعب عن كيفية نزول الحجاب على نساء النبيفأجبته نزل الحجاب متبناه بنت جحش وكان الحجاب عاماً شمل نساء النبي جمعاء فإذا كان نزولالحجاب على هذه الصورة فإنَّ جميع الروايات التي تخالف تحقيقنا وتربط حكاية الحجاب بعائشةأو غيرها وتسند ذلك إلى موافقات عمر بن الخطاب، كاذبة ولا أصل لها وموضوعة دلَّ عليها سياقالروايات وما صرّح به شاهد العيان وهو أنس بن مالك.

ونحن نسوق الرواية التالية نموذجاً على ما بيّناه:

روى السيوطي في «الدر المنثور» نيل آية ٥٣ سورة الأحزاب[(١)] الروايةالتالية:

«أخرج النسائي وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن عائشة ـ رض ـ قالت: كنت آكل مع النبي(ص) طعاماً

(١) ج٥، ص٢١٣.

في قعب فمرّ عمر فدعاه فأكل فأصابت اصبعه اصبعي فقال عمر: أوّه ! لو أطاع فيكنّ ما رأتكن عين فنزلت آية الحجاب.

والملاحظ هنا أن عائشة تبرز عمر للسامع أكثر انضباطاً من رسول الله(ص) وأن النبي لا يبالي في جلوس الأجنبي مع زوجته الشابة على مائدة واحدة نعم من الواضح أن الباحث بعداطلاعه على البحث القرآني السالف ويقينه بوضع هذه الروايات البادي خطلها وعوارها [وهي الروايات التي تجعل لعمر بن الخطاب مداخلة في آيات الحجاب](١) فإن الذي يتسع له مجال قبول المرء المسلم أن عمر بن الخطاب قبل نزول آية الحجاب كان يرتاد منزل النبي بدون مانع ويدخل إلى بيوت النبي مع الداخلين بحرية تامة ويجالس النساء ويحدثهن ويحدثنه وكان دائماً لا يبارح بيوت النبي.

وهذه الحقيقة تعين على تحقيق بقيّة الآيات وتزيدها وضوحاً، ثم إن ما قلناه كافٍ في تثبيت القسم الأول والثاني من البحث والآن وفي الفصل القادم نعمد إلى تحقيق المستندات التي تكشف لناحقيقة القسم الثالث وهو التعرف على الوجوه التي كانت تؤذي النبيّ بعد نزول آية الحجاب.

---

(١) ج٥، ص٢١٣.

التعرف على وجهين بارزين من المنافقين المحترفين فيحديث ضرب الستر على نساء النبي

روى السيوطي في «الدر المنثور» نيل آية ٥٣ سورة الأحزاب في تفسيرالجزء الشريف من الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ روايات عدة يفيد مجملها المطلب الذي نسوقه بعنوان نموذج لما نحن فيه:

«أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيدالله قال: أيحجبنا محمد عنبنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت هذهالآية».

هذا وإنْ نصّت الرواية على وجود رجل واحد هو طلحة بن عبيدالله إلا أن لسان الآية التيجرى تحقيقها يدلُّ على أن المؤذين أكثر من واحد، وعلى هذا يمكن اعتبار ما رواه ابن طاووسفي طرائفه عن السدّي الذي جعل عثمان بن عفان ممن ساند طلحة وأعانه على سوء أدبه وكانرفيقه في الحكاية المذكورة محلاً للاعتماد والثقة.

وحديث ابن طاووس كالآتي:

«ومن طرائف ما شهدوا به على عثمان وطلحة ما ذكره السدّي في تفسيره للقرآن في تفسيرسورة الأحزاب في تفسير قوله تعالى: **((وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه منبعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً))**

قال السدي:

«لما توفي أبو سلمة وخنيس بن حذافه وتزوج رسول الله(ص) امرأتيهما أم سلمة وحفصةقال طلحة وعثمان: أينكح محمد نساءنا إذا متنا ولا ننكح نساءه؟! والله لو قد مات لقد أجلنا علىنسائه بالسهام، وكان طلحة يريد عائشة وكان عثمان يريد أم سلمة.

فأنزل الله: ((**ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً**))، وأنزل: ((**إنَّ تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً**)). وأنزل((**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فيالدنيا وأعدّ لهم عذاباً مهيناً**»(١).

والأمر الذي يؤكد قول السدي أكثر فأكثر من قول ابن طاووس ويجعل عثمان بن عفانشريكاً لطلحة في القول المزبور هو ما نقله الطبرسي في مجمع البيان(٢) عن أبي حمزة الثماليالمعاصر «للسدي» يقول الطبرسي عن أبي حمزة:

«إنَّ رجلين قالا: أينكح محمد نساءنا ولا ننكح نساءه؟! والله لئن مات لنكحنا نساءه وكاناأحدهما يريد عائشة والآخر يريد أم سلمة».

ويظهر مما تقدم أن الذين كانوا يؤذون رسول الله بعد نزول آية الحجاب في نسائه هم طلحةبن عبيدالله وعثمان بن عفان ولكن من المعلوم أن القضيّة لا تختم بهذين الرجلين وكما ذكرنا أنَّ لحن القول

---

(١) تجد هذهِ الروايات في «الدر المنثور» (ج٥، ص٢١٢ و ٢١٤).
(٢) تفسير البرهان، ج٣، ص٣٣٣.

في الآيات يبدي لنا الأمر أوسع من ذلك ولنر بعد هذا الشطر من البحث على أي شخص منهم نتعرف ومن من القوم تولى كبر ذلك معهما.

والآن نعمد إلى ترجمة بقيّة الآيات وتحقيقها[1] والتي تدلُّ على اتساع رقعة الإيذاء المذكور:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

وظيفة إجراء الصلاة على النبي كما أخبرتنا بذلك السنة القطعية على النحو التالي: اللَّهُمَّ صل على محمد وآل محمد وسلم.

نكر جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور»[2] ذيل تفسير الآية المذكورة ما يقرب من عشرين رواية ساقها بطرق مختلفة عن مثل كعب بن عجرة وعبدالله بن مسعود وابن عباس وأبو مسعود الأنصاري وبريدة وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وزيد بن أبي خارجه وطلحة وغيرهم وفيها أن رسول الله هو الذي علم أصحابه كيفيّة الصلاة عليه.

والآن ننقل من هذه الروايات رواية واحدة لتكون شاهداً على ما قلناه:

«أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد

---

(١) ج٤ ص٣٦٦.

(٢) ج٥، ص٢١٥.

والبخاري ومسلم وأبو داودوالترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه عن كعب بن عجره قال: قال رجل يا رسول اللهأمّا السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كماصليت على إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آلإبراهيم إنك حميد مجيد».

ومفاد الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾في سياقها الخاص بها: إنَّ المسلمين عليهم أن يبذلوا أقصى الجهد في تعظيم النبيوتكريمه وكما يصلي الله وملائكته على النبي ينبغي عليهم أن يفعلوا نفس الفعل لا أنهم يؤذون النبيبأقوالهم الباطلة وأفعالهم السيئة.

نعم نزلت الآية بين الآيات التي تؤنب المؤذين لرسول الله(ص) وتقرعهم لتظهر خبث باطنهم ودناءته وتبين هبوط مستواهما الأخلاقي والمعنوي.

اتساع رقعة الإيذاء بعد نزول آية الحجاب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً* وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

يظهر من فحوى الآية الأولى أن المؤذين مضافاً إلى إيذائهم رسول الله فقد ذكرت إيذائهم الله تعالى مما يدلُّ دلالة واضحة على أنهم تقدّموا شوطاً أطول في صناعتهم هذه فقد تعدّى إيذائهم لرسول الله إلى الساحة القدسية الربّانية.

وبعبارة أخرى: إنَّ الآيات التي سبق بيانها لم تعبّر إلا عن إيذائهم لرسول الله(ص) ولكن في هذه الآية (٥٧) الآن نراهم اتسع نطاق جرأتهم فاجتاز النبي إلى الله تعالى شأنه فلابد والحال هذه من اعتبار القوم بعد التحريم الأبدي لنساء النبي أنهم لم يكتفوا بإيذاء النبي حتى وصلوا به إلى الكفر بالله العظيم، وإظهار العداء له.

ولإيضاح الموضوع نعمد إلى وضع الآيات السابقة بين يدي القارىء على شكل فهرسة ليتعرف على المصداق الحقيقي للإيذاء في كل آية من الآيات المعروضة وليعرض كيف تعدّى إيذائهم بالتسلسل إلى الكفر بالله.

بدءاً يقول سبحانه في الآية ٤٨: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾.

ومن الواضح أن إيذائهم هنا يرتبط بزينب بنت جحش حيث اعتبرت عندهم زوجة متبنّاموأنه تزوجها على خلاف ما جرت به العادة بعد أن طلقها زيد بن حارثه.

ثم بعد ذلك قال في نصف الآية الأول ٥٣ :

﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾وهنا نلاحظ أن أذىالقوم هنا بلغ وليمة العرس التي أقامها النبي لهم، فلما تفرق المؤمنون كل إلى غايته قعد المؤذون فيحجرة زينب يتحدّثون مستأنسين حتى آذوا النبي(ص) .

ثم يقول في النصف الثاني من الآية:

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾وهنا بعد نزول آيةالحجاب وفصل النساء ظاهراً عنهم، غيّر المؤذون سلوكهم فوسّعوا نطاق إيذائهم النبي(ص) فأخذوايرددون أقوالاً أسخطت النبي(ص) منها قولهم: ما ينفعه حجابهن وسيموت ونتزوجهن .

وبعد هذا الكلام الجريء منهم وسوء الأدب المعهود عنهم أنزل الله الوحي على نبيه بتحريمنسائه على أمته حرمة مؤبّدة وبذلك أخفق المؤذون بأخيلتهم الشيطانية إخفاقاً ظاهراً.

ومن الطبيعي بعد هذه المقدمات أن المؤذين بألسنتهم رسول الله(ص) لم يثنهم قولالله ولا اكتفوا بإيذاء اللسان بل امتدت أيديهم بأعمال باطلة تحكي عن تأصل الحقد والعقد فيأنفسهم على حكم الله

ورسوله، من ثم نجد فحوى الخطاب في الآيات الكريمة يتبدل إلى لحن آخرفي توبيخهم وردعهم فيشتدّ معهم ويسمهم بقوله باسم «الذين يؤذون الله ورسوله» ويلعنهم في الدنياوالآخرة ويعدهم بالعذاب المذل في نار جهنم﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَاوَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

ثم نرى في الآية التالية يكون الحديث عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ـ نساء أهل الإيمان ـ كأزواج النبي مثلاً بما كانوا يؤذونهن به فيقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

وعلى هذه الروية ينبغي على الباحث أن يدرك أنه بعد نزول آيات الحجاب فزع المؤذون إلىأعمال خطيرة مما غيّر لحن الآيات إلى هذه الحدة والشدة وتعلن الحرب عليهم وهذا تهديد يحكيعن شدّة ما قبله وقسوة ما بعده:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾.

ولكي نلم بما أقدم عليه هؤلاء من نوع الإقدامات الخطيرة يلزمنا أن نأخذ بعين الاعتبار ماتركته آيات الحجاب على سائر نساء المؤمنين من أثر هذا من جانب.

ومن جانب آخر علينا دراسة ما عليه الوضع في بيوت المدينة

وميزان احتياج النساءلخروجهن وراء بيوتهم يومياً بدقة وإمعان.

من المقطوع به أن حكم الحجاب لنساء النبي وقطع روابطهن مع غير المحارم من أقاربهنسرى إلى بيوت المؤمنين شيئاً فشيئاً فعمد النساء المتقيات والعفائف إلى تقييد حديثهن وسائراتصالاتهن التي لم تكن محدودة بقيد جرياً على سنن اجتماعهن يومئذٍ مع غير المحرم من الأجانبوالأقرباء.

وكما شعر قوم ممن كانوا يراودون بيوت النبي(ص) ويكلمون نساءه بأسباب مختلفةلحجابهن من الضيق والتبرم كذلك اتسع نطاق المسألة فأصبح غير المحرم من سائر الناس في ضيقوتبرم من حجاب نساء المؤمنين الآخرين فانضموا إلى صفوف المؤنين الأول وتضاعف عددهمبذلك.

كان عمل الفريق الأول إيذاء النبي(ص) وإيذاء نساءه وتبعهم الفريق الثاني وسار على نفسالمنهج الخبيث فآذوا المؤمنين والمؤمنات المحجّبات.

وهذا ما كان من تأثير آية الحجاب على سائر نساء أهل الإيمان، وما تعرض لهن به المؤنونمن أسباب المضايقة.

وأما ما يعود إلى وضع بيوت المدينة وميزان احتياج النساء إلى الخروج خارجها فنقول:

إنَّ المصادر التاريخية الموثوق بهاتدلُّ على أنَّ بيوت المدينة كانت صغيرة المساحة وضيّقةمما يضطر أهلها إلى قضاء جزء من

أعمالهم خارجها من ذلك: قضاء الحاجة والأعمال الضرورية الأخرى، فيخرج الناس خارج البيوت إلى أراض متروكة غامرة تقع على حوافي الجواد والطرق فيقضون بها حاجاتهم ومن الطبيعي أن تتحين المرأة فرصة حلول الظلام فتنطلق من بيتها لذلك.

وهل تعلم أنَّ معاكسات النساء الخطيرة التي يسببها الفريق الأوّل والثاني للسيّدات في الليل على أي وجه تكون، فعلّنا لا نتصور أنَّ هذهِ المعاكسة والمضايقة توجب هتك الحرمة للنبي و المؤمنين.

والثابت أن الشيعة راعوا الأدب في رواياتهم فنقلوا معاكسات القوم للنساء بما فيها من الغزل تختص بخروجهن إلى المساجد للعبادة، ولكن فحوى الخطاب في الآيات «موردالبحث» بخاصة الآيتان ٦٠ إلى ٦٢ (اللتان أعلنتا الحرب وهددتا بالقتل والتدمير) يظهر أن المضايقات أبعد من ذلك بكثير، وأنه بصورة أقبح مما تصورناه.

روى جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور» ذيل الآية ٥٩ سورة الأحزاب (ج٥ ص٢٢٢) عن «السدي» الرواية التالية: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال:

«كان أناس من فساق أهل المدينة بالليل حين يختلط الظلام يأتون إلى طرق المدينة فيتعرضون للنساء وكان مساكن أهل المدينة ضيّقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق فيقضين حاجتهن ـ فكان أولئك الفساق يتبعون ذلك منهن، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا

هذه حرةفكفوا عنها وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها».

ويروي السيوطي سوى هذه الرواية عدداً من الروايات في تفسير الآية يستفاد من مجموعها أنَّ جماعة سماهم القرآن «المنافقين» و «الذين في قلوبهم مرض» وفئام الناس والدهماء يتعرضون لنساء النبي(ص) وسائر نساء المؤمنين بعد نزول آية الحجاب عند ذهابهن لقضاء حاجتهن بالمعاكسات والمضايقات، ومن أجل سد الذرائع عليهم حيث يزعمون أنَّهم يحسبونهن إماء لاحرائر وهذا عذر أقبح من الفعل نفسه نزل الوحي القرآني يأمر نساء النبي وسائر النساء بالستروالحجاب التام عند خروجهن من بيوتهن لقضاء حاجاتهن حتّى تسدّ أبواب الأعذار في وجوههؤلاء الخبثاء وحينئذٍ يتخذ الإجراء اللازم بحقهم بعد ذلك إذا ما صدرت مضايقة عنهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تحقيق موقف عمر بن الخطاب مما كان يجري

مما سلف من التحقيق تعرفنا على موقف شخصين من فريق «الذين في قلوبهم مرض» الذين آذيا رسول الله عند نزول آية الحجاب، وعرفنا ما قالاه من الكلام النابي وسوء الأدب الذي كان طابع حياتهما، وهما طلحة بن عبيدالله وعثمان بن عفان والآن علينا التعرف على ثالثهما فسوف نعرفه بشخصه وحليته.

روى البخاري في صحيحه، كتاب النكاح باب خروج النساء لحوائجهن (ج ٣ ص ١٩٠) الرواية التالية:

«عن هشام عن أبيه عن عائشة ـ رض ـ قالت: خرجت سودة بنت زمعة ليلاً فرآها عمر فعرفها فقال: إنَّكِ والله يا سودة ما تخفين علينا فرجعت إلى النبي فذكرت ذلك له وهو في حجرتي يتعشّى وإنَّ في يده لعرقاً فأنزل عليه فرفع عنه وهو يقول: قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن».

ونفس الرواية ينقلها السيوطي في «الدر المنثور» ذيل آية ٥٩ سورة الأحزاب ج ٥ ص ٢٢١ النقل التالي:

«أخرج ابن سعد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عائشة قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر فقال: يا سودة إنك والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين فانكفأت راجعة ورسول الله (ص) في بيتي وإنه ليتعشّى وفي يده عرق فدخلت

وقالت يا رسول الله(ص) إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا؟! فأوحي إليه ثم رفع عنه وأن العرق في يده فقال: إنه قد أذن لكم أن تخرجن لحاجتكن».

هنا نلاحظ أنَّ عمربن الخطاب أحد هؤلاء الذين يضايقون نساء النبي بعد نزول آية الحجاب وضرب الستار عليهن وذلك حين يخرجن لقضاء حاجاتهن الضرورية فيذهب بماء وجوههن ويهتك سترهن وهو في الحقيقة ماء وجه رسول الله(ص) .

ولو أننا سألنا عمر بن الخطاب بقولنا ما بالك عارضت سودة في الليل وتعرضت لها وهي مارّة لقضاء حاجتها فهتكت صونها بمرأى ومسمع من الناس وصحت بها والرجال يسمعونك ويشاهدونك: يا سودة إننا نعرفك فلا تظنين أنك تخفين علينا، فلو أنه قال في الجواب: إن سودة لم تراع لازم الحجاب، فخرجت حاسرة الرأس بدون قناع، من ثم عارضتها، لكي لا تعيد الكرّة مرة أخرى، فتخرج حين تخرج وحجابها مضروب عليها فإنّه يقال له: إن متن الحديث يكذب ادّعاءك ويرد قولك لأنّها لو كانت خرجت كما زعمت بدون حجاب من بيتها لردّ عليها رسول الله وهي تشكو إليه عمر بن الخطاب: لماذا خرجت دونما حجاب، ولم ترتد قناعك ولم تلبسي ملحفتك، مع أنَّ لسان الحديث يقول: إنَّ الوحي نزل بعد معارضة عمر والأذن للنساء بالخروج من البيت لقضاء حوائجهن الضرورية، ولم يضع مانعاً حول ذلك، مضافاً إلى هذا أنَّ قول عائشة في وصف سودة بأنّها امرأة بادنة «وكانت امرأة

جسيمة لا تخفى على من يعرفها» لدليل ناصع على أن عمر عرفها من هيأتها لا أنّه رأى عدم حجابها وكذلك تدل كلمة: فانكفأت راجعة ... وقالت يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا» على رجوعها بسرعة وقد امتقع لونها وشكت أمرها إلى رسول الله(ص).

أجل، قام جهاز وضع الحديث بعد وقوع السلطة بأيدي هؤلاء القوم بوضع أحاديث عدة لتغطية هذه النقيصة التي قام بها عمر وإسناد أمر الحجاب إليه وأن الله وافقه على الحجاب وكانت الفكرة أساساً من وضعه وإبداعه.

وفي هذه الروايات لم تكن قليلة ولا نادرة سعى الواضع سعيه ليكون نزول «آية الحجاب» أساساً على أثر إصرار عمر بن الخطاب على حجب نساء النبي وضرب الستر عليهن وقد أشرنا قبلاً إلى واحدة من هذه الروايات وهي أكل عمر مع عائشة في إناء واحد مع عرضها على آية الحجاب والبرهنة من خلال ذلك على فسادها وبطلانها.

والآن نشير إلى نموذج آخر من هذه الموضوعات:

روى السيوطي في «الدر المنثور»(١) ذيل آية الحجاب الرواية التالية:

«أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: فضل الناس عمر بن الخطاب بأربع بذكره الأسارى يوم بدر أمر بقتلهم فأنزل الله: لولا

---

(١) ج٥، ص٣١٤.

كتاب من الله سبق الآية، وبذكره الحجاب: أمر نساء النبي انيحتجبن، فقالت له زينب وإنّك لتغار علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا! فأنزل الله: إذاسألتموهن متاعاً الآية وبدعوة النبي(ص) اللهم أيّد الإسلام بعمر وبرأيه في أبي بكر وكان أولالناس بايعه«.

إنّ المرء الذكي يدرك من الفضيلة الرابعة المنحوتة لعمر والتي رفعته فوق الناس كلهم لأنّه أوّلالناس بيعة لأبي بكر بعد وفاة النبي(ص) أقول يدرك من هذه الفضيلة لماذا وضعت تلكم المناقبإنّما وضعت لتكون قالباً لها تتقولب بيعة أبي بكر فيها، وفي القسم العشرين من هذا الكتاب وقدخصص لبحث الوقايع المقارنة لوفاة النبي(ص) وقد أقمنا الدليل الناصع والقاطع على أن عمله هذامن أعظم ذنوبه وكبائره وهذا ما كان من أمر المنقبة الرابعة.

وأما ما يعود إلى المناقب الثلاث الموضوعة في الرواية السالفة فإننا نقول:

والمنقبة الأولى المتصلة برأي عمر في قتل أسرى بدر فقد كشفنا عوارها وإنّها ليسَ بشيء، بلْ هي من محاولات السطلة، وقدْ تقدم الكلام فيها.

والمنقبة الثانية ذات الصلة بموضوع الحجاب الذي شرع كما يزعمون على أثر إصرار عمرفقد كشفنا عن تهافتها وسقوطها، وأوضحنا أنّ نزولها كان على أثر الزواج بزينب بنت جحش ومكث المدعوّين في دارها مما آذى النبي حتّى نزلت آية الحجاب.

وبغض النظر عن هذا الأمر فإن في متن الحديث ما يدلُّ على تهافته من قبيل رد زينب علىعمر بقولها: «إنك لتغار علينا يا ابن الخطاب والوحي في بيوتنا ينزل«.

وهذه المشادة شاهد على وضعها لأنَّ زينب كانت يومها من أزواج النبي وتعيش في بيتالنبي(ص) وكان آية الحجاب لم تنزل بعد والثابت أنَّها نزلت في زواجها من النبي(ص) .

مضافاً إلى هذا تظهر معارضة زينب لعمر أنها غير راضية بالحجاب مع أنَّ الروايات العاميةتدلُّ على أن زينب كانت تفتخر على نساء النبي بأنَّ نزول الحجاب عليهن كان من بركة وجودها(١) .

ويتضح من دراسة هذه الناقب الموضوعة وضع منقبة أخرى لا أساس لها وهي دعاء النبي(ص) لعمر بأن يسلم «وبدعوة النبي(ص)اللّهُمَّ أيد الإسلام بعمر»!

ولعلَّ الدعاء مكذوب من أوله، ولو افترضنا وجوده جدلاً فإنَّه كان لدفع شرّة عمر عنالإسلام، لأنَّ المصادر الموثقة التاريخية أثبتت لنا بأنَّ عمر من مخالفي الإسلام أهل العناد الذي لايوقف غربه ولا يصد عاديته شيء.

ولقد ألقى الشيطان في روع عمر أن يختار الإسلام من أجلْ السيادة عليه وبهذا السبب نشأتعلاقته الحميمة مع أبي بكر وحزبه ك (عثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاصوأبي

(١) الدر المنثور، ج٥، ص٢٠٢.

عبيدة وغيرهم).

دلَّ اتحادهم وتعاونهم وتكاتفهم من أول أمرهم إلى آخره على هذا الأمر.

هذا ما كان من وضع الروايات التي وضعت لستر نقائص عمر في المضايقات التي أحدثهالنساء النبي.

وعلى أية حال، لا يلام القائل بأن طلحة بن عبيدالله وعثمان بن عفان وعمر بن الخطاب،كانوا في نزول آية الحجاب وضرب الستر على نساء النبي أيام زواجه من زينب ممن أظهر السماجةالمتناهية بعد تفرق القوم وكان لجلوسهم في حجرة زينب ومطايباتهم بعضهم بعضاً في الحديث إيذاءللنبي وسوء أدب معه ولا أحد تحمل كبر هذا غير طلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان وعمر بنالخطاب.

أجل هؤلاء الثلاثة من فئة المنافقين المحترفين وإلّا فإنَّ أمثال عبدالله بن أبي سلول وعبداللهبن نبتل من المنافقين العاديين، ليس لهم سمعة طيّبة في القوم فلا يمكن أن يدخلوا بيوت النبي بحريةتامة نظير هؤلاء كما لا يصح جلوسهم في حجرة زينب ليلة زفافها لما عليه حالهم من النفاق البيّنوالمعروف لجميع المسلمين.

لذلك لا تجد رواية عامية واحدة تعرضت لذكر عبدالله بن أبي سلول في موضوع الزواج منزينب وليس له فيه أثر يذكر وعلى العكس من ذلك تجد مضايقات طلحة بن عبيدالله وعمر بنالخطاب وعثمان بن عفان ماثلة للعيان في الروايات المذكورة.

وموضوع آخر يقرب المعنى للذهن أكثر فأكثر أن أنس بن مالك لم يصرح بأسماء هؤلاءالثلاثة واكتفى بقوله: «قام من قام وقعد ثلاثة نفر» لأنَّ التصريح باسمهم لا يتم بسهولة لأنَّ زمان رواية أنس للحكاية كانت الحكومة بأيدي هؤلاء وأعوانهم من ثم اعتبر ذكر أسمائهم موجباً لكثيرمن الحرج لأنس، ولو كان لعبدالله بن أبي سلول وأمثاله وجود في البين فإن ذكر أسمائهم ليس فقطلا يخيفه وإنما يسر الجهة الحاكمة مما يشجعه على ذكرها.

نزول الوحي في موضوع الإيذاء

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

نجد الوحي هنا قد قسم المؤذين للنبي والمعاكسين للنساء إلى أقسام ثلاثة:

١ ـ المنافقون.

٢ ـ الذين في قلوبهم مرض.

٣ ـ المرجفون في المدينة.

إنَّ تحقيقات الكتاب والبحث التاريخي دل دلالة قاطعة على أن طلحة بن عبيدالله وعثمان بن‌عفان وعمر بن الخطاب ومن لف لفهم من حزبهم الفاعل من الزمرة «الذين في قلوبهم مرض» وهم‌أولئك المنافقون المحترفون، وبناءً على هذا فإن إطلاق كلمة «المنافقون» تعني العاديين منهم الذين‌يتواجدون في المدينة وأظهر أفرادهم عبدالله بن أبي سلول، وعبدالله بن نفيل، وأما المرجفون في‌المدينة فإنَّ كلامنا المتقدم لم يجر لهم ذكر فيه، لذلك لابدَّ من معرفتهم بالرجوع إلى كلمة الإرجاف‌ـفنقول: «المرجفون» قوم لا يلتزمون بشيء وهم في كل اجتماع يشكلون مصدراً للإشاعات للتأثيرعلى العامة وإشاعة البلبلة والتفكك فيهم، وهم عدة لا رأس لهم ولا ذنب فلا هم من المنافقين‌العاديين ولا هم من المنافقين المحترفين، لأنَّ هذين الصنفين

لهم ظهور في المجتمعات الدينية لكن أصحاب الأراجيف يوجدون بكل اجتماع سواء منه الديني وغير الديني.

وبناءً على هذا فإن «المرجفون في المدينة» أولئك الجماعات اللاهية التي لا غرض لها إلا بث الأراجيف وإشاعة البلبلة وإزجاء الإشاعات وهم غوغاء المدينة وأوباشها الذين يؤلمون الناس بالمتوقعات الباطلة التي ربما لم تحدث أبداً، ولا فرق بين كونهم من المسلمين أو اليهود أو غيرهم وكون عملهم هذا مرده إلى النفاق أو العبث أو اتباعاً لسجاياهم المبنية على تتبع الإشاعات والأراجيف.

هؤلاء القوم يعمدون إلى الأراجيف والكذب لكل ظرف بما يناسبه فإذا خرج النبي للجهاد من المدينة شرعوا في إشاعة الأخبار الكاذبة والأراجيف عن ميدان القتال فيذيعون بين الناس قتل النبي وهزيمة المسلمين كذباً ليؤذوا بذلك المسلمين، وإذا كان الموضوع محاصرة المدينة بقوات العدو أذاعوا بين الناس الخوارق عن شدته واتساع قوته وتسلطه على المدينة وسرعة سقوطها بيده، واعتبر ذلك في كل الأوضاع المستجدة فإن مهمتهم هي إشاعة الفوضى والبلبلة.

وبناءً على هذا فإن إرجافهم في هذا الموضع باعتبار نزول الآيات ذات الصلة بإيذاء النبي وإيلامه بعد فرض الحجاب وضرب الستر على أزواج النبي، قصدوا به السيدات أمهات المؤمنين وزوجاتهم، فنشروا الأخبار الكاذبة الموجبة لهتك حرمات النساء المؤمنات والعفيفات.

وربما كان إرجاف هؤلاء وهم الكذبة ومنمقو الأحاديث الباطلة في هذه القضية وهم سقطالمتاع المنحطون أراذل الناس الذين يريدون سلب حرمة النبي والمؤمنين أشد خطراً من نفلق المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض ولذلك نجد كلام الوحي اشتد لحنه في الآيات الثلاث التاليةبشكل لم يسبق له نظير وشدد عليهم أي على الفرقاء الثلاثة: المرجفون، والمنافقون، والذين فيقلوبهم مرض، وأعلمهم بأنهم إن لم يقلعوا عن خبثهم وإيذائهم النبي وإرصادهم للفتنة فسوف يعلناستئصال شأفتهم وقتلهم بأجمعهم:

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

إن هذه الشدة والصلابة في الآيات القرآنية لا سابقة لها وربما وجدنا شبيهاً لها في سورة التوبةمع المشركين الذين نقضوا عهد رسول الله(ص) وأنكروا مواثيقه(١) مع فارق واحد هو إعطاء مهلةأربعة أشهر للمشركين وحرمان هؤلاء حتى من المهلة.

ومن هذا الموضع المتشدد ندرك أن الإيذاء والإيلام الذي يحدث لنساء النبي وساير النساءالعفايف من المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفون، والخطر المترتب عليه للإسلام ربمافاق نظيره المترتب على نقض العهد والميثاق من المشركين.

---

(١) ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إنَّ الله غفور رحيم﴾ سورة المائدة: الآية ٥.

أجل، لو افترضنا أن بالإمكان وصول المشركين إلى أهدافهم فإنّها لا تعدو قتل النبيوأصحابه من المؤمنين ولكن ذلك لا يصل إلى الكرامة وهتك الصون وإراقة ماء الوجه وتلويثالحيثية.

وخلاصة الحديث أننا بالاعتماد على ما قلناه يمكن استخلاص النتائج التالية:

١ ـ أن فئة «الذين في قلوبهم مرض» وتعني المنافقين المحترفين الذين ضربوا نطاقاً حولالنبي(ص) كلهم أو بعضهم بالغوا في إيذاء النبي وإيلامه بعد زواجه من زينب بنت جحش حتى جرَّ ذلك إلى نزول آيات الحجاب وضرب الستار على نساء النبي(ص)، هؤلاء تجاوز إيذاؤهم النبي من مرحلة القول بعد منعهم من دخول بيوت النبي وجلوسهم في حجراته والحديث مع أزواجه إلىمرحلة إيجاد المضايقات والمعاكسات.

وقد تبيَّنت لنا في التحقيق السالف ثلاثة وجوه هم طلحة بن عبيداللهوعثمان بن عفان وعمربن الخطاب من بين أولئك المنافقين وبالحدس القريب من اليقين أن هناك في فئتهم غيرهم ممنيسير على منوالهم وينهج نهجهم فيسببون المضايقات والمعاكسات لأزواج النبي وغيرهن منالمؤمنات.

٢ ـ فئة «المنافقين العاديين» وهم قوم من أهل المدينة ولهم صلات رحمية بكثير من طوائفالأنصار وما تزال بينهم المراودات في الذهاب والإياب إلى بيوت بعضهم البعض وقد تكون بينهموبين النساء مجالس تجري فيها أحاديث مختلفة على جاري عادتهم قبل

ضرب الحجاب ولا بدعفالمؤمنات والعفايف منهم من تأثرهن بآية الحجاب وصون أنفسهن عن عيون القوم بضرب السترعليهن ومنع دخول غير المحرم بيوتهن وهؤلاء بالطبع هم المنافقون المار نكرهم، مما يثير غضبهمواشمئزازهم من ثم كثرت مضايقاتهم وإيذائهم لأولئك النساء ذوات العفة والنجابة.

٣ ـ المرجفون، وهم مرسلو الإشاعات والأكاذيب والبهتان الموجودون في المدينة، وهمعادة ما يكونون من سقط المتاع والمنحطين والأوباش والأحداث غير المقيدين بالآداب فاجتمعهؤلاء وانضم بعضهم إلى بعض، فكانت خطتهم إيذاء نساء المسلمين والجواري العاملات معهن، مننشر الأخبار الكاذبة التي تستهدف عفتهن وتخدش حياءهن وهم لا ورع لهم فيتناهون عن ذلكوليس لهم من يردعهم.

لا نريد أن نقرر أن كل فئة من هؤلاء لها عمل نحصيه وأن المضايقات الخارجة منهمتستهدف أناساً بعينهم من نساء المسلمين، كلا، وربما آذى أحد المنافقين العاديين نساء النبي ولاجرم فإنَّ المنافقين المحترفين لا يتورعون عن قذف باقي نساء المسلمين والمؤمنين، وربما انبرىشاب من هؤلاء الأوغاد العابثين إلى نساء عفائف فقذفهن بأقوال تسيء إلى الشرف والحياء.

والفرض من التقسيم هو بيان نوع المنافقين والأفراد المؤذين كبيان نوع الأفراد المتعرضينللأذى والمضايقة، وهو مبني على الأغلبية وليس تقسيماً رياضياً بحيث تختص كل فئة بإيذاء فئةمعينة لا تتجاوزها إلى غيرها.

ثم إنَّ هذا البحث هو جانب من تاريخ المنافقين الذي يرتبط بالآيات ٥٣ إلى ٦٢ «سورةالأحزاب».

وفي الختام نرى إلفات النظر إلى هذه النكتة ضرورياً وسوف نذكر بها في الفصل القادم.

تقطيع ٢٩ آية إلى ثلاث مجموعات في النظام التركيبي لآيات " سورة الأحزاب")آيات ١ إلى ٦ و ٣٦ إلى ٤٨ و ٥٣ إلى ٦٢

وكما لاحظنا في بحث الآيات ٥٣ إلى ٦٢ من سورة الأحزاب اتضح لنا أن الموضوعالمبحوث عنه من تلك الآيات يرتبط ارتباطاً تاماً بالآيات الست الأول من السورة ومثل ذلكالآيات ٣٦ إلى ٤٨ .

أي الآيات الموجودة بين الثلاث والسبعين آية من سورة الأحزاب ترتبط بإلغاء حكم التبني الجاهلي«الولد المتبنّى» ولوازم ذلك وهي عبارة عن الآيات ١ إلى ٦ و ٣٦ إلى ٤٨ و ٥٣ إلى ٦٢ من سورةالأحزاب وقد ضمت هذه الآيات بين آيات السورة من غير نظر إلى التسلسل، مع أنّ وضع الآياتيقتضي بطبيعة الموضوع الواحد أن تأتي على التعاقب وهي تسع وعشرون آية من غير أن يفصل بينهافاصل من موضوع آخر كأن توضع في أول السورة لأنّه وكما أشرنا في القسم العاشر والقسم الثانيعشر من الكتاب وقد مرّ شرحه أن اتجاه سورة الأحزاب قائم على إلغاء آداب التبني وتقاليدهالموضوعة في العصر الجاهلي، ولكننا نجد والألم يحز في صدورنا أن تسعاً وعشرين آية قطعتأوصالها في نظامها التركيبي إلى ثلاث قطع وتخلل هذه القطع الثلاث آيات أُخرى من غيرموضوعها مما يحمل الإنسان النابه الفطن على التساؤل عن السبب في ظهور هذه الظاهرة من تخللآيات من غير موضوع بين آيات

الموضوع الواحد ما هي المناسبة في تخلل آيات غزوة الأحزاب وآيات «يا نساء النبي» مع القطعة الأولى والثانية من الآيات المعهودة حتى حشرت بينها؟!

ونتساءل أيضاً عن وجه المناسبة بين الآيات ٤٩ إلى ٥٢ من هذه السورة مع القطعة الأولى والثالثة من تلك الآيات المعهودة حتى توضع بينها.

نعم إنَّ الإنسان يدرك جيّداً أنَّ الآية الشريفة ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ وهي آخر آية من آيات القطعة الثانية المعهودة فقد ربطت جميع آيات القطعة الثانية بالقطعة الأولى من جانب ومن جانب آخر لما كان الكلام في الآية عن إيذاء المنافقين في شأن زينب بنت جحش وزواجها من رسول الله وسوء أدبهم كذلك تربط القطعة الثانية بالآية ٥٣ وهي الآية الأولى من القطعة الثالثة (وفيها جرى الحديث عن الإيذاء الذي أوجدته تلك الفئة للنبي حين أولم على زواجه من السيدة زينب بنت جحش) وأخيراً تجعل ارتباط الآيات المعهودة من القطعة الثالثة بالقطعة الثانية ظاهراً بيّناً.

والآن علينا أن ننظر الى الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ والآيات الثلاث بعدها والتي وقعت فاصلاً بين القطعة الثانية والثالثة من الآيات المعهودة، هل لها قليل من الارتباط بالقطعتين؟!

وما علينا الآن إلا أن نأتيك بالآيات التسع والعشرين المعهودة (المتصلة بإلغاء الآدابـوالتقاليد المرعية في العصر الجاهلي للتبني وزواج النبي بزينب بنت جحش وعلى أثر ذلك تعرضللإيذاء من المنافقين المحترفين في هذا الموضوع وما جرى للنبي من سوء أدب من القوم وامتدادذلك الإيذاء حتى شمل سائر المومنين والمؤمنات) وقد قطعت هذه الآيات إلى ثلاث قطع خلافالنظم القرآن الكريم وبين كل قطعة منها وضعت آيات من موضع آخر من القرآن الكريم لا يلائم معنىالقطعة، وسنضع بين يدي القارىء آيات القطعة الواحدة متصلاً بعضها ببعض من دون فاصل منآيات أخرى ليست من معناها لتدرك بنفسك مدى الارتباط الحاصل بينها من غير فصل وكذلكليدرك القارىء مقدار الاتجاه بالنظم القرآني وجهة غير طبيعية أي لا تلتئم مع نظمه من حيث أنزلعلى المصطفى(ص) ونحن نأسف أشد الأسف لهذا التصرف المؤلم لكل مؤمن.

والآن نتوجه إلى صورة اتصال القطع الثلاث من غير فاصل.

القطعة الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ

وَلَيس عَلَيكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخطَأتُم بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥) النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) ﴾.

القطعة الثانية: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٤٨) ﴾.

القطعة الثالثة: ﴿) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا

مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ
وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ
عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤)
لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ
وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)
إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦)
إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً (٥٧)
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨)
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى
أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠)
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ
تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾(١)

ونلاحظ هنا أن القطع الثلاث للآيات المعهودة عندما يتصل بعضها ببعض وتأتي ضمن نظمها القرآني كيف تحتفظ تسع وعشرون آية بارتباطها من أوله إلى آخره، فقد رسمت لماضي إلغاء الحكم الجاهلي للتبني والحكاية ذات الصلة به والظواهر التالية له صورة واحدة في موضع واحد.

والآن ندقق في هذه القطع الثلاث المعروضة أمامنا ثم نقارن

---

(١) سورة الأحزاب.

بينها وبين نظمها في موضعهامن القرآن بين آيات سورة الأحزاب من القرآن المتداول اليوم ولننظر كيف خلطوا الآيات بنظم منتدبيرهم، وهم الذين جمعوا القرآن أول ما جمعوه، وما كانوا سوى فئة المنافقين المحترفين، فغيّرواالنظم المنزل وركبوه تركيباً يتفق ومذهبهم حيث أرادوا إخفاء أثرهم الذي شجبه القرآن وذمّهم عليهفي قران النبي(ص) بزينب بنت جحش وما ترتبت عليه من آثار أوقعتهم في موضع الملوم المبعد،وبذلوا لذلك جهداً ذكيّاً في تغيير الصورة الأولية للنظم القرآني وفيه ذمّ موقفهم الذي آذى رسول اللهواستوجب مقت الله لهم.

أجل ونحن في هذه التحقيقات القرآنية الواردة في هذا الكتاب سوف نبصر هذه المشاهدمكررةً وسنرى كيف يغير الحزب الحاكم النظم الطبيعي للقرآن في الآيات والسور مراراًوتكراراً ويجمعها جمعاً آخر يصب في مصلحته، حتى يخفى أثره والدلالة عليه من جهة ويبعدالآيات النازلة في أهل بيت العصمة من تقرير لولايتهم وإثبات لحقهم وإشادة بفضلهم عن موضعهاالذي ترتبط به الدلالة على معنى ذلك بانضمامها إلى سنخها من الآيات من جهة أخرى.

ومن الواضح البيّن أن وجود مثل هذا التصرف في القرآن المتداول ليس معناه إثبات التحريفالعامّي الذي يتمشدق به فريق من أهل الحديث العامة والخاصة ويستدل بأحاديث يأتون بها تثبتما يذهبون إليه من هذا المعنى.

كلا، فإنَّ ما يأتون به يدل دلالة قاطعة على تفاهته كلمةً كلمةً وحرفاً حرفاً وإن أدنى موازنةبين متون الأقوال المستدل بها على التحريف والآيات القرآنية تدل على نأي ذلك عن الحق.

كلا لا شيء من ذلك موجود في القرآن الكريم.

وإثبات تركيب النظم في القرآن من قبل الحزب الحاكم وهم المنافقون المحترفون يختلف عماكانوا يقولونه فإنَّهم يقولون مثلاً عن سورة الأحزاب بأنها تعدل سورة البقرة ولكن سقطت آياتهاجميعاً ما عدا الآيات الثلاث والسبعين الموجودة فعلاً لها، ويذكرون من جملة الآيات المسقطة هذهِ العبارة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» وهي جملة تشبه كل كلام إلا كلام الله تعالى،ولفظ «البتة» شاهد على ما نقول من ضحالتها وسقوطها.

ومن الضروري أن الحزب الحاكم لو كان قادراً على إسقاط بعض الآيات لبدأ بالآيات التينزلت في رجاله لوماً وتقريعاً وتأنيباً وبالآيات التي تشيد بطرفه المخاصم.

ولكننا نشاهد بقاء الآيات من القسمين في القرآن ماثلة للعيان، وهو المتداول اليوم، وتنظيمهكان بعهدة القوم ونحن بتحقيق نفس الآيات وما يقابلها وصلنا إلى هذه النتيجة.

وإذنْ كما عجز الحزب الحاكم عن طرح الآيات التي مرّت الإشارة إليها فإنه يفزع حينئذٍ إلىالنظم القرآني، فيتصرّف تصرفاً يماشي هواه في ترتيب الآيات وتركيب مواضعها، لكي يتسنّى له منخلال التقديم والتأخير في الآيات والسور وتغيير أماكن الآيات في

المصحف الشريف بصفةمرموزة ونقلها من مواضعها التي رتبت فيها حين التنزيل إلى مواضع أخرى ترتبط بأسباب نزولمختلفة عما هي فيه والغرض من ذلك للحزب الحاكم (المنافقين المحترفين) هو التستر على مواقفرجاله وإبعاد التهم عنهم ومحو آثارهم التي كانت هي السبب في نزول الآيات المتصرف بمواضعها.

وقد بقي الوضع في الخفاء طول العهد الذي صاحب حكمهم.

إلى هنا ينتهي البحث عن تاريخ المنافقين في سورة الأحزاب من أولها إلى آخرها.

والآن نذهب إلى تحقيق آيات سورة التحريم بعد اطلاعنا اطلاعاً خاصاً في تحقيق آيات «يانساء النبي» على خصائص أزواج النبي لا سيّما عائشة بنت أبي بكر.

القسم الثالث عشر

البحث في سورة التحريم

من ١ ـ ١٢

متن الآيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ
أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ
وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ
تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا
مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ
شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا
الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا
يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا
نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ
وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ
إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾.

الفصل الأول
تحقيق الآيتين الأوليين من سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

يظهر لنا من هاتين الآيتين جيداً أنَّ الأمرَ الذي أحله الله على رسوله كان موضع حسد لجميع نسائه، ولما حرّمه النبي على نفسه وقع ذلك موقع الرضا منهن جميعاً وسررن به سروراً لا يوصف لأنَّ لفظ «الأزواج» استعملت استعمال الجمع في الآية الشريفة، فدلت على أن جميع النساء تشملهن المنفعة في هذا التحريم، وهذا الأمر يطابق الروايات المروية عن الشيعة بالاتفاق وعن العامة بالشهرة من أن شأن نزول الآية كان في موضوع «مارية القبطية» في قضية حرمها النبي على نفسه حيث أوشك نساؤه على الاتحاد ضده وربما أدّى ذلك إلى نشوء تساؤل من الناس حول الموضوع مما يصادم الأدب النبوي، حيث أقسم النبيّ أنه لن يضاجعها أبداً، وبهذا السبب نزلت سورة التحريم وربما لاحظنا أنَّ الله تعالى عاتب نبيه في الآية الأولى بمحبّة حين ذكره بأنَّ ذلك لا يدخل في دائرة القبول، حين شدَّد على نفسه في سبيل مرضاة نسائه «حرّمت على نفسك ما أحله الله لك»؟!

وفي الآية الثانية أوحى له بتحلة أيمانه في إعطاء الكفارة حتى يحل له ما حرّمه على نفسه باليمين.

بناءً على هذا أنه لا موضع لما جاء في بعض الروايات العامية من أن النبي شرب عسلاً فيبيت زينب بنت جحش أو سودة أو أم سلمة أو حفصة وأن عائشة أو زوجة أخرى من نسائه قالتله: أشم فيك رائحة «مغافير»(١) فحرم العسل على نفسه وكان هذا سبباً لنزول الآيتين أعلاه. هذا غيرصحيح إطلاقاً بل هو موضوع.

لأنّه مضافاً إلى التضاد المفهومي الموجود بين الروايات فإن هذه القضية لا ربط لها بالآياتالتي تلت الآيتين الأوليين.

[تجدون الروايات التي تقدمت الإشارة إليها في «الدر المنثور» و «مجمع البيان» في تفسيرآيات سورة التحريم فراجعوها إن شئتم].

إذن، من الأمر المحتم والمقطوع به أن حديث التحريم هو تحريم مارية القبطية وآيات سورةالتحريم وما يتبعها نزلت في موضوعها.

وهنا يلزمنا أن نلم بشيء من تاريخ مارية القبطية طبقاً لمستندات الفريقين لكي يعلم كيفوقعت هذه الجارية موقعاً للحسد والبغضاء من نساء النبي(ص) حتى أوجبت قضيّتها نزول آياتسورة التحريم وآيات غيرها.

---

(١) عصارة شجرة تدعى «العرفط» له نكهة كريهة.

حديث مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ونزول سورة التحريم

روى الرواة بأن النبي(ص) أرسل كتاباً في السنة السادسة من الهجرة إلى المقوقس حاكمالأسكندرية ودعاه إلى الإسلام وأعطى الكتاب «حاطب بن بلتعة» وأوفده إلى «المقوقس»بالكتاب، فقام الرجل بواجب التقدير والاحترام وأرسل إليه هدايا من مصر منها جاريتان إحداهماتدعى مارية وتدعى الثانية «شيرين» وخادم يدعى «مأبور» وكانت الجاريتان أختين والرجلالخادم متقدم في السن «مجبوب» وهو قيم على الجاريتين.

فدعا حاطب الجاريتين إلى الإسلام فقبلتاه وأسلمتا أما الخادم فبقي على دينه حتى أسلم فيالمدينة على يد النبي(ص)، ولما أوصل حاطب بن بلتعة الهدايا إلى النبي اختص نفسه بمارية ووهبشيرين إلى حسان بن ثابت شاعر الأنصار فكانت مارية مقربة من رسول الله خادمة له، وكان النبيعندما يزور بيوت نسائه تصحبه مارية بعنوان الخادمة الخاصة له، وكانت ذات طلعة بهية وفي قلبهامحبّة للنبي واحترامه مما سبب ذلك هيجان روح البغضاء والحسد عند النساء، وبما أنها جارية فقدكانت معرضة لتطاولهن عليها وإيذائهن لها، مما يثير غضب النبي وألمه، وجرى تحريم مارية فيمثل هذه الأوقات وملخصه:

وجاء مختصر الحكاية بلغة بسيطة:

استأذنت حفصة النبي ذات يوم وذهبت لزيارة أبيها عمر بن الخطاب وكان بيت عمر فيأطراف المدينة وقد تستغرق زيارة حفصة له أكثر من ساعة، ولما كان النبيّ في بيت حفصة ووجدالفرصة سانحة وأنَّ مارية جارية محرومة وقد تحزبن ضدّها وحرمنها من لقاء النبي لئلا تنفرد بهدونهنّ، استدعاها إلى دار حفصة ودنا منها بحكم كونها أمته.

وكانت حفصة في تلك الساعة قد بلغت دارها ورأت الباب موصد فعلمت بجلية الحال، ولايعلم هل كان رجوعها إلى الدار خطّة مدبّرة منها ومن سائر النساء أو أنها رجعت على نحو الصدفة،وقد رأت أباها مثلاً في الطريق أو أنها لم تذهب إلى بيت أبيها ورجعت عودها على بدئها مسرعةفقد نشبت فتنة على كل حال ودارت على شخص النبي(ص) وشهدت النساء جرأة حفصة على النبيوشدتها عليه وأخذت تطالب النبي لتزيده إحراجاً فتقول:

لماذا في حجرتي وعلى فراشي؟

لقد أذنت لي بالذهاب إلى أبي ليخلو لك البيت وتضاجع جاريتك على فراشي الخاص.

أنت لم تجرؤ على أية امرأة من نسائك إلا علي وفي حجرتي الخاصة تنال من جاريتك مانلته.

وأخذت تقول وتقول وتكثر من ذلك الصياح واجتمع حولها النساء

اللواتي يحسدن مارية ويبغضنها وقد سرهن موقف حفصة وأعطين الحق لها.

فأقسم رسول الله من أجل إسكاتهن وإرضائهن أن لا يضاجع مارية وقدْ حرّمها على نفسه حرمة أبديّة حيث رضا نسائه أما حفصة وهي حاملة العلم والمجلبة على النبي لم يرضها ذلك وظلت حيث هي من الضجيج والصراخ فاضطر النبي لإسكاتها أن يسر لها حديثاً نفعه لها ولعائشة دون باقي نساء النبي(ص)، وطلب منها كتمانه، فسرّت حفصة من إطلاعها على هذا السر المكتوم، فأقلعت عما كانت عليه من الزعيق ولكنها سارعت فأخبرت عائشة به على الرغم من أمر النبي لها بالكتمان لأنّها المنتفعة به أيضاً.

ومن هاتين المرأتين ذاع السر بين أهلهما لما فيه من نفع لهما فأعدّوا العدة للوصول إليه قبل موعده واتحدت عائشة وحفصة لتعجيله.

وسوف نميط الستار عندما نحقق بقية الآيات من سورة التحريم إن شاء الله.

ونزلت سورة التحريم عقيب قسم النبي في تحريم مارية القبطية على نفسه وإرضاء نسائه وغبطتهن وكما لاحظتم أن الله سبحانه لم يشدد في عتاب النبي عليه وإنّما لاطفه وعاتبه برقة ومحبة، وأمره بالتكفير عن قسمه ليحل له وطىء مارية القبطية ويمحى ذلك اليمين الذي اتخذه على نفسه، والظاهر أن النبي بعد نزول السورة أعدّ لمارية القبطية في بيت أبي أيوب الأنصاري أو بيت حارثة بن

النعمان الأنصاري مكاناً وأنزلها فيه وكان يراود ذلك المكان علناً، فكان تواتر زيارته(ص) لها يثير غضب نسائه وحسدهن لها وحقدهن عليها، لاسيما بعد ظهور أعراض الحمل عليهاوحملت بولده إبراهيم فاعترتهن نوبات من الفزع والجزع، لاسيّما عائشة فقد تم ذلك عليها بصعوبةوشدّة.

تقول عائشة لما كانت مارية القبطية في بيت حارثة بن النعمان قمنا بإيذائها إلى الحد الذيحمل النبي على إبعاد مكانها منا وحملها إلى عوالي المدينة، وأقامها في «مشربة أم إبراهيم» التيوصلت إلى النبي من أموال«مخيريق» رحمه الله، وحجبها كسائر أمهات المومنين وكان يراود بيتهاصباحاً ومساءاً.

والآن مارية مشتملة على إبراهيم ابن رسول الله(ص) وتقترب شيئاً فشيئاً من وضع جنينهاوكان النبي(ص) يراقب مارية مراقبة دقيقة، ولم يأذن لأحد بزيارتها بعد ضرب الحجاب عليها، إلاالخادمها القادم معها المدعو «مأبور» وقد ضمها المقوقس إليها ليقوم بخدمتها وتربيتها، وكما دخلعلى نساء النبي ومنهن عائشة وحفصة وأهل بيتها من الغم والهم والحزن من حمل مارية بإبراهيمدخل على علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء(ع) وجماعة من الأنصار من الجذل والسروروالفرح ما لا يعدله شيء.

ووضعت مارية القبطية ولدها العزيز إبراهيم(ع) في ذي الحجة من السنة الثامنة في مشربةأم إبراهيم.

وكانت القابلة سلمى زوجة أبي رافع مولى رسول الله(ص) وحمل أبو رافع البشارة إلى رسولالله(ص) فأهدى له النبي مملوكاً

على بشارته.

وفرح بولادة إبراهيم أهل بيت النبي لا سيما الإمام علي بن أبي طالب وزوجه الصديقةالطاهرة فاطمة الزهراء(ع) وجدوا في تهيئة الجو المريح له ولأمه(ع) وتسابق نساء الأنصار علىإرضاع إبراهيم(ع) وكانوا يحبون أن يرفعوا عن كاهلها ثقل إرضاعه حتى تتفرغ مارية لخدمةالنبي أكثر وأكثر.

روى محمد بن سعد الزهري صاحب «الطبقات» في ترجمة إبراهيم ابن رسول الله(ص) (١) الرواية التالية:

«وغار نساء رسول الله(ص) واشتد عليهن حين رزق منها الولد» وروى أيضاً:

«وكانت قد ثقلت على نساء النبي(ص) وغرن عليها ولا مثل عائشة».

نعم بلغ الحسد والغضب بقوم من المخالفين درجة بهتوا فيها مارية وحاشاها ورموها بالفاحشة لعنهم الله وزعموا أنها حملت بإبراهيم(ع) من سفاح (٢).

ولكن من الذي اتهموه بها وقد ضرب النبي عليها الحجاب ونهى عن دخول أحد عليها ومنعالرجال من المرور في منزلها أو لقائها والحديث معها، إنهم لم يجدوا حين اضطرتهم الحال إلا

---

(١) ج١ ص٨٦.
(٢) لم يتهم مارية سوى عائشة وحزبها.

ذلكالشيخ الخادم المجبوب فنسبوا إبراهيم إليه.

وبدأت الإشاعة تأخذ مسراها على ألسنة الناس وراح يؤكدها المنافقون المحترفونوينشرونها إلى الدرجة التي واجه بها بعضهم رسول الله(ص) وأخبره عن الصلة المحرمة بين الخادمالعجوز «مأبور» وبين مارية وحاشاها من ذلك ونفى إبراهيم علناً من النبي ونسبه إلى «مأبور»وغضب النبي غضباً شديداً وأمر علياً(ع) بالتحقيق في ذلك الاتهام وكان علي(ع) على اطلاعمسبّق بجذور التهمة فأقبل نحو مشربة أم إبراهيم ثم أقبل يصطحب معه مأبور وهو يقول: يا رسولالله الرجل مجبوب وليس له آلة الرجال، فقال النبي(ص): الحمد الله الذي سلب عنا السوء آل البيت ثمصرف وجهه الكريم إلى مأبور وأمره أن يطلع أهل المجلس على وضعه لتنفى عنه التهمة ويتأكدلديهم أن النساء كذبن عليه، ثم تحول اسمه من يومئذٍ من مأبور إلى جريج ولكن ذلك لم يقطع مقالةالسوء ولم تخمد نار حسدهن ولا غيظ قلوبهن ولم تكف ألسنتهن عن الإشاعات الباطلة حتى أنزلالله آيات الإفك لتبرئة مارية وإثبات طهارة ذيلها (والآيات ١١ إلى ٢٦ سورة النور) وبرّأ ماريةالقبطية رضي الله عنها من هذه التهمة ومع هذا كله فقد عمد جهاز الوضع بواسطة عائشةوبطانتها إلى وضع أحاديث لا أصل لها وحولوا مجرى أحاديث الإفك فزعموا نزولها في عائشة لتبرئتها من التهمة التي رميت بها في غزوة بني المصطلق.

ثم إن إبراهيم مع ما صاحب ولادته من بلاء أحيط به وبأمه وآلم والده المصطفى(ص) لم يسلم من الردى فاخترمه بعد الشهر الثامن عشر من ولادته، فبكى رسول الله على ولده المظلوم ودفنه في البقيع.

نعم موت إبراهيم وإن أصاب قلب والده رسول الله وأمه مارية بالأسى والحزن لفقد ولدهما ولكنّه في الحقيقة أخمد نار الحسد والبغضاء في قلوب المعاندين، ولم يستطع دفع شرّة الحسد إلا موت إبراهيم وحده توفيت سيدتنا مارية(ع) في السنة السادسة عشرة من الهجرة ودفنت مع زوجات النبي في البقيع.

هذا ملخص سيرة مارية القبطية الذي استقيناه من مصادر الفريقين والآن إلى تحقيق آيات سورة التحريم حتى نقف على أسرار الحياة عند المنافقين المحترفين الذين ذكرتهم الآيات ونطلع عليها ونلم بحقيقتها.

التعرف على عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر في آيات "سورة التحريم"

بعد أن عاتب الله نبيه عتاب الود والمحبة وحاسبه بدقة على تحريمه ما أحل الله له ترضيةلزوجاته وهرباً من مضايقاتهن ومعاكستهن له في الآية الأولى أمره بالآية الثانية بالتكفير عن يمينهحتى يحل له ما حرّمه الأيمان وهذا ما عبّر عنه القرآن بتحلة الأيمان ثم شرع عقيب ذلك بتأنيباثنتين من أزواج النبي(ص) اللتين ضلعا في هذه المؤامرة بشكل سافر وكانت لهما اليد الطولى فيهذه الفتنة.

فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

وبعد ذلك بالغ القرآن بتوبيخ المرأتين وتأنيبهما تأنيباً شديداً وقال عن الحديث الذي أعرضعنه النبي(ص) ولم يفشه. القول التالي:

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

اتفق العلماء العامة منهم والخاصة على أن المرأتين اللتين عاتبهما الله وكانتا تعضد إحداهما الأخرى في هذه الفتنة وما لابسها

من الأمور المتأخرة عنها، هما حفصة بنت عمر بن الخطاب وعائشة بنت أبي بكر وكذلك اتفق علماء الفريقين على أنّ المرأة الأولى التي أودعها النبي السر وأمرها بكتمانه وأن لا تفشيه هي حفصة بنت عمر بن الخطاب.

والآن تلزمنا الإجابة على سؤالين تدل عليهما متون الآيتين وتعرضان نفسيهما وهما:

١ ـ ما هو الخبر السري الذي كشفه النبي لحفصة بنت عمر بن الخطاب على أثر تحريمه «مارية القبطية».

٢ ـ ما هو الموضوع الذي أدرك النبيّ الحياء من إبدائه لتلك المرأة فسكت ولم يكلمها فيه.

قال بعضهم: إنّ السر الذي فشاه للمرأة على أثر تحريم مارية القبطية هو التحريم نفسه.

وهذا بعيد عن النظر الصحيح لأنّ هذا الخبر لو كان تحريم مارية القبطية وقد عمد رسول الله(ص) إلى تحريمها من أجل إرضاء تلك المرأة، وأودع تحريم مارية كما تودع الأسرار عند الناس وأمرها بعدم إفشائه، لكانت الآية الأولى الخاصة بذلك التحريم على النحو التالي:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ لأنّ في هذه الحالة كان التحريم من أجل تلك الزوجة الواحدة وليس لجميعهن.

ولابدَّ من اعتبار «هذا السر» أمراً آخر ما عدا التحريم ونفعه يخص

المرأتين وحدهما، وكان النبي قد أودعه عند إحداهما ممن هي أشد جرأة على رسول الله في هذه الفتنة، وأعظم أثراً في إيلام النبي بسوء الأدب والجهل فكشف إليها السر المكتوم ليكون عزاءً لقلبها فتكف عنه عادية لسانها وتصمت، وعاهدته على كتمانه ولكنها أفضت بها إلى صاحبتها وشريكتها في المنفعة.

وهذا الخبر يمكن تصيّده من الروايات التي رواها الفريقان وصرّحت به وذلك أن النبي أخبرها باستخلاف أبي بكر من بعده وعمر من بعد أبي بكر فإنَّ النبي لما رأى حفصة ما تزال عند موقفها من التشهير بالنبي(ص) بعد تحريم مارية كذلك أخبرها بولاية أبيها وهي منفعة له كما هي منفعة لها وأخذ عليها ميثاقاً مغلظاً أن لا تفشي الخبر لأحد أبداً ولكن حفصة أفضت به إلى عائشة وأطلعتها على سر النبي(ص).

هذا هو الجواب عن السؤال الأول.

وأما ما يعود للسؤال الثاني فإننا نقول:

إنَّ الموضوع الذي استحيا النبي من إبدائه فكتمه ولم يبده وعبّرت عنه الآية الكريمة بالجملة الشريفة «وأعرض عن بعض» لابدَّ من كونه موضوعاً متصلاً بتوبيخ المرأتين وتأنيبهما، لأنّه في الآية التالية خاطب كلا المرأتين بلحن شديد وقاسٍ حيث قال: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ وإن كان هذا الموضوع كما ذكر في بعض الروايات العامية ولاية أبي بكر وعمر من بعده فإنه:

أولاً: إن كان هذا السر على فرض وقوعه أذيع فما وجه التوبة عنه بعد إذاعته فهل يا ترى تعيده التوبة إلى السريّة والخفاء مرّة ثانية.

ثانياً: بعد إذاعة السر وشيوعه بين أهل بيت المرأتين المنتفعتين به بالحتم واليقين فما معنى خطاب الله للمرأتين بعد ذلك: إنكما إن لم تتوبا فلستما بضارتيه بشيء فإنَّ الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير يحفظونه من كل شر.

ثالثاً: إنَّ السر أفشته واحدة منهما فما وجه قصدهما معاً بالعتاب والتوبيخ؟

رابعاً: لو كان القصد من هذا الموقف المشدّد هو الحد من زيادة إشاعة السر فإنه يقال: إن نزول الوحي بهذه الصورة ساعد كثيراً على إذاعته وإشاعته من قبيل قوله: «وأعرض عن بعض» ثم عتاب المرأتين وتوبيخهما العنيف في الآية:

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ لأنَّ هذا السر الخفي عبّر عنهُ بالكناية والرموز والإشارة مما بثّه حسّ التطلع في المسلمين وحملهم على التجسس عما كتم النبي من شأن هذا السر وصار سبباً في تحريك فضول الناس للوقوف على جلية الحال.

وبناءً على هذا ينبغي أن يكون الموضوع شيء آخر، ونحن مضطرون للجنوح إلى الوجه الذي حملته طائفة من روايات الشيعة وأماطت الستار عنه فقد جاء في هذه الروايات أنه بعد إفشاء المرأتين السرّ من استخلاف أبي بكر وعمر من بعده والإفضاء به إلى طرف

ثالث فإنّ المرأتين (أمامع علم أهل بيتهما أو عدم علمهم) فقد قررتا قتل رسول الله بالسم ليتسنّى لأبويهما بلوغ الغاية مننيل الخلافة المترتبة على موت رسول الله(ص) .

إنّه موضوع خطير ذو لوعة تصيب قلب كل مؤمن بشعلة من نار الألم والحزن وتقلق قلب كلمحب لرسول الله متيّم به.

من ثم نجد الباري سبحانه قد شدّد في مخاطبة المرأتين بحيث أنبهما تأنيباً عظيماً ثم اتخذسبحانه موقفاً صلباً إزاء ما ينويانه من الإجرام بحق النبي(ص) من إعلانه الحماية له بمساعدةجبرئيل والصالح من المؤمنين ثم أعلن حراسة الملائكة للذات القدسية للمصطفى(ص) .

والآن مع ما قاله علي بن إبراهيم في هذا الشأن وعليكم ببذل الدقة في تدبره، قال علي بنإبراهيم القمي:

كان سبب نزولها أن رسول الله(ص) كان في بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكونمعه تخدمه وكان ذات يوم في بيت حفصة، فذهبت حفصة في حاجة لها فتناول رسول الله(ص)مارية فعلمت حفصة بذلك فغضبت وأقبلت على رسول الله(ص) وقالت يا رسول الله هذا يومي وفيداري وعلى فراشي؟!

«فاستحيى رسول الله منها فقال كفّي فقد حرّمت مارية على نفسي لا أطأها بعد هذا أبداً وأنا أفضي إليك سرّاً فإن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فقالت: نعم ما هو؟فقال: إن أبا بكر يلي الخلافة من بعدي ثم من بعده عمر أبوك فقالت من

أخبرك بهذا؟ قال اللهأخبرني.

«فأخبرت حفصة عائشة في يومها بذلك فأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلى عمر فقالله إنَّ عائشة أخبرتني عن حفصة كذا ولا أثق بقولها فسل أنت حفصة فجاء عمر إلى حفصة فقال لهاما هذا الذي اخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت ما قلت لها من ذلك شيئاً فقال لها إن كان هذاحقاً فأخبرينا حتى نتقدم فيه فقالت نعم قد قال ذلك رسول الله(ص) فاجتمعوا أربعة على أن يسمّوارسول الله(ص) فنزل جبرئيل على رسول الله(ص) بهذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ يعني قد أباح اللهلكم أن تكفر عن يمينك ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني أظهر الله نبيه على ما أخبرت به وما همّوا به من قتله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ قال: قال لم يخبرهم بما علم مما همّوا به من قتله»(١).

إنَّ الذي قاله علي بن إبراهيم إذا طابقناه مع الآيات التي يجري البحث عنها فسوف نجدقصوراً في التعبير في بعض جملاته إلّا أنّ قوله في بيان «الخبر السري» وكذلك «الموضوع المعرضعنه» نجده صحيحاً صحة تامة وهو موافق للآيات الشريفة.

هذا جانب من أسرار النفاق لزوجتين من نساء النبي(ص) الذي دلَّ عليه الوحي دلالةواضحة.

---

(١)تفسير البرهان، ج٤، ص٣٥٢.

والآن لابدَّ من تحقيق الآيات الشريفة من أجل كشف الشخصيّة الوهمية لنساء النبي لا سيما تلكم المرأتان خاطب الجميع بقوله: ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارا ﴾.

ومن هذه الآية يظهر لنا جيداً أن جملة نسائه(ص) لا سيما تلكم المرأتان يفقدن هذه الصفاتـوربما اتصفن بأضدادها.

وخاطب بعد هذا المؤمنين في عدد من الآيات، ويطلب منهم السعي لتجنب الوقوع في النارهم وأهلوهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾.

ونستفيد من هذه الآيات الاثني عشر من سورة التحريم أنها نزلت في مكان واحد، وأن صدرالآيات وعجزها يرتبط جميعه في تعريف المرأتين أي عائشة وحفصة، وأعطف على الآياتالمتقدمة ما تأخر عنها وهي الآيات الثلاث أعلاه حيث تأمر المسلمين أن ينجو أنفسهم هم وأهلوهمن نار جهنم وأن يعجلوا بالتوبة النصوح عن ذنوبهم وأن لا يسيروا في طرق المعصية مرّة أخرى لأنّه إن استمروا على كفرهم وضلالهم فإنّ في يوم القيامة يجازون جزاءً

نكراً.

وبمناسبة هذا الحديث الموحى به يوصي أبوي المرأتين ومن يتصل بهما من الأهل والأقرباء أن يتوبا وأن يتركا طريق الخطر الذي سلكاه من قبل.

وهذا الجانب من الآيات يؤيد ذلك المطلب الذي ذكره علي بن إبراهيم القمي، وهو عزمهم على سم النبي بعد أن أفشت ابنتاهما سرّ النبي(ص) وعهدا بذلك إلى ابنتيهما عائشة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

إننا هنا لم نفسّر كلمة «جاهد» المذكور، في الآية﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾بالقتال لأن رسول الله(ص) ما قاتل المنافقين حياته كلها، وعلمنا من خلال ذلك أن المقصود بهالمعنى اللغوي أي بذل الوسع والجهد، وكذلك لم نفسّر كلمة «الكفار» في نفس الجملة بمطلق أهلالكفر وهم منكروا الوحدانية ورسالة النبي(ص)، وإنما اعتبرنا الآيات كلها قد نزلت في ذم نساءالنبي لا سيّما المرأتان عائشة وحفصة اللتان اتخذتا إجراءً بسم النبي(ص) من ثم رأينا معنى السياقيحتم علينا تفسير الكلمة بالمرأتين وذويهما واضعي الخطة وكذلك معنى المنافقين خاص ببقيةأفراد هذه العصابة لأنّ المنافقين العاديين لم يكن لهم ضلع في القضايا المتصلة بسورة التحريم.

والعجيب في الأمر أن هاتين الآيتين الشريفتين:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَوَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾وردتا مرتين

في القرآن بدون زيادة أو نقصان وفي كلاالمرّتين كان المقصود بهما جماعة من المسلمين إئتمروا على رسول الله بالقتل فيما بينهم: الأولى من المرّات ما تقدم من عزم عائشة وحفصة وذويهما على سم النبي(ص) ونزل ذلك في سورة التحريم والثانية في سورة التوبة وفي حكاية العقبة بالذات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ١٤٧» (١).

هذا وإنْ لم يكن للكفار الاصطلاحيين في كلا القضيتين ضلع في الحادث (حكايةالمرأتين ـ حكاية العقبة)وإنّما وضع المنافقون تصميم الخطة ولكن في نفس الوقت نرى في الحالتين أن أعضاء هاتين الحكايتين الخطيرتين هما المنافقون المحترفون، من ثم عبّر الله عنهم بالكفار!

والتعبير بالكافر عن منكر الولاية تجده متداولاً في القرآن الكريم نظير «آية التبليغ» فقد عبرعن المنكرين بهذا التعبير.

وعلى أية حال فقد حققنا تسع آيات من اثنتي عشرة آية من سورة التحريم والآن جاء دورالآيات الثلاث النازلة في آخر سورة

---

(١) سورة التوبة.

التحريم حيث ضرب الله مثلاً بامرأتين كافرتين هما زوجتانوح ولوط وامرأتين مؤمنتين هما زوجة فرعون ومريم، فإنها إشارة بالكناية إلى وضع عائشةوحفصة يوم القيامة وما يجري عليهما من ذلك اليوم المهول «والكناية أبلغ من التصريح».

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾.

نعم يظهر من المثلين الماضيين والأول ضرب مثلاً للكفار والثاني لأهل الإيمان مع حفظنظرنا فيما تقدم من استعمال الكافر في غير معناه الاصطلاحي في هذه السورة أن عائشة وحفصةهما المعنيّتان بهذا المثل وأن لفظ الكافر أطلق عليهما.

لأنّ زوجتي نوح ولوط وهما نبيّان آذتا زوجيهما وخانتاهما وبهذا السبب ألحقتا في زمرةالكافرين ودخلتا في نار جهنم، وكذلك عائشة وحفصة لما خانتا رسول الله(ص) وشاركتا في وضعخطة سمه والقضاء عليه بهذا السبب اعتبرتا في زمرة الكافرين ودخلتا معهم نار جهنم وبئسالمصير.

وبناءً على هذا عندما يعلم كفر المرأتين الباطني ودخولهما نار جهنم مع الداخلين بواسطةالوحي السماوي فإن مجموعة المناقب

والفضائل التي تروى لهما عن طريق العامة مصيرها العدموتعتبر في حكم الهباء.

نعم إنَّ معرفة البشر الدجالين الكاذبين من خلال البحوث القرآنية المركزة يجعل الفضائلالمنسوبة إليهم والمناقب المحكية عنهم مرّة واحدة تحت الطمي.

وهنا لابدَّ من تذكر نكتة لازمٌ تذكرها:

جاء في المجامع الحديثية العامة عن رجل نظير عمر بن الخطاب وأنس بن مالك وعقبة بنعامر وعاصم بن عمر بن الخطاب وقيس بن زيد روايات عدة عن رسول الله(ص) أنه طلق حفصةبنت عمر بن الخطاب.

[تجدون هذه الروايات في طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٥٨ و ٥٩) مسند أحمد (ج ٢ ص ٤٧٨)أسد الغابة (ج ٥ ص ٤٢٥ و ٤٢٦) فارجعوا إليها].

وإنْ لم يجر ذكر لسبب الطلاق هذا هل كان على أثر تحريم مارية القبطية أو على غير ذلك؟ولكننا يمكن أن نلم بالسبب منمعرفتنا بأنَّ حفصة هي أول المجلبين على النبي وهي التي أفشتالسر وقد أمرها النبي(ص) بكتمانه واستعانت بعائشة وأعانتها على محاولة سم رسول الله(ص) فلاغرابة حينئذٍ من القول على نحو الحدس الصائب: إن طلاق حفصة كان على أثر الأحداث التيذكرتها سورة التحريم.

أجل إنَّ جهاز الوضع وضع روايات صاحبت مسألة تطليقها من قبيل نزول جبرئيل على النبي وهو يقول: إنَّ حفصة زوجتك في الجنّة فراجعها وقد علم بعد ذلك أنَّ المرأتين كافرتان فيما نزل من الوحي على النبي وأنهما مخلدتان في نار جهنم وعدّ ذلك من المسلمات لابدع في ثبوت وضع هذه الروايات.

والواقع لا علم لدينا أنَّ النبي راجعها بعد الطلاق أو أنها بقيت مطلقة إلى وفاته، لأنَّ الآثار التي يمكن بواسطتها بلوغنا اليقين من دراستها إنما هي تلك الآثار التي خلفتها فترة حكومة المنافقين المحترفين وكما بان لنا في بحوث هذا الكتاب القرآنية ولاحظناه وسوف نلاحظ ما بقي منه أنَّ جهاز الوضع في عهد الخلفاء الأول والعهد الأموي والعبّاسي دأب في وضع هذه الروايات الكاذبة، وأن ما أبقاه لنا من الميراث الروائي لا يعدو حفنة من الأكاذيب والموضوعات لا غير.

ولقد لاحظتم مبلغ الجهد المبذول في استخراج رؤوس هذه الأكاذيب من خلال عرضها على القرآن الكريم والإفصاح عنها.

هذا جانب من تاريخ المنافقين في سورة التحريم الذي أفرزه البحث والتحقيق المعمق.

أولاً: كانت عائشة وحفصة مع الاتحاد التام بينهما تعدان عضوين فاعلين في حزب الخلفاء ومن الأفراد الشاخصين في فئة المنافقين المحترفين وعلمنا مقدار إخلاصهما لذلك الحزب من العمق

بحيث أرادا تصفية النبي بالسم لتتقدم أهداف تلك الفئة وتصل إليها أيديهم بسرعة.

ثانياً: رأينا عائشة وحفصة أشد جرأة على إيذاء مارية القبطية من غيرهما لاسيما بعداشتمالها على إبراهيم ابن النبي(ص) فقد ازداد حسدهما وغيظهما منهاوحقدهما عليها ... ولا غرابة في الاعتقاد من خلال الحدس الصائب أن اتهام مارية القبطية فيحملها بإبراهيم كان من شيطنة عائشة وحفصة، وأولئك الجماعة الذين ضلعوا معهما في سم رسولالله(ص) وساعدوهما على ترويج التهمة بين الناس وكذلك يمكن أن يكون حدساً صائباً اعتبارنزول آيات الإفك (الآيات ١١ إلى ٢٦ من سورة النور) في مارية القبطية ليثبت الوحي بنوّة إبراهيملرسول الله(ص)، ودفع شرة المنافقين وسوء دعايتهم ضد مارية القبطية(ع).

والحمد الله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

معرفة الإسلام على ضوء التاريخ.............خطأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

إهداء.. ٦

توجيه:.. خ

طأ! الإشارة المرجعية غير معرّفة.

المقدمة.. ٩

الفصل الأول: التحقيق حول ٣٣

التحقيق حول الآية (٣١) من سورة المدثر ٣٣

والتعرف على أثر الفريق الأوّل من المنافقين ٣٣

الذين أثبتهم قوله تعالى: {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} ٣٣

في صدر الإسلام ومبدأ ظهوره. ٣٣

عرض آيات البحث.. ٣٤

المبحث الأوّل ٣٦

التعرف على أثر أول المنافقين ٣٦

حديث مرض القلب:.. ٤٤

بحوث سورة النجم.. ٤٩

المبحث الأوّل ٥١

تميّز وجه واحد من هؤلاء المنافقين المحترفين.............................. ٥١

بحث الأيتين ٣٣ ـ ٥٥ من سورة النجم ٥٣

والتعرف على ملامح فريق المنافقين المحترفين ٥٣

البحوث في سورة عبس ٦١

* المبحث الأول:... ٦١

تحقيق آيات سورة عبس وفحصها لإظهار صورة أولئك المنافقين المحترفين........ ٦١

* المبحث الثاني :.. ٦١

السر في تغيير وضع سورة عبس بعد سورة النازعات في القرآن المتداول اليوم............ ٦١

المبحث الأول ٦٣

تحقيق الآيات من سورة عبس ٦٤

وإظهار صورة ذات المنافق المحترف...٦٤
من الشخص الذي نزلت فيه السورة [١]:..٦٨
المبحث الثاني ٨٣
السر في تغيير تسلسل سورة عبس بعد سورة..٨٣
النازعات في القرآن المتداول والمعمول به اليوم......................................٨٣
البحوث في ثلاثة عشر آية ٨٦
من سورة العنكبوت...٨٦
الفصل الأول ٩٠
مباحث سورة البقرة...١٠٤
المبحث الأول ١٠٨
البحث العام في آيات سورة البقرة وظهور سؤال حول ١٠٨
مصاديق الآيات الثامنة إلى العشرين من السورة نفسها..............................١٠٨
عقد المقارنة وإظهار أن مصاديق الآيات الثامنة إلى الآية العشرين من سورة البقرة هم المنافقون المحترفون أنفسهم............................ ١١٣
بحث في الآيات من ٢٠٤ إلى ٢٠٧ من سورة البقرة ١٢١
المبحث الأول ١٢٣
بحث الآيات ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة والإعراب عن ١٢٣
ملامح شخص آخر من فئة المنافقين المحترفين......................................١٢٣
ملحق البحث المتقدم:..١٢٧
المبحث الثاني ١٣٠
نقد روايات العامة وتحقيقها حول ١٣٠
الآيتين ٢٠٤ إلى ٢٠٦ من سورة البقرة ١٣٠
المبحث الثالث ١٣٣
توضيح آخر عن الآية «٢٠٧» من سورة البقرة..١٣٣
وإبرازملامح أكمل صحابي عاصرالنبي وعاش معه (ص) ١٣٣
المبحث الرابع..١٣٨
بحوث في الآيات ٣٨ ـ ٤٢ ....١٥٠
من سورة التوبة...١٥٠

المبحث الأول ١٥٣

تحقيق مفاد آية الغار ابتداءً (آية ٤٠ من سورة التوبة) ١٥٣

في سياقها من الآيات السابقة واللاحقة ولسانها في التعبير ١٥٣

المبحث الثاني ١٥٨

تحقيق مفاد آية الغار الأخير ومقابلتها بسائر الآيات ١٥٨

الوارد فيها لفظ «نزول سكينة الله» ١٥٨

وظهور وجهاً خر من وجوه المنافقين المحترفين ١٥٨

المبحث الثالث ١٦٢

نقد الروايات العامية عنآية الغار وتحقيقها ١٦٢

بحوث في سورة الأنفال ١٧٣

والكلام عن غزوة بدر ١٧٣

المبحث الأول ١٧٨

بحث آيات من سورة الأنفال التي تنص على وجود ١٧٨

منافقين محترفين ومنافقين عاديين في غزوة بدر ١٧٨

وتمييز خصائصهما لظاهرة في تلك الغزوة ١٧٨

المبحث الثاني ١٨٩

التعرف على المنافقين المحترفين الذين حضروا واقعة بدر ١٨٩

التحقيق في شخصية عبد الرحمن بن عوف: ١٩٧

التحقيق في شخصية سعد بن أبي وقاص: ٢٠٦

المبحث الثالث ٢١١

التعرف على طائفة من المؤمنين الحقيقيين ٢١١

الذين حضروا غزوة بدر ٢١١

بحوث من سورة آل عمران ٢٢١

من الآية ٢٨ ـ ٣٢ .... ٢٢١

الفئات المقاتلة في وقعة أحد:................................ ٢٧١
المبحث الثاني ٢٧٥
فئة الشاكرين والفرد المقطوع به منهم ٢٧٥
المبحث الثالث ٢٨٢
«المقتولون في سبيل الله» ٢٨٢
وسمات الفرد المقطوع بكونه منهم ٢٨٢
المبحث الرابع ٢٨٨
التحقيق بشأن أفراد ثلاثة من فئة المنافقين المحترفين ٢٨٨
الذين حضروا غزوة أحد ٢٨٨
زيادة معرفة:.. ٢٩٢
بحث حول الروايات الموضوعة ٣٠٦
لصالح المنافقين المحترفين في غزوة أحد ٣٠٦
المبحث الخامس ٣٢٠
التحقيق حول ماكان عليه من الحال سعد بن عباده ٣٢٠
وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير ومحمد بن مسلمه في غزوة أحد........... ٣٢٠
نظرة في سورة الأحزاب ٣٣١
للآيات من ٩ ـ ٢٧ .... ٣٣١
متن الآيات ٣٣٣
أثر الآيات من سورة الأحزاب في البحوث المرتبطة بهذا الكتاب:............ ٣٣٤
قصة غزوة الأحزاب كما وقعت:.. ٣٣٦
التحقيق في وضع «المؤمنين العاديين»............................... ٣٤٢
في الآيات من آية ٩ إلى آية ٢٧ من سورة الأحزاب ٣٤٢
تركيز البحث حول وضع «المنافقين المحترفين» ٣٤٦
في الآيات ٩ إلى ٢٧ من الأحزاب.................................... ٣٤٦
تحقيق ماكان عليه وضع المؤمنين الحقيقيين....................... ٣٦٢
الصادقين في الآيات (٩ إلى ٢٧) من سورة الأحزاب ٣٦٢
معرفة المؤمن الحقيقي المتميز.. ٣٦٦
أصل المقارنة:... ٣٧٠

بحث في الآيات ٢٨ ـ ٣٥ من سورة الأحزاب.......................... ٣٨٠
متن الآيات ٢٨ إلى ٣٥ «سورةالأحزاب»:............................ ٣٨٠
تحقيق «آية التخيير» الآيتان ٢٨ و ٢٩ من سورة الأحزاب............... ٣٨١
وحكاية نساء النبي في تمرّدهنّ عليه.................................. ٣٨١
تحقيق الآيات التي لها صلة وثيقة بالغنائم............................ ٣٨٦
تحقيق ماوجب على نساء النبي من التكاليف واجبة..................... ٣٩٣
الرعاية من الآيات ٢٨ إلى ٣٥ سورة الأحزاب........................... ٣٩٣
معرفة عائشة بنت أبي بكر... ٣٩٩
إزاء التكاليف المنوطة بنساء النبي مارة الذكر......................... ٣٩٩
تحقيق مفاد آية «التطهير» وأخذ النتيجة من ذلك....................... ٤٠٦
فهرس المصادر العامية للروايات المختصة بآية التطهير.................. ٤١٩
بحث في الآيات ٥٣ ـ ٦٢ من سورة الأحزاب............................ ٤٢٢
تحقيق تفاوت واللهجة في آيات «سورة الأحزاب»........................ ٤٢٣
عن سائر الآيات في القرآن الكريم.................................... ٤٢٣
قصة نزول الحجاب وإضفاء الستور على نساء النبي (ص)................. ٤٢٧
التعرف على وجهين بارزين من المنافقين المحترفين...................... ٤٣٥
فيحديث ضرب الستر على نساء النبي.................................. ٤٣٥
اتساع رقعة الإيذاء بعد نزول آية الحجاب............................... ٤٣٩
تحقيق موقف عمر بن الخطاب مما كان يجري............................ ٤٤٥
نزول الوحي في موضوع الإيذاء....................................... ٤٥٢
تقطيع ٢٩ آية إلى ثلاث مجموعات في النظام التركيبي..................... ٤٥٨
لآيات «سورة الأحزاب»)آيات ١ إلى ٦ و ٣٦ إلى ٤٨ و ٥٣ إلى ٦٢... ٤٥٨
البحث في سورة التحريم.. ٤٦٧
من ١ ـ ٢٤١... ٤٦٧
متن الآيات.. ٤٦٩
الفصل الأول.. ٤٧٠
تحقيق الآيتين الأوليين من سورة التحريم................................ ٤٧٠
حديث مارية القبطية أم ابراهيم ابن رسول الله............................ ٤٧٢
ونزول سورة التحريم... ٤٧٢
التعرف على عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر....................... ٤٧٩
في آيات «سورة التحريم»... ٤٧٩
فهرس الموضوعات... ٤٩٢